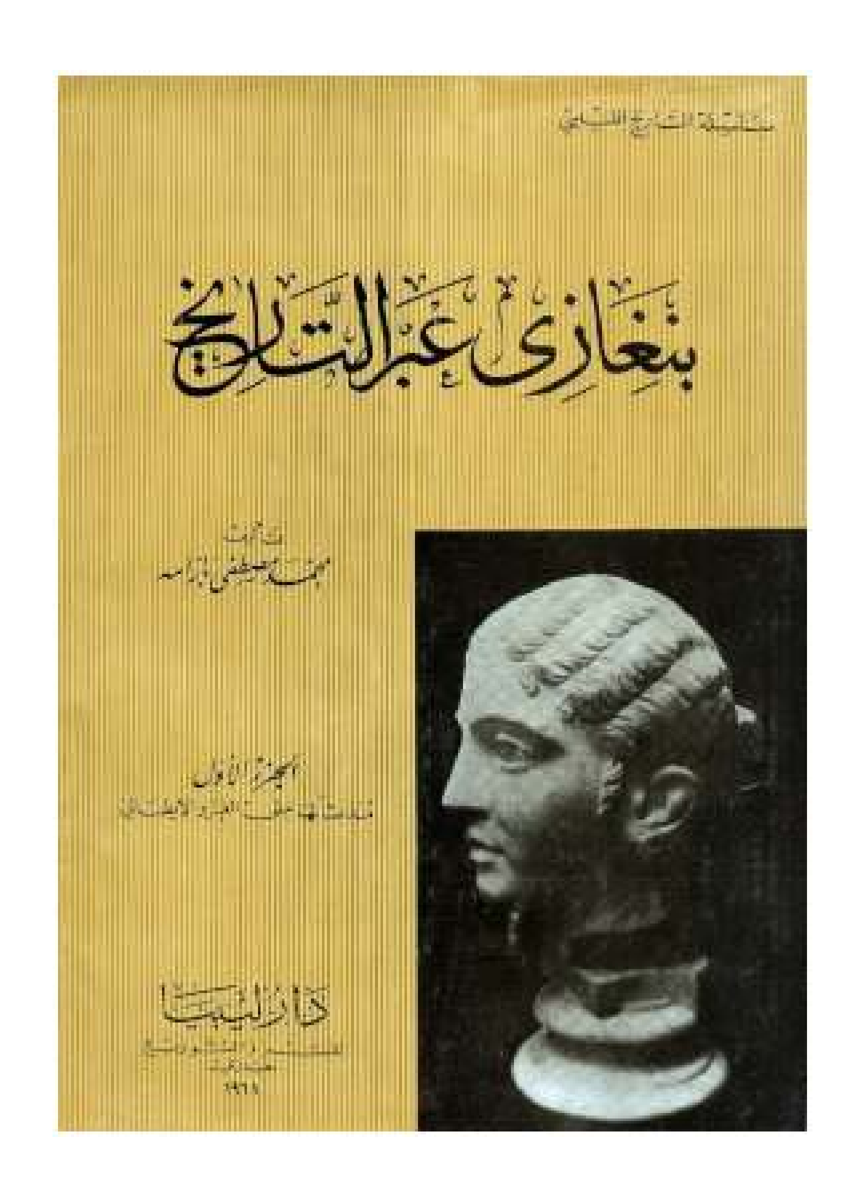


بنغازي عبر التاريخ
محمد مصطفى بازامه
الجزء الأول
دار ليبيا



لوحة أثرية ملوّنة منقوشة عثر عليها بالصابري

(راجع الصفحة ١٨٠)

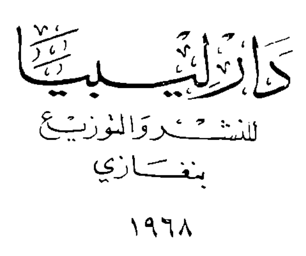
مدينة بنغازي
عبر التاريخ

سلسلة التاريخ الليبي

مدينة
بنغازي عبر التاريخ

تأليف
محمد مصطفى بازامه

الجزء الأول
منذ نشأتها حتى الغزو الإيطالي



١٩٦٨

BENGHAZI
THROUGHOUT HISTORY

By
M. M. BAZAMA

VOL : I

DAR LIBYA
Publishing Co. Ltd.
BENGHAZI - LIBYA
1968

الإهداء

إليكِ يا مدينتي الخالدة !

يا من رأيت فيكِ النور ،

وعرفت معنى الحياة

أهدي هذه الصفحات المتواضعة :

من ماضيكِ التليد ،

وحاضركِ المجيد ،

وغدكِ الباسم !

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اتجه الناس منذ أن كتبوا في التاريخ مذاهب شتى. فلقد أرّخوا للعالم ككل، وللانسانية كمجموع، وأرّخوا للقارات وشعوبها، وللأمم وللأقاليم، وللمدن ولمن عاش بها من الناس، بل وللقصور والقلاع؛ كما أرّخوا للافراد من الملوك، والامراء، والعلماء، والادباء، والشعراء، والفنانين؛ وكما أرّخوا لشتى ضروب المعرفة البشرية من فلسفة وأدب وعلوم وفنون. غير أن معالجة التاريخ أمر صعب وإن كان لا يدرك صعوبات الكتابة فيه إلا من تجابهه هذه الصعاب وتتحداه، ولولا لذة الكشف، ولولا الأمل في التوفيق، لما تعرض للتاريخ كاتب؛ ولولا الإحساس بقوة الصلة بين الإنسان وماضيه، لما اهتم بالبحث المضني في زوايا التاريخ باحث. ولكن الماضي بسحره وتأثيره القوي يشد المؤرخ اليه، ويزج به فيدفعه دفعاً الى البحث فالكتابة، وليس للمؤلف فيما يؤلفه — في حقيقة الأمر — خيار.

لا غرابة اذن في أن اقدم لك اليوم أيها القارىء العربي تاريخ المدينة التي رأيت فيها النور، واستنشقت فيها أول عبير للحياة، فهي واحدة من مدننا الليبية التي يستحق كل منها أن يسجل لها ما قامت به من أدوار في التاريخ.

ولعلهـــا أول محاولة يبذلها ليبي – على الأقل في العصر الحديث – ، وآمل مخلصاً ان تتلوها محاولات مماثلة لكتابة تاريخ جميع مدننا وقرانا، فإن لكل منها تاريخاً حديثاً ، ولمعظمها كما لمدينة بنغازي تاريخ حافل ، وفي القـــدم عريق ؛ ومن حق هذه المدن على أبنائها ان يسجلوا تاريخهـــا ليحفظوه تراثاً للامة قبل الضياع حتى يبقى نبراساً يضيء للاجيال القادمة طريق المستقبل بما يقدمه الماضي لهم من تجارب وخبرات الآباء والأجداد .

وتاريخ هـــذه المدينة حافل بالأحداث الجسام خلال عصور مديدة في التاريخ غير أنه لم يسبق لأحد أن جمعه في كتاب ، ولذلك فقد كان عليّ وقد تصديت له أن أبحث عنه في المراجع التاريخية القديمـة والحديثة على السواء ، وأن أتسقطه هنا وهنـاك ، وكان عليّ أحياناً ان اقوم بفصل دور المدينة في أحداث أشمل وأعمّ ، وكان عليّ بعد ذلك ان ادرس ما تجمع لديّ من اخبارها في كل عصر ، وكان عليّ في بعض الاحيـان أن أعمد الى الاستنتاجات المبنية على استقراء الأحداث ، وهذا مركب صعب يتحاشاه المؤرخون ما امكنهم ذلك لكثرة وتعدد المزالق فيه ، ولكنهم يلجأون اليه حينما لا يبقى من ذلك مفر ولا مهرب . وهكذا أمكنني في النهاية أن أوجد لمدينة بنغازي تاريخهـا وأن اقدمه لك ايهـــا القارىء العربي في كتاب اسميته « مدينة بنغازي عبر التاريخ » وجعلته حلقة في « سلسلة التاريخ الليبي » التي سبق وأن قدمت لك منها بضع حلقات .

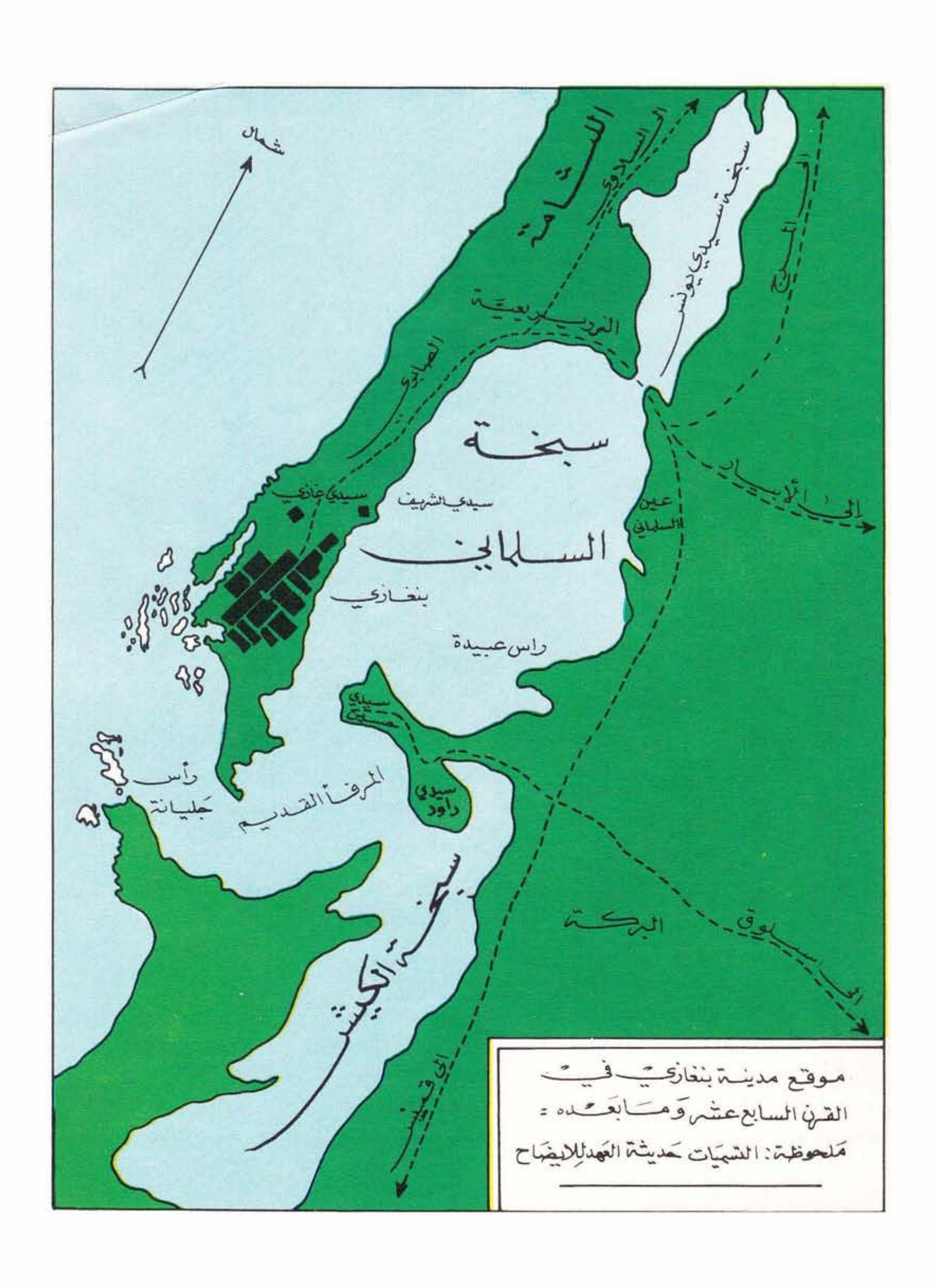
ولما كان التاريخ طويلاً والمادة وفيرة ، فقد جزأته الى قسمين وجعلته من جزئين متتابعين لأقف بالأول منهما عند بداية القرن العشرين أو على الأصح عند نهاية الحكم العثماني. وقد اخترت هذا التاريخ بالذات نهاية ، لأن مدينـــة بنغازي في نهايته قد استكملت جميع مستلزمات المدينة عدا شبكتي المجـاري

والميـــاه ، ولأنها ببداية العهد التالي قد دخلت دوراً حديثاً له طابعه المميز كعاصمة للإقليم ، وكمدينة من مدن القرن العشرين . والفصل بعد هذا لا يعني سوى ان الكتاب سيصبح من جزئين وفي مجلدين .

وإني إذ اقدم لك أيها القارىء العربي هذا الجزء الأول من : « مدينـــة بنغازي عبر التاريخ » ، وأرجو أن ينال استحسانك ورضاك ، لأعد بأن أقدم لك الجزء الثاني منه عما قريب بعون الله وحسن توفيقه .

المؤلف

يناير ١٩٦٨


شمال
سبخة
السلماني
سيدي الشريف
سيدي غازي
بنغازي
راس عبيدة
عين السلماني
سيدي داود
رأس جليانة
المرفأ القديم
سبخة الكيش
البركة
سبخة سيدي يونس
الصابري
الى الأبيار
الى سلوق
الى قمينس
موقع مدينة بنغازي في
القرن السابع عشر وما بعده =
ملحوظة: التسميات حديثة العهد للايضاح

الفصل الاوّل

التسمية عبر التاريخ

— مدخل .
— صلة اليونان بليبيا ونشأة مدنهم بها .
— أول ذكر لاسم مدينة يوهسبيريدس في التاريخ .
— مدينة أقصى الغرب .
— مدينة حدائق الغرب الخصبة .
— من يوهسبيريدس الى هسبيريدس .
— من هسبيريدس إلى هسبيريس .
— مدينة جديدة باسم جديد .
— مدينة برنيس .
— من برنيس الى برنيكس .
— من برنيكس الى فرنشيدي .
— برنيق اسم حائر .
— كوية الملح .
— مرسى ابن غازي .
— مدينة بنغازي .
— الخطأ في بني غازي .
— الخلاصة .
— هوامش وتعليقات .

الفصل الاوّل

التسمية عبر التاريخ

١ – مدخل :

قليلة هي تلك المدن العريقة ، التي تعرضت عبر تاريخها المديد لأن تسمى بأكثر من اسم ، وأن تتخذ كل تسمية منها دورها التطوري عبر الزمن ، فتبدو في أكثر من شكل ، ثم لا يكون – مع ذلك – للتسمية الأولى أية علاقة بالتسمية الثانية ، ولا لهذه أية صلة ، أيضاً ، بالتسمية الثالثة ؛ كما هي الحال بالنسبة لتسميات مدينة : يوهسبيريدس اليونانية ، فبرنيكي البطلمية – الرومانية ، فبرنيق العربية ، فبنغازي الحالية .

وفي هذا الفصل ، الأول من الدراسة ، سأحاول ، وفي حدود ما تسمح به مراجعي التاريخية ، دراسة تطور هذه التسميات ، دراسة تاريخية : فأصاحب التاريخ في تعاقب عصوره وتطورها ، حتى أصل بدراستي الى اسمها الذي تعرف به في عصرنا الحاضر ؛ وأقف بالتسمية ، عند كل تحول في رسم التسمية ،أو تغيير فيها ، محاولاً في وقفتي دراسة الأسباب المؤثرة ، كلما كانت الدراسة ممكنة ؛ وفي نفس الوقت ، سأحاول شرح المعاني المتخفية

وراء هذه التسميات ، أو بعضها على الأقل .

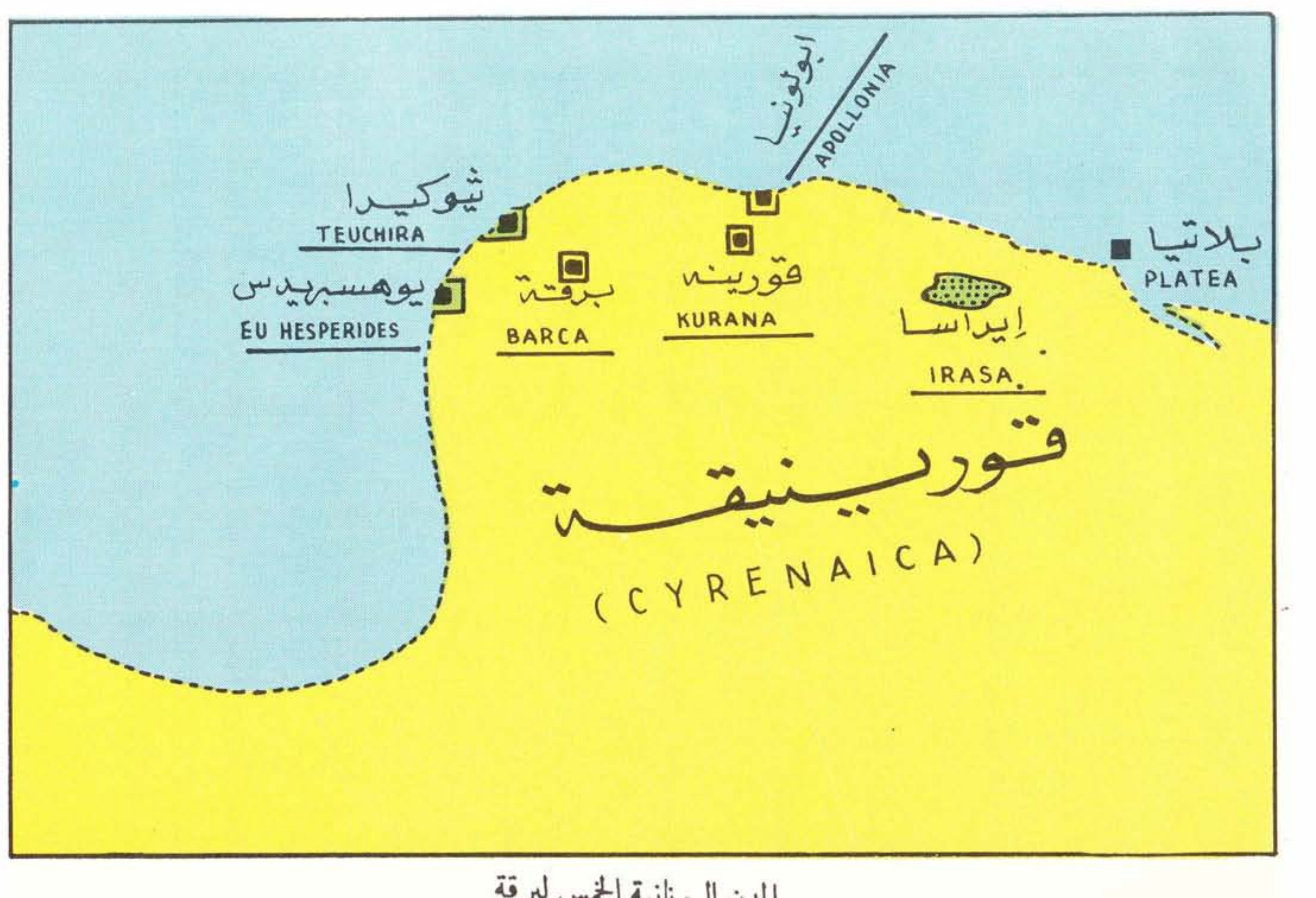
ولا أدعي بهذا ، أنني قد جئت في هذا بفصل الخطاب ، فقد تكون هنالك نظريات ، أو تفسيرات ، لم أوفق حتى الآن ، في الوقوف عليها ، والعلم بوجودها ، وبالتالي ، فلم أرجع اليها ، ولذا أرجو من الباحثين في هذا الموضوع ، متى وجدوا شيئاً جديداً في هذا الأمر ، لم أشر اليه ، أن لا يعتبروا عدم اشارتي اليه هنا ، اغفالاً مني له ، أو اهمالاً ، أو استبعاداً !

وسأمهد لهذه الدراسة ، في لمحة خاطفة سريعة ، بكيفية اتصال اليونانيين ، بليبيا ، واستقرارهم في الأجزاء الشرقية منها ، حتى أصل بالقارىء غير المتخصص بالتاريخ ، الى نوع من الربط بين هذا الشعب الطارىء على البلاد وبين الشعب الليبي ساكنها الأصيل .

٢ – صلة اليونانيين بليبيا ونشأة مدنهم بها :

عرف اليونانيون أول ما عرفوا ، من الساحل الشرقي لليبيا الحديثة[١]، جزيرة بلاتيا ، أو فلاطيا Platea ، كما يحلو للبعض أن يسميها[٢]. ومن هذه الجزيرة ، انتقلوا – حسب روايتي اسطورة النزوح الإغريقي[٣]– إلى مدينة أو موضع سماه شيخ التاريخ هيرودوت : ازيريس Aziris ، وسماه غيره أزيليس Azilis[٤]؛ ثم انتقلوا منها ، الى المكان الذي قامت فيه مدينة قورينة Cyrene = Kurana ، عبر سهل ايراسا Irasa[٥] الخصيب .

وفي المكان الذي أنشئت عليه مدينتهم هذه ، استقر باليونانيين المقام ، حيث قامت أول مدنهم اليونانية في ليبيا ، وقد أعيد تاريخ نشأتها ، إلى منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، وبالدقة حسب تحقيق ثريدج وتحديده في



المدن اليونانية الخمس لبرقة

« تاريخ قورينة »[٦] إلى سنة ٦٣١ قبل الميلاد[٧].

ومن قورينة ، امتدت شراذمهم البشرية النازحة[٨]، الى هذه المنطقة من الشمال الافريقي ، نحو الغرب ، فأصبحت مدينة برقة[٩]، مدينة يونانية ثانية[١٠]، ثم أصبحت مدينـــة تيوكيرا[١١]، ثالث مدنهم نحو الغرب ، ويوهسبيريدس[١٢] رابع وآخر مدنهم[١٣] في هذه الجهة .

٣ – أول ذكر لاسم مدينة يوهسبيريدس في التاريخ :

واذا كان تاريخ اليونان ، في هذه المنطقة من ليبيا ، (برقة) ، لا يعود الى أبعد من النصف الثاني من القرن السابـع قبل الميلاد ، فإن نصوص الفراعنة العديدة ، قد قدمت لنا طائفة من اخبـار الليبيين ، الراجعة الى عهود أقدم من ذلك كثيراً[١٤]، ولكن مع شديد الأسف ، فإن جميـع تلك النصوص الفرعونية ، لم تقدم لنا أية معلومات عن جغرافية هذه المنطقة ، ممـا سبب جهلنا التام ، بكل شيء عن المدن الليبية ، قبل عهد اتصال الليبيين باليونان .

وكما سكتت نصوص الفراعنة عن جغرافية ليبيـــا ، فإن ما وصلنا من تاريخ الفينيقيين الغربيين (البونيقيين)[١٥]، قد جعلنا هو الآخر ، في حالة عجز تام ، عن رسم أية خريطة تاريخية ، لليبيا ، في أوائل أو قبل عهـــد اليونان في ليبيـا ، أو على الأقل ، في الجانب الشرقي من شمالها ، وهو الذي يهمنا هنا لوقوع مدينة بنغازي به .

وكذلك ، لم يقدم لنا علماء الآثار ، اية معلومات عن تاريخ ليبيا القديم ، الراجع الى عهـــد ما قبل القرن السابـع قبل الميلاد ، اللهم ، إلا فيما يتعلق بمخلفات العصور الحجرية ، وعهد الرسوم البدائية ، لسكان الصحراء[١٦]؛ وهذه الاخيرة ، لا تعنينا في شيء هنا ، لوقوع جميع ما كشف عنه منهـــا حتى الآن بالجنوب .

وجميع هذا ، إنما يعني جهلنا التام بما اذا كان للمدينة التي ذكرها اليونان باسم يوهسبيريدس Euhesperides – وكذلك بقية المدن اليونانية الاخرى – قد وجدت كمدينة ، او كقرية ، او حتى كمركز تجمع بشري ، قبل مجيء الاغريق إلى ليبيا ، واستقرارهم بين سهولها ، ونجادها ، وعلى ضفاف أوديتها.

وفي حدود ما اطلعنا عليه من مصادر التاريخ القديم ، فإن المؤرخ اليوناني هيرودوت[١٧] ، هو أول من ذكر هذه المدينة من المؤرخين باسم يوهسبيريديس (في اليونانية Εὐεσπερίδες) وقد ورد ذكرها عنده ، في الفقرات : ١٧١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ من الكتاب الرابع من تاريخه ؛ فقد قال في أولى هذه الفقرات ، وهو يتحدث عن الليبيين ، ومنازل قبائلهم : « ... ... يحد قبيلةالازبستوس Azbisti من الغرب قبيلة الأوسكيز Auschisi ، وهؤلاء يسكنون فوق برقة (المدينة) ، حيث تمتد منازلهم إلى البحر ، على مقربة من يوهسبيريدس[١٨] .

إن يوهسبيريدس هنا ، مدينـة ، او منطقة ، تقع على شاطىء البحر ، وإذا لاحظنا أن هيرودوت ، كان في استعراضه للقبائل الليبية ، المعاصرة لزمنه ، قد بدأ من الشرق ، واتجه غرباً ، أمكننا القول استنتاجاً حتى من هذا النص وحده ، بأن يوهسبيريدس هذه ، تقع الى الغرب من مدينة برقة .

وقال هيرودوت ، في الفقرة الثانية ، عن هذه المدينة ، في معرض حديثه عن المناطق الخصبة من ليبيا : « ... خصبة أيضاً ، تلك الأراضي المسكونة من الإيوهسبيريديين ، إذ انها ، حينما يكون الانتاج حسناً ، تغل إلى مائة ضعف »[١٩].

ونلاحظ هنا ، أن هيرودوت ، في هذا النص ، على خلاف ما أورده في النصين : الأول ، والثالث ، قد عيَّن المنطقة ، أو الموضع ، بنسبته إلى من

سماهم بالايوهسبيريديين ، وليس إلى الموضع ، أو المدينة ، التي تحمل الاسم في الروايتين الأخيرتين .

وقال هيرودوت في نصه الثالث ، وفي معرض الحديث عن حملة الفرس ، ضد برقة[٢٠]، ما يلي : « .... هذه الحملة الفارسية ، وصلت من ليبيا حتى يوهسبيريدس على أقصى احتمال . »[٢١].

هذه النصوص الثلاثة ، التي بأيدينا ، عن المؤرخ اليوناني هيرودوت ، تعود تأليفاً ، أي تدويناً ، الى القرن الخامس قبل الميلاد ؛ وهي ، كما رأينا هنا ، مختلفة عن بعضها بعض الشيء ، فبينما الاول والثاني منها ، يقرران وصفاً لها ، وتحديداً لموقعها ، في عهد المؤلف ، فإن النص الثالث من بينها ليس كذلك ، فهو يسجل لنا حادثة تعود الى أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، (بين سنتي ٥١٠ و ٥٠٧ قبل الميلاد) . وهذا التاريخ ، يحدد وجودها بلدة أو مدينة في ذلك الزمن ، حتى ولو أن رواية هيرودوت ، لا تحمل غير الإسم فقط ؛ ذلك أن سياق الحديث عنها وعن غيرها من مدن المنطقة ، يعطينا مفهوماً معيناً للاسم ، على انه لبلدة أو مدينة ، فقد اعتاد هيرودوت ، أن يذكر المدن بالإسم مجرداً ، ومن غير أن يسبقه بلفظ مدينة، في معظم كتابته .

ونجد عند هيرودوت أيضاً[٢٢]: نبوءة لهاتف دلفي ، تحذر أرشيزلاو الثالث ، من الاقتراب من المدينة المحاطة بالمياه[٢٣]. وبالرغم من أن المدينة التي تنطبق عليها هذه الصفة ، لم تعين بالاسم ، إلا أننا نعتقد جازمين بأنها هي مدينة ، يوهسبيريدس لأن الوصف لا يكاد ينطبق على غيرها من مدن برقة اليونانية ، فهي وحدها التي تقع بين البحر والمستنقع ، على رأسٍ مرتفع قليلاً ، مما يجعلها وسط المياه تقريباً[٢٤]. وهذا النص من هيرودوت أيضاً

يعود بوجود المدينة (اذا صح استنتاجنا) إلى سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، وهي السنة التي وقع فيها بالتقريب ، ذلـــك الحادث الذي أدى ، إلى استشارة ارشيزلاو الثالث لهاتف أبولون بدلفي .

وهذا النص أيضاً ، مثل سابقه ، لا يأمر الملك بانشائها ، وانما يحذره من دخولها ، وهذا يعني أنها موجودة قبل هذا التاريخ أيضاً ، مما يدعونا ، إلى افتراض أنها قد تكون موجودة وقائمة ، حتى قبل ذلك التاريخ بزمن بعيد، ربما ، يعود إلى أبعد من عهد استقرار اليونانيين ، في الجانب الشرقي من ليبيا. وما هذا الفرض ، إلا لأن هيرودوت ، قد سكت في تاريخه ، عن نسبة نشأة المدينة إلى اليونان ، كما فعل في قورينة وبرقة . وحتى لو تجاوزنا عن هــذا الفرض الأخير ، وقلنا بأنها قد تكون من صنــع اليونان ، فان قيامها ، لا يمكن أن يحدد بالسنة التي استشير فيها الهاتف ، ولا بد ، أن يرجع إلى ما قبل ذلك ، وربما إلى نفس الفترة التي قامت فيهـا مدينة برقة ، إلى النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد .

هذا من جهة ، ومن أخرى ، فإننا نجـــد أن النص الأول ، كالنص الثالث ، في رواية هيرودوت، إنما يحددان مدينة ، حملت اسم يوهسبيريدس. أما النص الثاني ، فقد كان في غاية الوضوح ، على أن اسم يوهسبيريدس ، ذو دلالة إتنولوجية ، يحمله أناس يسكنون منطقة زراعية خصبة ، تعطي انتاجاً جيداً ، في سنوات الخصب ، وليس على أنه اسم لمدينة ، أو منطقة . وهذا الأسلوب نجده عند هيرودوت ، حينما يتحدث عن سكان المدن ، في الغالب فهو يسمي أهل قورينة مثلاً ، بالقورينيين ، وأهل برقه بالبرقيين ؛ ولكنه، لا ينسب هنا ، الذين أسماهم بالايوهسبيريديين ، لا إلى اليونانيين ، ولا إلى الليبيين ، مما يجعلنا في حل من افتراض ليبيتهم ، أو على الأقل ، اعتبارهم

مزيجاً من الشعبين . وهذا ينتهي بنا إلى الإعتقاد ، بأن المدينة ذاتها ، ليست يونانية النشأة ، الأمر الذي نستطيع معه ، الإتخاذ من سكوت النص ، عن تاريخ نشأة المدينة ، وعن تعيين جنس ساكنيها ، دليلاً آخر ، يدعم افتراض قدم نشأتها وأسبقية قيامها ، ربما حتى لعهد استقرارهم في برقة ، من الشمال الإفريقي .

وليس ما افترضناه ، من قدم نشأة هـــذه المدينة ، شاملاً للتسمية التي ذكرها هيرودوت ، فمن الثابت لغة ، أن الإسم يوناني الجرس ، والأصـــل ، والاشتقاق . وهذا أيضاً ، يمكن تدبره ، بالعودة إلى عادة هـــذا المؤرخ اليوناني ، في اسباغ أسماء يونانية ، على المناطق ، والمعبودات التي تحدث عنها ، معيداً لها في أصلها الأول ، إلى ليبيا والليبيين ، أو مصر والمصريين ، أو غيرهم من البلدان والشعوب .

وعلى الرغم ، من أن هيرودوت ، فيما رواه عن ليبيا ، ليس دائماً بالثقة ، فهو كما يصرح شخصياً ، راوية سماع ، في بعض ما قدمه لنا من تاريخـه ، وهو ، في كثير من الحالات ، راوي سماع ، لما لا يمكن أن يكون قد شاهده بذاته ، إلا أن روايته هذه ، مع ذلك ، وعلى الشكل الذي وردت عليه ، لا تحمل بذور شك في وقتها ، فهي ، إما وصف جغرافي عام ، وإما تحديد لمنطقة سكن قبيلة ليبية ، وإما حديث عن حمـــلة الفرس على برقة ؛ وهذه ، رواية قبـــل بها المؤرخون لعوامل ، وبعد دراسات في التاريخ المقارن . والنص الوحيد ، الذي قد يثـــار الشك حوله ، هو ذلك النص المبهم ، عن المدينة التي تحيط بها المياه ؛ فقد يثير البعض ، احتمال أن النص ، على هذا الشكل ، لم يرد في الأصل الأول ، لما كتب هيرودوت ، وأنه ، إنما أضيف فيما بعد ، من أحد كهنة معبد أبولون ، بدلفي ، أو من غيره ،

لإعطاء نبوءة الهاتف ، دلالة تاريخية صادقة ، استمدت من نهاية آخر الملوك الباطيين بهذه المدينة ، على ما سيرد في موضعه المناسب من هذه الدراسة .

إن رواية هيرودوت إذن ، هي أول مرة يورد فيها التاريخ ، اسم هذه المدينة ، على أنه « يوهسبيريدس » ، وهذا ، يؤكد وجودهـا في نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، على الأقل، مع احتمال أنها اقدم من ذلك التاريخ عهداً .

٤ — مدينة اقصى الغرب :

واسم هسبيريدس Hesperides أو على الأصح ، يوهسبيريدس ، ذو صلة مباشرة ، بحديقة ، أو بستان الهسبيريدات ، ذلك البستان الاسطوري ، في الميثولوجيا اليونانية[٢٥].

ولفظة هسبيريدس هذه ، مشتقة فيما يرى العلماء المختصون ، في الدراسات اليونانية ، من كلمة : هسبيرا ، (في اليونانية Εσπερα') ، التي هي ، كلفظة هسبيروس Hesperos ، (في اليونانيـــة Εσπερος') ، تعني المساء ، أو مغيب الشمس ، أي الغروب ، كما تدل على هذا ، اسطورة إيوس Ios ، أو نجمة الصباح[٢٦].

ولا حاجة بنا ، إلى عالم الميثولوجيا ، ودنيا الأساطير ، وآراء العلمـاء اللغويين ، لمعرفة هذا، فلا يزال اليونانيون اليوم، والمتحدثون باليونانية، يحيون بعضهم ، تحية المساء التقليدية ، بعبارة : « كالي أسبيرا Kalli - Espera » كما نحيي نحن ، المتحدثون بالعربية : أسعدت مساء ، أو مساء الخير ، أو ما شابه ذلك .

ومن الأسطورة اليونانية ، عـن بستان الهسبيريدات ، نجـد أن الهسبيريدات الثلاث[٢٧]، هن بنات الليل ، عند البعض ، أو هن بنات

أطلس Atlas ، من هسبيريس Hesperis ، بنت هسبيروس Hesperos عند آخرين[٢٨]، وقد أقمــن حارسات على بستان الهسبيريدات ، أو الهسبيريدس الميثولوجي ، الواقع في أقصى الغرب[٢٩].

المساء ، الغروب ، الغرب ، هي المعاني التي يدور حولها لفظ يوهسبيريدس هذا ؛ ولذلك ، يذهب بنديتو بوناتشيلي ، في مقال له[٣٠] إلى أن مدلول التسمية ، ربما ، عنى عند الإغريق ، آنذاك ، الإشارة إلى أنهــا المدينة الغربية ، أو مدينة الغرب . وهذا ، رأي أقامه أصلاً ، على الاشتقاق اللفظي للتسمية وحدها ، ولكن ، يدعمه الواقع الجغرافي ، لموقع هذه المدينة ، من مناطق استقرار اليونانيين في برقة، فهي بالتأكيد، آخر ما بلغه المد اليوناني ، في هذا الإقليم غرباً ؛ وتسميتها بالجهة الواقعة فيها ، أسلوب شائــع ، في ابتكار المسميات الجغرافية ، متعارف عليه ، عند كافة الشعوب ، سواء في الزمن القديم ، أو في العصر الحديث ؛ فالعرب مثلاً ، يسمون الجناح الغربي من الوطن العربي ، ببلاد المغرب ، والشعوب الأوربية ، تسمي آخر قارة آسيا ، ببلدان الشرق الأقصى ، ويسمون شعوب اسكاندنافيا ، بالشماليين ، أو أهل الشمال ؛ والأمثلة كثيرة ، على هــذا النهج في التسمية ، ونكاد نعثر عليها ، في جميــع البلدان ، وفي كل العصور التاريخية .

أما مقطع « يو Eu » ، الذي نجده ، يسبق لفظة هسبيريدس ، في اسم المدينة ، فهو زائد على أصل الكلمة، في اليونانية، كما سبق أن لاحظناه ، في هسبيرا ، وفي هسبيروس ، أما هذا المقطع ، فهو في رأي العلامة الإيطالي ، « بوناتشيلي » : تأكيد لصفة الإغراق في البعد ، أو هو ما يقابل مقطــع (ssimo ...) في اللغة الايطالية[٣١]، وهو ، بهذا المفهوم ، قد يقابل في العربية هنا ، المعنى الذي تعطيه كلمة « أقصى » ، ويصبح لاسم يوهسبيريدس

في اللغة اليونانية مدلولاً هو : « مدينة أقصى الغرب » .

وتسمية المدينة هكذا :« مدينة أقصى الغرب » ، أي منسوبة إلى الجهة، لا يمكن أن يكون إلا يونانياً ، أو على الأقل ، أجنبياً ، وغير نابع عن سكان المدينة ذاتها ، إذ من غير المعقول ، أن يصدر عنهم ، لأن الغرب في تصورهم ، واقع إلى الغرب منهم ، وان كان سكان المدينة ، قد يقبلون ويتسمون به ، حينما يشيع استعماله ، ويتأكد ، كما قبل المغاربة ، بالتسمية العربية ، وكما قبل الشرق ، بالتسمية الأوروبية و ... الخ .

٥ — مدينة حدائق الغرب الخصبة :

والإغريق ، لا يبتعدون عن عالم الأساطير ، إلا ليعودوا إليه ، ومدينة أقصى الغرب ، اذا اشتق اسمها ، من هسبيرا ، لوقوعها في الغرب ، فإن لهذا الغرب ، أساطيره الميثولوجية المتداخلة، والهسبيريدات ، إنما سمين بهذا الإسم لكونهن قائمات بحراسة حديقة ، أو بستان الإلهة هيرا Hera الميثولوجي ، حيث : شجرة التفاح الذهبي ، التي أهدتها الأرض جيا Gea ، أم هيرا ، اليها بمناسبة زواجها من زيوس Zeus[٣٢] ؛ وهي، الحديقة التي سميت بذلك، لوقوعها في أقصى الغرب . وهذا الإطار الميثولوجي ، يبرز لنا ، معنى ثانياً لهذا الاسم ، يحمل معنى الزراعة ، أو البستان والفواكه ، إلى جانب معناه الظرفي ، المحدد للجهة .

وفي هذا المعنى الثاني، يقول الإيطالي بوناتشيلي : إن اليونانيين القدماء ، اذا استخدموا حالة الجمع في الدلالة على المفرد ، فهم لا يفعلون ذلك اعتباطاً، وإنما عن قصد ، للدلالة على شيء ما ، في ذات المفرد ، يفصح الجمع عنه . ويلحظ هذا الباحث الايطالي ، ان اسم يوهسبيريدس ، لم يأت في حالة الافراد ، إلا في عصر متأخر جداً ؛ بينما ورد خلال العصور الاولى ، ابتداء

من عهد هيرودوت ، على حالة الجمع باستمرار . وقد حمل هـذا الأمر ، بوناتشيلي ، على افتراض : أن التسمية لم تطلق على المدينة ، بادىء ذي بدء ، لعدم نشأتها كذلك ، وإنما هي ، تسمية للدلالة على مجموعة من المزارع ، أو البساتين ، أو القصور ، ذات الحقول الممتـدة ، تقع في أقصى الغرب من المنطقة ، أو الاقليم الذي سكنه الاغريق ؛ أي في ذلك السهل الفسيح الممتد فيما بين ارتفاعة الجبل الاولى ، والبحر ، سهل بنغـازي في عصرنا الحاضر ، وقد جمعت التسمية بين هذه المزارع، لوقوعها في جهة واحدة ، وربما ، وحَّد بينها حلف ، أو اتحـاد ، مما أكسبها صفة الوحدة السياسية — الادارية ، اللازمة لنشأة الدولة : « دولة المدينة »[٣٣].

ويرى بوناتشيلي أنه من الطبيعي ، أن يكون لمجموعة المزارع أو البساتين والحقول ، أو حتى القرى الزراعية ، مركز رئيسي ، يتجمع فيه الناس بمحاصيلهم ، ليتم التبادل بين المنتجين والتجـار . وهذه السوق ، أو مركز التجمع ، لا بد وأن يتزعم سكانه ، مع مرور الزمن ، بقية المنـاطق حوله ؛ وأن يجتذب هـذا المركز الاقتصادي ، عدداً أكبر من السكان ، وبهذا ، تتحقق له جميع صفات المدينـة . وينتهي بوناتشيلي ، الى أن هذا المركز ، أو هذه السوق ، الذي أصبح بالفعل مدينة ، قد استمد اسمه من المنطقة ، أي من مجموعة المزارع التي كونته ؛ وهكذا ، يصل بوناتشيلي ، الى اعتبار أن اسم يوهسبيريدس ، قد يعني مدينة المزارع ، أو البساتين الواقعة في أقصى الغرب .

ونعود مع هذا الباحث ، الى مقطع « يو » ، مرة اخرى ، لنراه : يجد فيه معنى من معـاني « الجودة » ، أو « الحسن » ، فهو عنده ، بمثابة وصف للموضع ذاته ، بالخصب والنماء ؛ وهي صفة ، ذات علاقة مباشرة ، بما تنتجه

المزارع ، أو البساتين ، من خيرات الأرض ؛ وبالثراء الذي تدره التجارة مع الليبيين ، على إغريق تلك المناطق .

هذا الاستنتاج ، الدال على ذكاء الباحث ، وعمق تفكيره ، يعود بنا ، إلى النص الثاني من رواية هيرودوت ، إلى ذلك النص ، الذي يصف فيه المنطقة، التي يسكنها من سمّاهم بالايوهسبيريديين ، بالخصب وجودة المحصول، فلقد أطلق هيرودوت التسمية على السكان ، ولم يعدّ بين الليبيين قبيلة بهذا الاسم ، ولا هو نسبهم في ذات الوقت إلى اليونان ، وأيّاً كان الناس ، فقد أكد خصوبة الأرض في هذه الرواية ، الأمر الذي يعطي استنتاج بوناتشيلي ، شيئاً من السند التاريخي ، المقبول إلى حد ما .

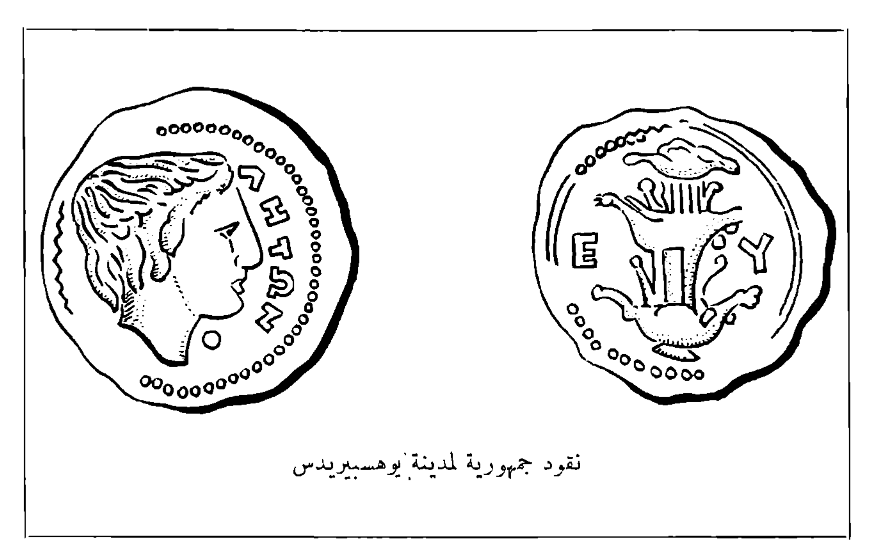
ومهما يكن من أمر ، فإننا نجد في اسم هذه المدينة معنى الغرب ، ومعنى المنطقة الزراعية ، وهذا يجعلنا نحتمل ، أن يكون مدلول الإسم : مدينة البساتين ، أو المزارع ، أو الحدائق الواقعة في أقصى الغرب .

٦ – من يوهسبيريدس الى هسبيريدس :

لم يكن هيرودوت وحده ، هو الذي ذكر المدينة بهذا الاسم ، في ذلك الوقت المبكر من التاريخ ، فقد ذكرها من بعده ، وبنفس الإسم : «يوهسبيريدس»، مؤرخ يوناني آخر وجد بعده هو توشيديدي **Tucidide** ، أو تيوكسيديدس كما ينطق في اليونانية ، وقد عاش فيما بين سنتي ٤٦٠ و٣٩٦ قبل الميلاد ، وترك لنا تاريخاً قيماً عن حرب البيلوبونيز[٣٤].

وبعد هذين المؤرخين ، نجدها كذلك ، وبنفس الإسم ، عند ثيوفراستوس **Theofrasto** ، ذلك العالم والفيلسوف اليوناني ، الذي عاش فيما بين سنتي ٣٧٢ و ٢٨٧ قبل الميلاد[٣٥].

وقد عثر على نقود سُكت لهذه المدينة، وحملت نفس الاسم «يوهسبيريدس» وقد أرجعها الباحثون ، إلى عهد المدينة الجمهوري الذاتي ، أي إلى ما بين العهد الباطي (انتهى في حوالي سنة ٤٥٠ قبل الميـــلاد) ، والعهد البطلمي (بدأ في حوالي سنة ٣٢٢ قبل الميلاد)[٣٦].



نقود جمهورية لمدينة يوهسبيريدس

ومن هذه النصوص التاريخية ، والمسكوكات النقدية ، يمكننا أن نفترض بأن مدينة بنغازي الحالية ، قد حملت اسم « يوهسبيريدس » هذا ، منـــذ أوائل القرن السادس قبل الميلاد ، وحتى منتصف القرن الرابع ، قبل الميلاد أيضاً ، أو حوالي ذلك التاريخ ؛ ذلك أننا نجد هذا الإسم ، وقد تعرَّى من مقطع « يو » الذي لازم أوله طوال تلك الفترة ، وأصبح اسمها « هسبيريدس » فقط (في اليونانية Ἑσπερίδες) عند هيراقليدس Heraclide il Pontico الذي عاش ، هو الآخر ، في القرن الرابع قبل الميلاد[٣٧]. كما نجدها أيضاً وقد وردت على هذا الشكل المخفف في بعض نقود العصر الجمهوري ، وربمـا كانت هذه النقود راجعة إلى أواخر هذا العهد .

ونلاحظ هنا ، بأن ما طرأ على هذا الاسم من تطور ، لا يتعدى حذف مقطع « يو » ، الذي كان ملازماً أوله ، أما حالة الجمع ، فقد ظلت ملازمة للاسم آنذاك . وهذا يحملنا على الاعتقاد ، بأن التخفيف الطارىء على الإسم قد تداوله الناس والكتّاب ، إلى جانب التسمية الأولى ، ردحاً من الزمن ، قبل أن يشيع ، ويتأكد ، ويسود .

٧ – من هسبيريدس الى هسبيريس :

وقد ذكرت مدينة بنغازي الحالية ، فيما بين القرنين الرابع ، والثالث ، قبل الميلاد ، باسم هسبيريدس ، المخفف من مقطع « يو » ، ولكن ، مع استمرار المحافظة على حالة الجمع ، من عدد من المؤرخين ، وعلى رأسهم جملة ، شيلاس الكاريانديScilace de Carianda ، فقد جاءت هسبيريدس عنده ، على أنها مدينة ذات ميناء(٣٨).

وقد حملت المدينة هذا الاسم ، فيما يبدو ، وان اعتراه تخفيف آخر ، ذهبت به عنها صفة الجمع أيضاً ، على ما يذكره ستيفانو دي بزانسيو Stefano di Bisanzio ، فأصبحت عنده : هسبيريس Hesperis (في اليونانية Εσπερις) وهي حالة المفرد(٣٩) غير أن هذه التسمية ، لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما أطلق عليها اسم جديد ، لم يشتق من هسبيرا ، ولا تطور عن ذلك الاسم الذي حملته لعدة قرون .

وهكذا نجد أن الاسم الأول ، الذي حملته مدينة بنغازي ، قد بدأ يوهسبيريدس ، ليتطور إلى هسبيريدس ، فالى هسبيريس ، آخر الأمر . وبعد هذا ، حل محله اسم جديد في الدلالة عليها .

٨ – مدينة جديدة باسم جديد :

تعرضت مدن ليبيا الشرقية ، ذات الحضارة اليونانية ، للوقوع تحت

سيطرة النفوذ البطلمي ، منذ أول نشأته في مصر ، خلال الربع الأخير ، من القرن الرابع قبل الميلاد . وفي منتصف القرن الثالث ، نجدها تكون مملكة، أو إمارة ، ماجاس Magas ابن بطلميوس الأول ، ووالد الأميرة برنيس Berenice ، التي حملت مدينة هسبيريس القديمة ، اسمها فيما بعد .

اما الفكرة القائلة باحتمال ان يكون ماجاس نفسه ، قد أطلق هذا الاسم الجديد على المدينة ، تخليداً لذكرى والدته برنيس الاولى ، وزوجة بطلميوس الاول ، والتي قال بها لاترون[٤٠]فقد أشار بورساري[٤١]: الى مناقشة Droysen لها ، وتفنيدها[٤٢]، ولم يعد يقول بها أحد من المؤرخين — فيما يبدو — منذ أواخر القرن التاسع عشر للميلاد .

ولا نعرف من التاريخ ، تلك الأسباب التي جعلت هذه المدينة بالذات ، تحمل اسم الاميرة الحاكمة من بعد أبيها ، دون سائر المدن الليبية الاخرى ، فهي ابنة قورينة ، وإقامتها قبل الزواج كانت بهذه المدينة ، أما بعد الزواج فقد كانت بمصر ، حيث عرش ومملكة زوجها بطلميوس الثالث ، الملقب بافرجيط Euvergite .

ولكن ما عجزت النصوص التاريخية عن تعليل حدوثه ، قدّم لنا تفسيره علم الآثار ، وعلم الحفريات ؛ فقد كشفت مصلحة الآثار ، وبواسطة التصوير الجوي ، عن آثار مدينة هسبيريدس ، في غير المكان الذي قامت عليه مدينة برنيس ، وإن كانت هذه على مقربة شديدة من تلك اذ لا يفصل بينهما غير سبخة عين السلماني أو بحيرة «تريتونيس Tritonis » كما كانت تسمى آنذاك . وهذا يعني ان هسبيريس كانت قد انتهت كمدينة، وعفّى عليها الدهر ، قبل أن تنشأ ، أو على الأصح ، تبعث من جديد ، باسم : « مدينة برنيس » .

ومهما يكن من أمر ، فإن هسبيريس ، قد حملت هذا الإسم الجديد :

برنيس Berenice (في اليونانية Bερενικε)[٤٣]، بمناسبة زواج صاحبة هذا الاسم من بطلميوس الثالث ، في حدود سنة ٢٤٧ قبل الميلاد ، أو بعد هذا التاريخ بزمن يسير .

٩ — مدينة برنيس :

ونجد اسم برنيس ، وقد حل محل اسم هسبيريس ، في كتابات المؤرخ سترابون Strabone ، الذي حدَّد موقعها بأنه : فوق شبه جزيرة غـــير حقيقية ، أو ، كما سمَّاهـــا هو « بسودوبنياس » Pseudopenias (في اليونانية Ψευδοπενιας)[٤٤]، وتمتد مع طول بحيرة أو مستنقع تريتونيس .

وتعتبر عبارة « Pseudo » ، التي استخدمها سترابون ، في وصف شبه الجزيرة التي قامت فوقها مدينة برنيس هذه ، من بـين العبارات الغامضة ، التي أثارت بعض الجدل حولها ، ولا نرى نحن فائدة من ترديد ما قيـل في هذا الصدد ، ونكتفي بالقول بأن سترابون نفسه ، في عبارته التي يقول فيها « مع امتداد » قد أشار الى المقصود « بغير الحقيقي » ، وهو تلك البحيرة أو المستنقع ، فشبه الجزيرة الحقيقية في مفهومه ، قد يكون هو نفس المفهوم الجغرافي الحديث ، ومياه « تريتونيس » ليست بمياه البحر بالتأكيد ولكنها مع ذلك مياه ، ومن هنا جاءت عبارة « غير الحقيقي » عنده .

وهنـــاك تعليل آخر ، لا يقل عن السابق قبولاً ، مؤداه أن المدينة قد قامت فوق رأس ممتد بين البحر والبحيرة مما جعلهـــا تبدو للمسافر بحراً وكأنها جزيرة إذ لا يصلها باليابسة غير شريط ساحلي ضيق جداً برزت فيه الرمال عند المنطقة التي تقع الآن بين البحر وسوق الحيوانات في حي الصابري.

ومن تحديد سترابون ، ومن الاكتشافات الأثرية الحديثة ، ومن تحديدات

الجغرافيين القدماء من بعده ، ثم من التسمية العربية للمدينة « برنيق » ، هذه التسمية التي ظلت تحوم حائرة حول نفس المكان ، أمكن لعلماء الجغرافيـــا التاريخية أن يجزموا بأن مكانها هو حيث تقوم مدينة بنغازي حتى بداية القرن العشرين . وهـــذا غير المكان الذي كشف فيه عن آثار مدينة هسبيريديس بأسوارها ، والذي يقع حيث مقبرة سيدي عبيد القديمة ، على ذلك الرأس الممتد من الزريريعية حتى منخفض الارض الفاصل بين المقبرتين القديمة والحديثة.

ومن عهد الشاعر القوريني كاليماخوس Callimaco[٤٥] ، الذي تغنّى بوفاء أميرته الجميلة برنيس التي ضحت بغدائرها الذهبية ، فقدمتهـــا قرباناً للإلهة فينوس[٤٦] ، حتى يعود لها زوجها بطلميوس الملك الشاب من حملته العسكرية على سوريا ؛ وإلى القرن الميلادي الثالث على الأقل ، حافظت المدينة على هذه التسمية دون أي تعديل .

١٠ – من برنيس الى برنيكس :

وباسم برنيس ذكرهـــا بلينيوس Plinio[٤٧]، ولـــوكانو[٤٨] وبطلميوس[٤٩]، وسولينو Solino[٥٠]؛ وجميع هؤلاء فيما بـــين أواخر القرن الأول قبل الميلاد، والقرن الثالث بعده، أي لزهاء خمسة قرون ونصف من الزمان ظلت المدينة تحمـــل اسم برنيس ، ودون أن يدخل عليه أي تحريف أو تحوير .

وفي الاستاديازمـــوس il Stadiasmo الراجع إلى أواخر العهـــد الامبراطوري الروماني بمصادره، وإلى العهد البيزنطي بزمنه، نجد اسم برنيس وقد تطور الى بيرينيكس Berenikes ، وهذا تغيير في آخر الإسم مرده إلى النطق في الغالب ، إذ أن حرفي (K) و (X) لا يختلفان في النطق كثيراً ، أي أن التطور الذي حدث في رسم الكلمة ، ليس بذي بال، وليس

هو من مثل ما حدث لاسمها الأول «يوهسبيريدس» في تطوره إلى هسبيريدس لأنه لم يحدث تحولاً من أي نوع إلا في الرسم .

ومعنى المحافظة على الاسم استمرار ازدهار الحياة في هذه المدينة على مر الأجيال ، كما ان التحريف في الاسم ، أي الخطأ في رسمه أو تغييره من شكل إلى آخر إنما يعني بداية تدهور المدينة، وفقدانها لمكانتها ولشهرتها التي كانت لها ، ذلك أن تداول الاسم يحميه ، ويمنع التحريف عنه والذي يلحقه مع الإهمال وندرة الاستعمال .

١١ – من برنيكس الى فرنيشيدي :

وفي العصر البيزنطي أيضاً نجد اسم هذه المدينة وقد تغير للمرة الثانية من برنيكس الى برنيشيدي Bernicide ، وذلك في « Tabula Petinceriana » الراجعة الى القرن الخامس وربما الى السادس للميلاد[٥١].

ونجد اسم هـذه المدينة يتطور مرة أخرى في القرن السابع الميلادي (عصر ظهور الاسلام في شمال افريقيا) عند انتونيو رافناتي Antonio Ravennate الى فرنيشيدي Vernicide .

وهذا التغيير الأخير ليس إلا نفس الاسم السابق Bernicide طرأ عليه ما طرأ على اسم القبيلة الليبية لوباتا Lubata أو ليباتا Libata (قبيلة ليبو أو لوبا القديمة) حينما جاءت محرفة عند « بروكوبيوس Procopio » مؤرخ الامبراطور جستنيان الى Levata ، وعكس ما طرأ على جماعات الفندال Vandali حينما ورد اسمهم محرفاً عنده الى بندال Bandal أي أنه قلب بين حرفي (B) و (V) باحلال أحدهما محل الآخر[٥٢].

وفي هذا العصر البيزنطي (أواخره) نجد برنيس أو برنيكس أو برنشيدي

أو فرنشيدي كما هو آخر أسمائهـــا قد تدهورت عسكرياً ، وربما اقتصادياً كذلك[٥٣] حتى أن محاولة الإمبراطور جستنيان الذي أعاد تشييد أسوارها من الأساس فيما يذكره بروكوبيوس ، وبنى بها حمامات عامة للشعب[٥٤]، لم تجد في إنعاشها وفشلت محاولته في إعادة الحياة اليهـــا من جديد . فقد تدهورت ، وهجرت من سكانها (الوطنيين على الأقل) كما هجرت بقية المدن الليبية الاخرى في سائر المنطقة الشرقية من ليبيا [٥٥] وأصبحت قرية صغيرة لا شأن لها مما جعلها لم تذكر في الفتوحات الاسلامية ، ولا في الأحداث التي تلتها من أي مؤرخ عربي قديم سوى من اليعقوبي وياقوت الحموي على ما سيأتي بعد قليل .

١٢ – برنيق اسم حائر :

هكذا انتهت حياة هذه المدينة للمرة الثانية في التاريخ ، ولا صحة لمـا يذهب اليه المغرضون من مؤرخي الغرب المحدثين من نسبة الدمـار والخراب الذي حل بهـا وبغيرها من مدن برقة الى الفتح العربي وعمل العرب ، فهي لم تكن شيئاً مذكوراً يوم جاءوا الى هذه الأقاليم فاتحين . وإذا تعرَّض لذكرها أحد من جغرافيي العرب أو مؤرخيهم فإنما كان فيما رواه مردداً لما ترجم من كتب الفرس واليونان والرومـــان ؛ ونكاد نلمس حرفية النص اليوناني – الروماني فيما أورده بعض الكتَّاب العرب القدمـــاء من أخبار عن مسمَّيات فقدت اسمها في عصر الترجمة ، من مثل : « لوبية » في رواية البيروني ، ومن مثل التحديدات الجغرافيـــة « للوبية » و « مراقية » و « انطابلس » في ليبيا الشرقية وحدها .

وبرنيق ، هي الترجمة العربية القديمة لاسم برنيس ، فقـد اعتاد العرب إبدال حرف (C) بحرف (ق) في كثير من الأسماء ، ولا يزال كثير من

كتَّاب العرب المحدثين ينحون هـــذا النحو في تعريب بعض المفردات الافرنجية .

وقد وردت برنيق على أنهـــا اسم لمدينة عند ياقوت الحموي في معجم البلدان ، فقال عنها : « برنيق بالفتح ، ثم السكون ، وكسر النون ، وياء ساكنة ، وقاف ؛ مدينة بين الاسكندرية وبرقة على الساحل . منها علي بن البرنيقي الأديب ... الخ » . فهو يقرر في روايته هذه بأنها مدينة ، وبأنها تقع على الساحل ، ولكنه يخطىء جغرافياً عند تحديد موضعها كعادته في كثير من مدن وقرى المنطقة فيجعله بين مدينتي برقة (المرج) والاسكندرية . ولا مأخذ عليه في هذا الخطأ ، فالمدينة التي يذكرها قد لا يكون لها وجود في عهده ، اللهم الا فيما خلفه الأقدمون عنها من كتابات ، فهو حائر في تعيين موقعها من المدن القائمة فعلاً في زمنه .

وقد ذكر اليعقوبي في البلدان هذه المدينة بمينائها فقال عنه إنه عجيب في الاتقان والجودة[٥٦]. والمعروف عـــن هذا الكاتب أنه لم يزر برقة ، فهو اذن ناقل ، وربما عن مصدر أجنبي قديم . إذ انه انفرد لوحده بمثل هـــذا الكلام عن ميناء في برقة باسم برنيق خلال ذلك العهد .

أما ابن سعيد فقد أهمل ذكر موضع أو مدينة باسم برنيق على الرغم من أنه ذكر مناطق ومدناً تقع إلى الغرب وإلى الشرق منها في البلاد وكان ماراً بها في النصف الثاني من القرن السابع الهجري[٥٧]ولو كان هذا المكان موجوداً كمدينة لذكره فيما ذكر .

وإذا كان البكري هو الآخر لا يذكر شيئاً عن برنيق هذه لأنه رحالة ، ولم يجد مدينة أو حتى قرية تحمل هذا الاسم ، فإن الإدريسي قـد ذكر هذا

الاسم ، ولنفس الموضع الذي كانت فيه برنيس، ولكن على أنه «وطا برنيق» أي أرض برنيق .

أما العلامة المؤرخ ابن خلدون فقد ذكر هذه المنطقة أو الموضع في كل من المقدمة والتاريخ ، ولكن على أنها « صحارى برنيق » .

وكان ذلك منه صراحة في « المقدمة » ؛ وما يدل على هـــذا المعنى في التاريخ إذ نجده يجعل من برنيق موطناً أقدم لبعض قبائل البربر ، وهو ينقل عن المسعودي ولكن بما لا يفيد أنها مدينة أو بلدة [٥٨] .

وبنفس المدلول تقريباً نجـــد اسم برنيق فيما كتبه العبدري في الرحلة المغربية إذ يجعلها حداً لمناطق قبلية [٥٩] .

وبهذا المفهوم الأخير الذي عند ابن خلدون والعبدري والإدريسي تقريباً نجد التسمية حية حتى يومنا هذا في لغة الأواجلة البربرية الليبية ، فهي عندهم تعني سهل بنغازي بمدلوله الجغرافي الواسع الذي يشمل ما يمتد من سهول بين الجبل الأخضر والبحر وشبه الصحراء ، أو ما يعرف محليـــاً ببرقة الحمراء وبرقة البيضاء معاً .

١٣ — كوية الملح :

وحوالي سنة ١٤٦١ للميلاد أو قبل ذلك التاريخ ، استقرت جماعات من التجار تنسب إلى تاجوراء ومسلاته وزليتن في ذات المكان التي وجدت بـه مدينة برنيس / برنيق[٦٠] فكوّنت أول مجتمع للمدينة الحديثة « بنغازي ».

وتتردد على ألسنة بعض الشيوخ الطاعنين في السن من أبناء مدينة بنغازي، أصداء تسمية أخرى لمدينة بنغازي هي : « كوية الملح » ، ولعلهـا كانت الاسم الذي أطلق محلياً على ذلك الموضع قبل أن يحمل التسمية الجديدة له

« مرسى ابن غازي » أي خلال الفترة الواقعة ما بين فترة استقرار الجماعات الأولى بها قبل أو حوالي سنة ١٤٦١ ، وحملها للاسم الذي عرفت به سنة ١٥٧٩ للميلاد .

وكلمة « كوية » هذه ذات دلالة غامضة في اللهجة الشعبية ، فقد تعني « قرية صغيرة » وقد تعني « التجويف » أو « الحفرة » وثلاثتها إنما يمكن التوصل اليها بالتعرف على طبيعة الموقع جغرافياً ، فهي قرية صغيرة[٦١] في بداية نشأتها ولا شك ؛ وهي تجويف للبحر داخل اليابسة استخدم كميناء ؛ وهي حفرة أو منخفض تغطي سطحه طبقة الملح التي تكوّن السبخة أو الملاحة الكبرى التي حولها .

ونميل إلى الأخذ بالمعنى الأول ، ونرى أن المنطقة التي توجد بها آثار مدينة برنيس / برنيق ، والتي سكنها أول التجار من تاجوراء وغيرهم قد عرفت من سكان المدينة نفسها ، أو من أفراد القبائل القاطنة حولها باسم « كوية الملح » خلال القرن الخامس عشر والنصف الأول من السادس عشر ، ثم تخلى الناس عنها إلى الاسم الجديد الذي حملته ، واندثرت تلك التسمية لعدم تدوينها فلم يبق منها غير تلك الاصداء التي يرددها الطاعنون في السن ممن أدركناهم على قيد الحياة أطفالاً .

١٤ — مرسى ابن غازي :

يذكر العلامة الإيطالي ، البروفسور المستشرق كارلو نالينو Carlo Nallino في دراسة له على خريطة جغرافية تعود إلى القرن السادس عشر ، وبالدقة إلى سنة ١٥٧٩ ميلادية ، كان قد رسمها جغرافي (وراق) عربي يدعى علي بن أحمد بن محمد الشرفي من بلدة سناقس بتونس موطناً والقيروان إقامة ، يذكر البروفسور نالينو أنه وجد في تلك الخريطة إلى جانب اسم



صورة ضريح سيدي غازي

برنيق اسم « مرسى ابن غازي » . ويؤكد أنه لم يعثر على هذا الاسم الجديد في أي مصدر عربي[٦٢] (أو غير عربي) آخر يرجع إلى عهد أقدم من تاريخ هذا النص ، فقد كان أقدم نص وقف عليه في رحلة العياشي الراجعة إلى سنة ١٦٦٢ للميلاد[٦٣].

ولا يعني هذا التاريخ بالطبع نشأة المدينة في تلك السنة بالذات ، أو قبل ذلك بسنوات قلائـــل ، فإن شيوع الاسم وتداوله حتى وصل إلى ذلك الجغرافي العربي في القيروان من تونس اقتضى فترة من الزمن ولا شك ، قـد ترجع بنا إلى أواسط القرن السادس عشر أو حتى قبل ذلك التاريـخ .

وغازي أو ابن غازي الذي اشتهرت المدينة الناشئة باسمه هو ولي يعرف بـ « سيدي غازي» ، نجد ضريحه فوق ربوة داخل مقبرة «سيدي خريبيش». ويقول الكولونيل أنريكو دي أغستـين Col. Enrico De Agostini عن هـــذا الولي في كتابه « سكان برقة Le Popolazioni Della Cirenaica » إن الرواية الشعبية تجعل منه صحابيـــاً يعود عهده إلى أيام الفتح ؛ ولكنه يتشكك في هذه الرواية ، ويردها في مجموعة من مثيلاتها .

وأرى أنا رأي دي أغستين هذا فيما يتعلق بصحبة هذا الولي ، ولكنني أعلل شيوع الرواية الشعبية بأنها إنما تعني مجرد قـدم العهد إلى درجة لم يعد من الممكن معها تحديد العصر ، إذ اننا لا زلنا حتى الآن نسمع عبارة : «من أيام الأنبياء والصحابة » من المتحدث الذي يريـد أن يقول لنا : « من أقدم الأزمان » في تعبير شعبي . ونحتمل أن دي أغستين لم يفهـــم المدلول الذي يقصده المتحدث أو أنه ترجم له خطأ فيظن أن المقصود بذلك نسبته إلى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم فوقع بذلك في خطأ ما قال

أما حول شخصية هذا الولي وترجمته فسنعود إلى الحديث عنه في المكان المناسب من هذه الدراسة .

١٥ – مدينة بنغازي :

أما هذا الإسم من غير « ابن » المفصولة عن « غازي » نطقاً وكتابـة ، فإننا نجده عند العلامة الطرابلسي ابن غلبون في تاريخه المسمى « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بهـا من الأخبار » ، في حادث يرجع إلى سنة ١٦٩٧ ، ومنذ ذلك التاريخ ، وإلى اليوم ، ما زلنا نعثر عليهـا في كتابات المؤرخين والجغرافيين والرواد من العرب ومن غير العرب على السواء .

ولعل الاسم السابق للولي الذي أشرنا إليه كان « ابن غازي » غير أن التسمية قد تخلصت من « ابن » هـذه ليبقى اسم الولي « سيدي غازي » مجرداً منها باعتبار المجرد أخفّ نطقاً. كما ان اسم الشخص الذي أشرنا إليه في نهاية الفقرة السابقة فقلنا إننا سنقدم ترجمته ورأينا حولها هو الشيخ غازي ابن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي ، وهذا يعني أن تسميته بغازي مجردة من « ابن » صحيحة أيضاً صحة تسميته بابن غازي ، ومع هذا نميل إلى تعليل تجرد الاسم من « ابن » بفعل الزمن وحده كما هو حادث في العديد من الأسماء المتداولة وغير المكتوبة ، ولأن «ابن» هذه قد لازمت اسم المدينة حتى الآن، وهي إنما استمدت الاسم من الولي ذاته .

١٦ – الخطأ في « بني غازي » :

مما تقدم حتى الآن يتضح لنـا أن اسم المدينة على الشكل المتداول به صحيح ، سواء من حيث التاريخ أو من حيث التركيب ؛ واذا مـا أردنا التحذلق والابتعاد عن الشائع المتداول ، جرياً وراء الغريب والمهجور ، فإننا

لن نستطيع أن نفعل شيئاً لأن التركيب في بنغازي صحيح صحته في بعلبك وغيرها من التراكيب المماثلة قديماً وحديثاً في لغة العرب .

لهذا فإن كتابة اسم المدينة هكذا « بني غازي » خطأ تاريخي ولغوي لا مبرر له على الإطلاق ، فليست هناك قبيلة أو بطن أو حتى عائلة من فخذ قبيلة في سائر برقة يعرف أفرادها باولاد أو أبنـــاء غازي ، ولم تعرف الرواية الشعبية لهذا الولي في التاريخ أبناء ، ولقد فكرت في تعليل غير هذا فلم أجد سوى احتمال أن تكون « بني » هذه لا تعني الأبناء ، وإنمـــا تعني البناء ، فهو في اللغة الشعبية « بني » بفتح البـــاء، وسكون النون، وياء في الآخر . وهذا يعني احتمال أن تكون المرسى منسوبة الى البناء المنسوب بدوره إلى غازي . غير أن هذا التعليل وان قبل منطقاً فلن يقبل تاريخياً ، فورود اسم « ابن غازي » في نص يرجع إلى سنه ١٥٧٩ ميلادية ، اي إلى حوالي اربعمائة سنة تقريباً، ينفيه ويبعده، خاصة وان اسم بنغازي ليس غير مركب كلمتي « بن » و « غازي » وأولاهما هي ذاتها « ابن » الواردة في نص سنة ١٥٧٩ في النطق الشعبي الجاري عندنا حتى الآن ، فلم يسعنا إلا طرح نظرية « بني» هذه كلية ، واعتبارها خطأ يقع فيه بعض الكتاب .

١٧ — الخلاصة :

والخلاصة التي نصل إليها من هذا الاستعراض التاريخي لتعاقب التسميات في تطوراتها هي أن هذه المدينة قد برزت في التاريخ فجأة وكمدينة قائمة قبل ذلك الأمر الذي يحمل على الاعتقاد بأنها كانت سابقة في نشأتها لأبعد تاريـخ أمكن الوصول إليه حول وجودها عند هيرودوت ، إما بنفس الاسم الأول لها « ابوهسبيريدس » ، وإما باسم غيره سابق له طواه التاريخ في ثناياه .

أما أول أسمائها فقد تطور من « ايوهسبيريدس » إلى « هسبيريدس »فإلى «هسبيريس» ، قبل أن يهجر إلى اسمها الثاني « برنيس » في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد ، فعاشت في التاريخ من سنة ٥٢٨ (زمن النبوءة) حتى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد (زواج بطلميوس الثالث من برنيس) بهذا الاسم في تطوراته الثلاثة ، ويبدو أنها في آخر هذه الفترة قد تدهورت وهجرت من ساكنيها ثم استعادت ازدهارها حينما حملت الاسم الجديد « برنيس » ، وإن قامت في موضع آخر غير بعيد من موقعها السابق .

وقد تطور اسمها الثاني من « برنيس » إلى « برنيكس » فالى «برنشيدي» فالى فرنشيدي فالى « برنيق » ، وقد امتدت فترة التاريخ التي حملت فيها المدينة اسمها الثاني بتطوراته من ٢٤٧ قبل الميلاد إلى ٦٥٠ بعده . بل إنها حملت هذا الاسم في آخر تطوراته « برنيق » وإن حائراً يحوم حول المكان دالاً على ما بقي من آثارها حتى سنة ١٤٦٠ للميلاد .

ولما أعادت جماعات التجار القادمين من تاجوراء ومسلاته وزليتن الى هذه المدينة الحياة حملت اسم « كوية الملح » أي قرية الملح ، وربما كانت تعرف به قبل ذلك، فترة من الزمن لا تقل عن مائة عام ، قبل أن تحمل ثالث وأحدث أسمائها في التاريخ « بنغازي » .

وفي منتصف القرن السادس عشر للميلاد عرفت هذه المدينة الحديثة كميناء ونسبت الى صاحب أقدم ضريح بها من الأولياء فكانت «مرسى ابن غازي». ودوّن التاريخ لنا هذا الاسم من سنة ١٥٧٩ . وتطور الإسم بعد هذا الى « بنغازي » باغفال « مرسى » وتركيب الاسم من « ابن » و «غازي» تمشياً مع ما درج عليه النطق المحلي .

وننتهي من هذا جميعه الى تخطئة من يسميها باسم « بني غازي » لعدم وجود أي مسند تاريخي أو اسطوري شعبي لمن يرويها على هذا الوجه .

فهذه المدينة إذن قد صارعت الزمن وعادت الى الحياة مرتين ، فاستمرت موجودة بصورة مؤكدة تاريخياً لفترة من الزمن تمتد ٢٥٠٠ سنة من التاريخ فهي لذلك من أقدم المدن الليبية عهداً وأطولها تاريخاً وهي لذلك جديرة بأن يعنى بتاريخها المؤرّخ فيؤرّخ لها هذا الماضي المديد .

الفصل الأول

الهوامش والتعليقات

١ – ذلك أن اليونان قد عرفوا قارة افريقيا جميعها باسم ليبيا ، وليس هذا ما أقصده هنا ، إذ ان ما أقصده بالحديثة ، هو تحديد مفهوم تاريخي معين لمدلول اللفظ، فليبيا اليوم هي ذلك الإقليم الواقع بين مصر وتونس من الشمال الافريقي، وبالتالي فهي ليست بليبيا في مفهوم التسمية اليوناني القديم . (راجع حول هذا الموضوع كتابي : « ليبيا ـ هـذا الاسم في جذوره التاريخية » صفحة ٥٠ وما بعدها منه) .

٢ – بلاتيا Platea اسم يوناني قديم ، لجزيرة صغيرة يظن أنها احدى الجزر الثلاث لخليج بمبه الحالي ، وتسميتها عربياً باسم فلاطيا إنما هو من قبيل قلب حرف (*P*) اليوناني فاء ، كما في افلاطون *Platone* وفارس **Persia** ولسنا من أنصار هذا المذهب في التعريب وان كنا نسلم بمـــا شاع استخدامه في العربية على هذا الوجه .

٣ – وللاغريق في نزوحهم إلى هذه البلاد أسطورة ذكرها هيرودوت في تاريخه (الرابـع ١٥٠ – ١٥٨) بروايتـين : ثيرية (نسبة إلى جزيرة ثيرا) وقورينية (نسبة إلى قورينة) ثم عثر على نص ثالث لهذه الاسطورة

على نقش حجري بين آثار قورينة عرف بلوحة الشروط Stele dei Patti وليس من هدفنا هنا بحث هذه الأسطورة ، فقد نفعل ذلك مستقبلاً وفي دراسة خاصة ، ويكفي هنا أن نورد خلاصة لها فيما يلي : أصاب جزيرة ثيرا جفاف وأهلها قحط تضرروا بسببه فلجأوا إلى معبد ابولون بدلفي يستشيرون الوحي (الهاتف) فأشار عليهم بالتوجه إلى ليبيا ذات المراعي الخصبة والسائمة الوفيرة، ونفذوا ارادته بعد تردد دام بضع سنوات ، ازداد القحط فيها عليهم فبدأوا هجرتهم إلى ليبيا التي لم يكونوا على علم بموقعها . ووصلوا إلى جزيرة بلاتيا هذه ثم انتقلوا منها إلى اليابسة بأمر الهاتف فنزلوا في أزيريس ، ثم قادهم الليبيون إلى نبع ماء عذب عرف فيما بعد بنبع أبولون حيث استقروا عنده وأسسوا قورينة أولى مدنهم في هذا الأقليم .

٤ – ازيريس Aziris أو ازيليس Azilis اسم لموضع أو مدينة تقابل جزيرة بلاتيا على اليابسة (لم تحدد حتى الآن) يسكنها الليبيون قبل زمن الإغريق . ونحتمل نحن ، استناداً إلى التسمية وحدها ، أن تكون أزيريس (وازيليس تحريف في الاسم متأخر زمناً) صورة محرفة لنطق أزوريس وهو اسم لمعبود مصري – ليبي قديم قيل إنه إله الغرب . واذا صح هذا الإحتمال أو قبل ، فإن أزوريس قد يكون لمدينة حملت اسم ذلك الإله المصري الليبي الذي عبده الليبيون قديماً طيلة العهد الوثني ، وحتى عصر جستنيان (القرن السادس للميلاد) .

٥ – وهو سهل يسكنه الليبيون ، وتروي الأسطورة أنهم لحرصهم على الإحتفاظ به اجتازوه باليوناتيين ليلاً حتى لا يراه هؤلاء فيعجبون به ويستقرون فيه وذلك حينما كانوا يقتادونهم إلى نبع الماء العذب الذي عرف فيما بعد بنبع أبولون . ويظن أنه ذلك السهل الواقع بمنطقة القبة إلى الشرق من قورينة بمسيرة يوم واحد تقريباً .

٦ – كتب Thrije كتابه Res Cyrenensium في تاريخ قورينـة في اللغة اللاتينية ، وقد ترجمه إلى الايطالية سلفيو فيري Silvio Ferri باسم Storia Di Cirene وعلق عليـه في جزء ملحق بالأصل . وقد جمع هذا الكتاب كلّ ما (أو على الأقـل) أغلب ما تضمنته المصادر اليونانية الرومانية من أخبار هذه المدينة وحوادث تاريخها . ومن بين المواضيع الهامة التي عالجها المؤلف فيه تحديد السنة التي أنشئت فيهـا مدينة قورينة ، وقد استند فيها الى روايـة ايوسيبيوس Eusebio (راجع الأصل حول الموضوع) .

٧ – وقد سلم كتّاب الافرنج بهذا التاريخ وقبلوا به غير أن بعضاً منهم شكك فيه على أساس أن مجيء اليونان على الشكل الذي ترويه الاسطورة غير صحيح تاريخياً وانما كان مجيئهم سابقاً لهذا العهد وكتجار أو نازحين فرادى وجماعات صغيرة تكتلت مع الزمن ونتيجة لتكاثر العدد ، كما ان استقرارهم بقورينة ليس نتيجـة للتحول على الشكل الذي ترويه الاسطورة وانما لأنها سوق راجت حركتها فرغبت على البقاء والاستقرار . وينتهي هؤلاء الى أن مدينة قورينة ذات عهد أقدم من ذلـك التاريخ وإن قبلوا به فعلى أساس أنه تاريخ نشأة نظام الملكية وأول عهـد الاسرة الباطية ليس إلا .

٨ – وأصفهم بالشراذم النازحة وليس بالجحافل الغـازية لأن اليونانيين الذين قدموا إلى برقة لم يأتوها غزاة ولا مستعمرين بالمعنى الذي عرفناه في التاريخ قديمـه وحديثـه لكلمة الاستعمار ، فهم أناس قست عليهم الطبيعـة فأجبرتهم على ترك مواطنهم واللجوء الى برقة حيث الحيـاة ممكنة ، والطبيعة سخية ، واذا أصبح لهم فيما بعد كيانـاً متميزاً بين الليبين ، وطابعاً شديد الصلة بالحضارة اليونانيـة فلتكاثرهم مع الزمن كشراذم وليس كقوة فاتحة في أي مكان من هذه البلاد .

واذا كنا لا نجد اليوم في واقع المجتمعات الحديثة مثلاً مطابقاً تمام المطابقة لهذا الوضع ، فاننا مع ذلك قد نتلمسه في وضع أمريكا الشمالية وفي استراليا في واقعها الحديث ، فعلى الرغم من صلة الامريكان والاستراليين البيض بالانجليز لغة وحضارة وعرفاً ، وعلى الرغم من أن الانجليز كانوا قد استعمروا كلتاهما ردحاً من الزمن وهو ما لم يحدث بالنسبة لليونانيين في برقة إلا أننا لا نستطيع القول بأنهما اليوم مستعمرتان انجليزيتان . وهذا معناه ان تأثير الحضارة اليونانية في ليبيا ليس كتأثير الحضارة الرومانية فيها فهو ليس نتيجة لاستعمارهم لها ، فقد اتخذوها موطناً ، وانتسبوا اليها كبعض سكانها وكانوا لا يدينون بالولاء لغيرها ولا يشعرون بالتبعية لأية حكومة يونانية في أية بقعة من العالم ، ولذلك فمن الخطأ التاريخي أن نرى في اليونانيين مستعمرين أو نساير الكتاب الغربيين في اعتبارهم لبرقة مستعمرة يونانية .

٩ – برقة Barca ثم فيما بعد Barce هو الاسم القديم الحديث لمدينة المرج الحالية ، ويرى اوليفيريو Oliverio العلامة الأثري الايطالي أن الاسم قد يكون ليبياً في الاصل ، وأن اليونان قد أخذوا به على غير عادتهم في إسباغ أسماء يونانية على ما يجدوه قبلهم . وأرى أنا أنه اذا لم يكن ليبياً فهو فينيقي اذ نجده اسماً لأسرة هنيبعل Annibale بطل قرطاجنة الشهير . وهذا الرأي الخاص لا يمكنني بحثه الآن ، ولكن يقوم أصلاً على احتمال صلة هؤلاء الجوّابين للآفاق بأراضي ليبيا الشرقية واتصالهم بالليبيين قبل اليونان ، وقد أبحث هذا الرأي بالتفصيل عند دراستي لأسطورة النزوح الاغريقي أو في بحث مستقل . أما الآن فيكفيني منه الاشارة الى أنه سواء كان ليبي الاصل أم فينيقيّه فهو دليل كاف على أن مدينة برقة قد سبقت في نشأتها مجيء اليونان اليها واستقرارهم بها، فهم في رأيي قد سكنوها وكوّنوا مع الزمن غالبيتها ولكنهم لم ينشئوها .

١٠ – وهذا استناداً الى المصادر اليونانية وحدها والا فهي مدينة ليبية وان أصبحت يونانية فلغلبة العنصر اليوناني النازح اليها على من بها من السكان الوطنيين (راجع الهامش السابق) .

١١ – وتيوكيرا Teochira هي بلدة توكرة الحالية ، وتقع في شمال سهل بنغازي الفسيح عند البحر ، وتبعد عن هــذه (بنغازي) بحوالي خمسة وستين كيلو متراً ، ولا تزال آثار المدينةالقديمة واضحة وأسوارها في بعض الأماكن قائمة حتى الآن .

١٢ – يوهسبيريدس هي مدينة بنغازي الحالية والذي قـد خصص البحث باجمعه لدراسة تاريخها .

١٣ – وهي آخر مدن اليونان في هذا الاقليم ، من جهة الغرب ، أما قراهم فقد امتدت الى أبعد من ذلك حتى بلغت في عصر القــوة قريــة اوتومالا Automala الواقعة عند قعر الخليج . وهذه المدن الأربع مع مدينة أبولونيا (سوسة الحالية) نشأت أصلاً كمرفأ لمدينة قورينة هي التي كونت فيما بعد اتحاد المدن الخمس أو البنتابوليس Pentapolis في برقة .

١٤ – إن أقدم النصوص الفرعونية ترجع الى عهد ما قبل الاسرات المصرية، ونعثر عليها في أغلب النصوص التي تروي أحداث التاريخ الفرعوني في عصوره التالية . غير أن معظم هذه الاخبار انمـا هي تسجيل للصلات العدوانية والحملات العسكرية أو معلومات إتنولوجية ـ اجتماعية تنعدم فيها الاشارة الى الوصف الجغرافي للأقليم الليبي أو تندر على الاقـل الى ما يقرب من العدم .

١٥ – والبونيقيون Punic هم فينيقيو قرطاجنة كما سمّاهم الرومان وتاريخ هؤلاء في صلاتهم بالليبيين لم يصلنا الا عن مصادر يونانية ـ رومانيــة

معادية لهم ، وبالتالي فهو لم يكن خالياً من التشويه . أما المصادر الفينيقية ذاتها فقد أتت عليها الحضارة الرومانية الحاقدة ، ولم يصلنا منها غير النزر اليسير .

١٦ – وتاريخ العصور الحجرية في ليبيا لم تتكامل دراسته بعد ، ولا تزال به ثغرات حضارية بحاجة الى دراسة متخصصة ، أما تاريخ الرسوم والنقوش البدائية للانسان الليبي الذي سكن الصحراء في العصر المطير ، والذي كشف عن عشرات الآلاف منها في جبال أكاكوس وتاسيلي والعوينات فلا تزال هي الاخرى بحاجة الى دراسة تربط بين عصورها المختلفة وبينها وبين الحضارات الحجرية وفجر التاريخ في ليبيا ومصر على السواء .

١٧ – هيرودوت الألكارناسي ، مؤرخ يوناني قديم عاش فيما بين سنتي ٤٨٤ و ٤٢٥ قبل الميلاد ، وترك لنا تاريخه من تسعة كتب ، ويتعلق معظم الكتاب الرابع منها بالليبيين وباغريق قورينة وتاريخ البلاد حتى عهده. ويلقب عادة بأبي التاريخ وبشيخ التاريخ باعتباره أقدم المؤرخين تأليفاً.

١٨ – هيرودوت : تاريخه – الكتاب الرابع ، فقرة ١٧١ .

١٩ – هيرودوت : المصدر السابق ، فقرة ١٩٨ .

٢٠ – وكان الفرس آنذاك يحتلون مصر ، فلما حدثت الفتن التي انتهت بثورة السكان الوطنيين على الملوك الباطيين في قورينة ، ثم برقة ، لجأت والدة الملك الباطي ارشيزلاو الثالث الذي قتل الى حاكم مصر من الفرس فاستغل هذا الفرصة وأمدها بجيش سار الى برقة وهاجمها، ثم لما فشل في احتلالها حاصرها مدة ثم تمكن من احتلالها بخدعة ناكثاً بالعهود الذي قطعها على نفسه لهم . فتمكنت الملكة الوالدة فرتيما Feretima من البرقيين وفتكت بهم على ما هو مذكور عند هيرودوت وغيره من قدماء المؤرخين .

٢١ – هيرودوت : المصدر السابق ، فقرة ٢٠٤ .

٢٢ – هيرودوت : المصدر السابق ، فقرة ١٦٣ .

٢٣ – لم يقبل ارشيزلاو الثالث بتشريع ديموناكس الذي قبل به والده باطوس الثالث قبله فكانت النتيجة ثورة المدينة عليه وطرده مع أمه والأسرة المالكة منها ، فلجأ هو إلى ساموس حيث جمع حوله جيشاً من المرتزقة منّاهم بالاقطاعات والمنح والهدايا اذا ما استرد عرشه ومملكته .
وقبل السير بحملته ضد قورينة توجه إلى دلفي يستشير الآلهة – كما هي عادة الاغريق آنذاك – فكان رد الهاتف عليه فيما رواه هيرودوت كما يلي : « مدة الحياة لأربعة من الملوك باسم باطوس ، وأربعة آخرين باسم ارشيزلاو ، أي لثمانية اجيـــال ، فإن الإله المشرق (احدى صفات ابولون) يمكنكم من حكم قورينة ، أما بعد هذا فانه ينصحكم حتى بعدم المحاولة . أما أنت فبعد دخولك لمدينتك فلتكن هادئاً ،واذا ما وجدت الفرن مملوءاً بالجرار فلا تحرقهـــا بل اتركها لتذهب مع الريح ، أما اذا احرقتها فلا تدخل الى المدينة التي تحيط بها الميـــاه ، وإلا فستموت أنت ، وسيموت معك أضخم ثور » . ومع أنه لا يعنينا في شيء محاولة تفسير هذه النبوءة فان الجرار كناية عن الرجال المناوئين له ، والفرن هو تحكم الثورة من نفوسهم ، والأمر بتركهـا لتذهب مع الريح ردعه عن الإسراف في الانتقام منهم فإن فعل فقد حذر من دخول المدينة التي تحيط بها المياه وإلا فسيموت بدخوله اليهـا ، والثور قد يكون التاج أو السلطان والملك ، فقد كان رمزاً للقوة والسلطان والملك عند المصريين على الأقل .

٢٤ – ذهب بعض مفسري هيرودوت والمعلقين عليه الى اعتبـار المدينة التي تحيط بها المياه هي «برقة» ، لأنها تتعرض في الزمن الحديث لفيضانات وادي الغريق الذي ينتهي الى الحوض الكبير الذي تقع هذه المدينة فيه ،

ولأنه وجد نهايته فيهـــا لما دخلها بعد الفتك بخصومه . وقبولاً منهم لتفسير هيرودوت نفسه لهذه النبوءة (الرابع ١٦٤) ومع اعترافنا هنا باحتمال أن تكون تفسيرات هيرودوت للنبوءة ممكنة ، إلا أن لجوء ارشيزلاو الثالث نفسه الى برقة فراراً من قورينة يجعلنا نتردد في قبول تفسير هيرودوت لها على هـــذا الشكل ، فأرشيزلاو أكثر صلة بالنبوءة وبالتالي فهو اقدر على معرفة هذه المدينة التي تحيط بها المياه ، ولو كانت برقة هي المقصودة بهذا التحديد لما لجأ اليها الملك ، ولقدم لنا هيرودوت وصفاً جغرافياً يؤكد تفسيره . لهذا ولأن الصفة تنطبق ايضاً وبصورة أكمل على مدينة يوهسبيريديس التي وجد فيهـا آخر ملوك هذه الأسرة نهايته وفقد بفقده الملك والتاج الباطي . وتحذير النبوءة من دخول هذه المدينة ، وإن وجّه لارشيزلاو ، إلا أنها استمرت في نسله ايضاً حتى تحققت في آخر ملك من ملوك الاسرة الباطيـــة (الثامن حسب تحديد النبوءة للأجيال) .

٢٥ – بما أننا سنبحث هذه الاسطورة في تفصيلاتها ، وكذلك بقية المواضيع الخاصة بهذه المدينة في دنيا الأساطير وعالم الميثرلوجيـا في فصل خاص ، فاننا ننبه منذ الآن الى أننا سنقتصر من هذه الاساطير على ما يستدعيه البحث في هذا الفصل موجزاً وقد نكتفي بمجرد الاشارة اليه ، ونحيل القارىء الى الأماكن المناسبة من بقية البحث .

٢٦ – راجع : روبرت جريفس Robert Graves في كتابه القـــيم : The Greek Myths (40 - a) ، وراجع ايضاً بنـــديتو بوناتشيلي Benedetto Bonacelli في مقاله « نهرليثي أو ليثون في برقـــة القديمة » Il Fiume Léte o Léthon Nell'antica Cirenaica وغير هذين من المراجع الميثولوجية العديدة .

٢٧ – وليس العدد بالثابت ابداً ، فهن اثنتان عند البعض وأربع عند آخرين

والعدد ليس بالهام على أية حال وإن كانت الثلاث أشهر وأضبط الاقوال.

٢٨ — Robert Graves : — المصدر السابق (D / 33) .

٢٩ — Robert Graves : — المصدر السابق (D / 33) .

٣٠ — Benedetto Bonacelli المقال السابق ، ص ٢١ .

٣١ — Benedetto Bonacelli المقال السابق ، ص ١٢ .

٣٢ — Robert Graves : المصدر السابق (D / 33) .

٣٣ — عرف اليونان نظام « دولة المدينـــة » كنظام سياسي واقتصادي واجتماعي متكامل ، تمتعت فيه كل مدينة قائمة بذاتها باستقلالها الذاتي ، وكانت لها حكومتها وبرلمانها ونقدها الخاص وقوانينها . وقد عمَّر هذا النظام طويلاً قبل أن يتحول إلى نظام الاتحادات الذي جمع بين عدد من المدن في اتحاد عرف بعدد المدن المكونة له مثل « اتحاد المدن الخمس » في برقة .

٣٤ — مؤرخ أثيني عاش فيما بين سنتي ٤٦٠ و ٣٩٠ ق.م. ترك لنـا تاريخه عن حرب البلوبونيز من ثمانية كتب وانتهى فيه إلى سنة ٤١١ ق.م. من عائلة نبيلة، لجأ إلى تراتشا Tracia حينما اتهم بالخيانة من مواطنيه . ويعد تاريخه أول تاريخ علمي المنهج والبحث سياسي التحليل .

٣٥ — فيلسوف يوناني من مدينة إريسوس Erissa (لسبو) عاش فيما بين سنتي ٣٧٢ و ٢٨٧ ق.م. وخلف ارسطو في مدرسته وترك عـــدة مؤلفات في الفلسفة وفي علم النبات .

٣٦ — B. Bonacelli : — المقال السابق ، ص ١٢.

٣٧ — Heraclide Pontico - « Fragmenti di Politica » .

٣٨ — Periplum Maris in : - Scilace de Carianda Ternum
الفصل ١٠٨ .

٣٩ — نسبة إلى بزانسيا (بيزنطة) المدينة التي أصبحت عاصمة للامبراطورية الشرقية (البيزنطية) .

٤٠ — Latronne : - Fragments des Poèmes Géographiques de Seynnus de Chio . restitués. Paris 1840

٤١ — Ferdinando Borsari : - Geografia Etnologica E Storica della Tripolitania, Cirenaica e Fezzan. Torino 1888 p. 155.

٤٢ — Droysen :- Gesch, des Hellenismus, II p. 723 - 726

٤٣ — لوأننا اتبعنا المنطق التاريخي السليم لأسميناها برينيكي Berenike ، ولكن بما أن تسمية «برنيس» قد شاعت منذ قرون ، وتأكدت بحيث لم يعد هناك من أمل في تصويب الخطأ المشهور ولو بصواب مهجور ، فقد آثرت تسمية المدينة باسم برنيس على اسم برنيكي وعلى اسم برنيق العربي لأن هذا الأخير سيعود فيما بعد .

٤٤ — Strabone : - Geografia — الكتاب ١٧ ، الفصل ٣ .

٤٥ — Callimaco شاعر قوريني عظيم عاش فيما بين سنتي ٣٢٠ و ٢٤٠ ق.م. تولى ادارة مكتبة الإسكندرية في عهد ثالث البطالمة واليه يرجع الفضل في وضع أول فهرسة ببليوغرافية في فن المكتبات ، وتعد مؤلفاته الأدبية من أهم التراث الأدبي لمدرسة الاسكندرية ، كما يعتبر تأليفه الاطارات I Quadri أول محاولة في تاريخ الأدب . تنسب اليه الأناشيد التي منها نشيد « غدائر برنيق » و « نشيد ابولون » وغيرها .

٤٦ — وهذا الموضوع سأعود الى بحثه في آخر الفصـــل الخاص بالميثولوجيا فارجع اليه هناك .

٤٧ — Plinio Cecilio Secondo: - - « Storia Naturale » الكتاب الخامس الفصل الخامس .

٤٨ — Lucano : - «Farsaglie» الكتاب التاسع ، ٣٥٥ .

٤٩ — وهذا غـــير بطلميوس الجغرافي فهو بطلميوس السابع الملقب بفسكوني (Fiscone) وبافرجيط الثاني، وقد نقل لنا روايته L'Ateneo (الكتاب الثاني — فصل ٢٨) .

٥٠ — C. Giulio Solino : - Memorabilium . Rerum . Collect الكتاب السابع والعشرون ــ ٥٤ .

٥١ — وتعرف هذه أيضاً بخريطة كاستوريو Carta di Castorio ويقال حولها إنها ترجع إلى خريطة Agrippa المعروفة منـذ القرن الثاني للميلاد ، وقد وصلت الينا هذه الخريطة أو على الأصح قائمة المسافات في نسخة تعود الى القرن الثالث عشر للميلاد .

٥٢ — راجع في هذا الموضوع صفحة ٢٨ من كتابي: ليبيا، هذا الاسم، جذوره التاريخية ، وراجع أيضاً Oric Bates في صفحة ٦٧ مــن كتابـــه « The Eastern Libyans » . وفي هذا المصدر الثاني بالذات شرح واضح للموضوع .

٥٣ — وقد أورد بروكوبيوس Procopio مؤرخ جستينان في كتـــابه : التاريخ السري ، الأسباب والمسببات التي انتهت بالاقاليم المستعمرة من هذا الامبراطور في شمال افريقيا إلى هـــذا الوضع الرهيب ، وننصح بالرجوع إليها فيه (الفصل العشرون) .

٥٤ — Procopio : - «Edifizii» — الكتاب السادس ، الفصل ٢ .

٥٥ — يمكن أن تعطينا شهادة بروكوبيوس نفسه صورة واضحة عن مدى الخراب والدمار اللذين حــلا بالمدن الخاضعة والتي أخضعت لسلطان الامبراطور جستينان . فقد قدرت ضحايا حرب بلزاريوس ضد الفندال بخمسة ملايين نسمة أعقبها اهمال لشأن البلاد بعد نهبها وسلب خيراتهـا منه ومن جنوده ومن حكامها على السواء .

٥٦ — احسان عباس : تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي ... الخ — ص ٩٧.

٥٧ — احسان عباس : المصدر السابق — ص ١٦٤ — ١٦٥.

٥٨ — احسان عباس : المصدر السابق — ص ٩١ .

٥٩ — احسان عباس : المصدر السابق — ص ١٦٧ .

٦٠ — Enrico de Agostini : — سكان برقة ، ص ٤١٣ .

٦١ — وعلمت من مصادر شعبية أن التسمية سودانية في أصلها فإن أهل السودان يسمون الحي المنعزل عن البلدة وكذلك القريـــة الصغيرة باسم كوية (بفتح الكاف وسكون الواو) . وعلمت أيضاً أن الكلمة معروفة وبنفس المعنى في منطقة تاجوراء ولديهم كوية العبيديين نسبة إلى عبيد الله ، وفي درنه حي الكوى وهو أقدم مناطق هذه البلدة وبه جبانة الصحابة .

٦٢ — بعد الفراغ من كتابة معظم الكتاب ، عثرت على رواية عند الدكتور احسان عباس في كتابه الحديث النشر (١٩٦٧) : « تاريخ ليبيا منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري » (ص ١٧٠) نسبها الى ابن الفرات في تاريخه ، وممــا جاء فيها « .... ولها من الموانىء والمراسي طبرق وميناء بني غازي» ، مخطوطةفيينا الورقة ١١٧ ، حوادث سنة ٦٧٢) وهي رواية لم أقف عليها قبل ذلـك ولا عند غيره ، ولو

أنه صح لدينا ورودها عن ابن الفرات ، واشتهار المرفأ بهذا الاسم سنة ٦٧٢ (توافق سنة ١٢٧٤) لتوجب علينا إعادة النظر في جميع ماكتبناه حول هذا الموضوع بما في ذلك شخصية الشيخ غازي ، ولو انتفى الشك لفعلنا ذلك، غير أن ورود التسمية «بني غازي» وليس «ابن غازي» وهي تحريف حديث ، وعدم ورودها عند كل من ابن سعيد والعبدري وابن خلدون وغيرهم، واحتمال أن تكون مضافة من الناسخ (وهو ما لا سبيل الى التأكد منه الا بمعرفة زمنها وبعد مقارنتها بما يوجد من نسخ الكتاب الاخرى، وغير ذلك) قد جعلنا نحجم عن الأخذ بالرواية قضية مسلم بها ، الأمر الذي شجعنا على الابقاء على ما تمت كتابته ، والاكتفاء بالاشارة اليها هنا حتى تكون دافعاً قد يبعث بالبعض الى محاولة التحقيق للأهمية الخاصة في اثبات عراقة التسمية الحديثة للمدينة .

وهذا جميعه انما يؤكد معنى أنها القرية الصغيرة وهو الرأي الذي أميل شخصياً الى الأخذ به .

٦٣ – وقد نشرت دراسته هذه ضمن مجموعة كتابات نشرت أو لم تنشر للبروفسور كارلو الفونسو نالينو قامت بجمعها وقدمتها ابنته ماريا نالينو، وكان نشره في الجزء الخامس منها بالدراسات الجغرافية والتاريخية (روما ١٩٤٤) والمجموعة في اللغة الايطالية جميعها .

الفصل الثاني

الموقع الجغرافي

- مدخل .
- موقع مدينة يوهسبيريدس .
- موقع مدينة برنيس .
- موقع مدينة بنغازي .
- تحديد موقع بحيرة تريتونيس .
- تحديد موقع وطبيعة نهر ليثون .
- تحديد موقع حدائق الهسبيريدس .
- الخاتمة .
- هوامش وتعليقات .

الفصل الثاني

الموقع الجغرافي

١ – مدخل :

قد لا يجد القارىء العادي لكتابة هذا الفصل أي مبرر على الاطلاق ، فمدينة بنغازي معروفة ، ومحددة الموقـــع في وضوح فوق جميع الخرائط الجغرافية ، ولا تحتاج من الباحث عنها إلى بذل أي مجهود . ونحن نقر بهذا منذ الآن ، ولا نعترض عليه ، غير أن ما نهدف إليه من دراسة في هـــذا الفصل هو تحديد موضع يوهسبيريدس اليونانية ، وتحديد مكان مدينة برنيس البطلمية ، على ضوء النصوص التاريخيـــة القديمة ، والاكتشافات الأثرية في العصر الحديث . وموقع بنغازي العربية فامتداد العمران بها ، وما تغير من معالمها الجغرافية التاريخية خلال العصور التاريخية المتعاقبة ، وهذا قد لا يهم القارىء العادي ، غير أنه يفيد الباحث المتخصص ، ويسجل في النهاية بعض الأمور الهامة للتاريخ .

وفي هذا الفصل من الدراسة ، سنتعرض لتحديد بعض المعـالم الجغرافية التي حددت بها المدينة في العصور التاريخية الماضية ، ولا سيا بحيرة تريتونيس

ونهر ليثون ، وحدائق الهسبيريدس ، وشبه الجزيرة الكاذبة أو غير الحقيقية، من وجهة النظر التاريخية المحضة ما دمنا قد أفردنا للاساطير الدائرة حول بعض هذه المعالم فصلاً خاصاً من هذا البحث .

٢ – موقع مدينة يوهسبيريدس :

لا نجد في نصوص هيرودوت الثلاثة التي تعرضت لذكر هذه المدينة بالاسم، ولا في النص الرابع الذي أشار اليها تلميحاً ما يساعدنا على تعيين موقعها من البلاد بالدقة ، وإن كان أحد هذه النصوص قد جعلها تقع على شاطىء البحر، الى الغرب من مدينة برقة (المرج) ، ووصف نص ثان هذه المدينة بأنها أبعد من برقة غرباً عن قورينة، ووصفها الثالث بانها منطقة خصبة تغلُّ مائة ضعف في سنوات الخصب والجودة ، وقال الرابع بأنها مدينة تحيط بها المياه .

وهذه أوصاف عامة وغير كافية لا تساعد الباحث على التحديد المطلوب ، ولو لم يستمر وجود هذه المدينة بعد هيرودوت لاستحال علينا بهذه المعلومات وحدها التعرف على موقعها . فوقوعها الى الغرب من مدينة برقة ، ومن غير تحديد لمدى مسافة هـــذا البعد ، يجعلنا نبحث عن موقع لها بين عديد من الأماكن الواقعة في منطقة واسعة من الجبل الاخضر ومن سهل بنغازي ومنطقة الخليج، وكونها على شاطىء البحر قد يصدق على أية بقعة منه فيما بين بنغازي وطلميثه على الأقل ، أما وصفهـــا في النص الثالث بالجودة فهو للمنطقة وليس للمدينة، وكون تربة هذه المنطقة تغل مائة ضعف فانه لا يعني شيئاً في تحديد المكان الذي للمدينـة . وحتى وصفها الذي في النص الرابع فهو لا يعيننا في تحديدها لأننا فهمنا النص بمعرفة خصائص موقعهـــا ولم نحددها بالنص ذاته، والذي لم يذكرها بالاسم صراحة .

ويأتي شيلاس الكارياندي فيقرر حقيقتين جغرافيتين عن موقع يوهسبيريدس هذه :

الأولى : أنها مدينة ذات ميناء .

والثانية : أن مصب نهر أكيوس على مقربة من هذه الميناء .

وهاتان الحقيقتان تساعداننا على تحديد مكانها بأنها ليست على الشاطىء وحسب ، وانما هي ذات ميناء . وبما أن الانسان في ذلك العصر المبكر نوعاً من التاريخ لم يتمكن بعد من التحكم في عوامل الطبيعة، ولم يتقدم تكنولوجياً الى حد القدرة على إنشاء ميناء صناعية على ساحل مستقيم خال من النتوءات والتعاريج والفجوات ، فان هذا يجعل الأماكن التي يمكن أن تكون موضعاً لمدينة يوهسبيريدس قليلة في المنطقة الواقعة الى الغرب فالجنوب من بلدة طلميثة .

وبما أن المنطقة الواقعة الى الغرب من برقة خالية تماماً من الأنهار الدائمة الجريان قديماً وحديثاً ، فإن مفهومنا لعبارة « نهر » عند هذا المؤرخ وغيره يجب أن يتحول من الاصطلاح الجغرافي الحديث لكلمة نهر الى الدلالة على أي « مجرى مائي » كالوادي مثلاً [١] ، والفجوات أو النتوءات التي في هذا الجزء من الساحل الليبي قليلة جداً وأقل منها تلك التي يجري بالقرب منها سيل مائي.

ومع هذا فإننا لو لم نصل الى معلومات جغرافية تاريخية أخرى عن هذه المدينة لما أمكن تعيينها في دقة استناداً الى ما أورده هيرودوت وشيلاس وحدهما .

وشيلاس قد وجد في عهد حملت فيه المدينة اسمها الثاني « برنيس» ولكن مراجعه في الكتابة تعود الى عهد أقدم من ذلك ، ولذلك سمَّى المدينة باسمها القديم ، والنهرباسمه المحلي فيما يعتقده البعض .

ويتحول الاسم من يوهسبيريدس بعد تطـور الى برنيس ، ولكن هذه مدينة جديـدة ، قامت في غير الموضع الذي كانت عليه يوهسبيريدس[٢] غير أن المؤرخين ابتداء من سترابون يغفلون ذكر هـذه الحقيقة إما لتفاهـة ما بين المدينتين من مسافة (أقل من كيلو مترين)، وإما لجهلهم بها، ويستمرون في تحديد موقعها الجغرافي كما سيأتي على أن هـذه هي تلك .

٣ – موقع مدينة برنيس :

وكان سترابون أهم مصدر تاريخي مكننا من تحديد موضع مدينة برنيس فقد قال عنها إنهـا قامت فـوق رأس (أو شبه جزيرة) غير حقيقـي pseudopenias مع امتداد مستنقع تريتونيس حيث توجد جزيرة صغيرة في وسطه بها معبد لأفروديت . وبالقرب منها بحيرة الهسبيريدس التي يصب فيها نهر ليثون .

مجموعة من الاوصاف والخصائص الجغرافيـة يمكننا أن نستخلص منها ما يرشدنا مع روايتي هيرودوت وشيلاس الى موضع مدينة برنيس التي يذكر سترابون نفسه أنها كانت تسمى يوهسبيريدس قبل ذلك .

فالرأس أو شبه الجزيرة على الرغم من وصفه له بغير الحقيقي المكوّن للميناء أو الواقع بجوار تجويف بحري يصلح اعتبـاره مرفأ للسفن الصغيرة (سفن ذلك العهد) لا يتكرر في هـذه المنطقة من الساحل الليبي الذي يقع الى الغرب من مدينـة برقة . وفيه أو بالقرب منه مجرى ومصب وادي القطارة[٣] الذي يمكننا اعتباره نهر أكيوس في رواية شيلاس . وبهذا يتحدد موقع مدينة برنيس التي يصفها سترابون بأنهـا نفس المدينة التي عرفت بيوهسبيريدس على أنه نفس الموضع الذي نجد فيه مدينة بنغازي حتى بداية القرن العشرين .

والمستنقع الذي سماه تريتونيس ، والذي يمتد مع امتداد المدينة الواقعة فوق الرأس يمكننا أن نجده في سبخة السلماني الواقعة وسط المدينة في توسعها الحديث . أما تلك الجزيرة التي قال بأن معبداً لأفروديت شيّد فوقهـــا فقد حار في تعيينها العلمـاء فرآها بعضهم في « سيدي حسين » ، ورآها غيرهم في مرتفع المفلوقة (ازيل الآن تماماً) ، ووقف الأكثر تحفظاً دون تعيينها بحجة ما قد يكون طرأ على المنطقة من تغيير بيد الانسان وفعل الطبيعة على السواء.

أما بحيرة الهسبيريدس التي يصب فيها نهر ليثون فهي إما سبخة قريونس– جليانه ، وإما سبخة سيدي يونس، والاولى جنوب غرب المدينـة والثانية في شمالها الشرقي ، وذلك بحسب اختلاف النظرة الى طبيعة النهر الميثولوجي .

وعلى كلّ فإن رواية سترابون قد قدمت لنـا ما يتمم روايتي هيرودوت وشيلاس ، فأمكن بجميعها تحديد موقع مدينة يوهسبيريدس – برنيس بالدقة المطلوبة والأكيدة لأن جميع ما سيرد بعد هذا النص سيدعمه ، ويزيد من التحديد الجغرافي لها بالدرجات ، وبالمسافات ، وبترتيب المدن شرقها وغربها على السواء .

وجـاء بلينيوس بعد سترابون ببضع عشرات من الاعوام ، فتحدث عن مدينة برنيس ، وحاول تحديد موقعهـــا الجغرافي فوضعها عند قرن خليج سرت ، ويتعرض لنهر ليثون بعد ذلك فيقول : « وغير بعيد منهـــا ، وفي مقابلتها يصب نهر ليثون، حيث الغابة المقدسة التي بها حدائق الهسبيريدس» .

وبهذه المجموعة الأخرى من الحقائق التاريخية الجغرافية الهـامة لا يترك بلينيوس لنا مجالاً من الشك في صحة ما انتهينا اليه من تحديد لموقعها، فالمدينة التي عيّناها استناداً الى الروايات الثلاث السابقة هي ذاتهـــا مدينة بنغازي

الحالية وبرنيق البطلمية الواقعة بالفعل عند المنطقة التي ينتهي فيها خليج سرت من جهة الشرق على وجه التقريب .

وحتى حديثه عن النهر (أي المجرى المائي) فإن تحديده له بالقرب منها وفي مقابلتها يكاد يجعلنا نتعرف عليه في مجرى ومصب وادي القطارة الذي كان قبل مدّ خط السكة الحديدية (بنغازي – سلوق) ينساب ليتخذ مصبه في جنوب المدينة بعد أكمة طابلينو . وهذا الوادي ، وتلك الغابة التي أضفى عليها سترابون صفة القداسة ميثولوجياً ، سنجدها في نفس الموضع وبنفس الوصف تقريباً عند الجغرافي العربي « الإدريسي » ، وبينهما أحد عشر قرناً من الزمان . بل إننا نجد آخر بقية لهذه الغابة نفسها في سدر الكيخيا عند « دفع الوادي » أو « الدفع » كما يسمى احياناً .

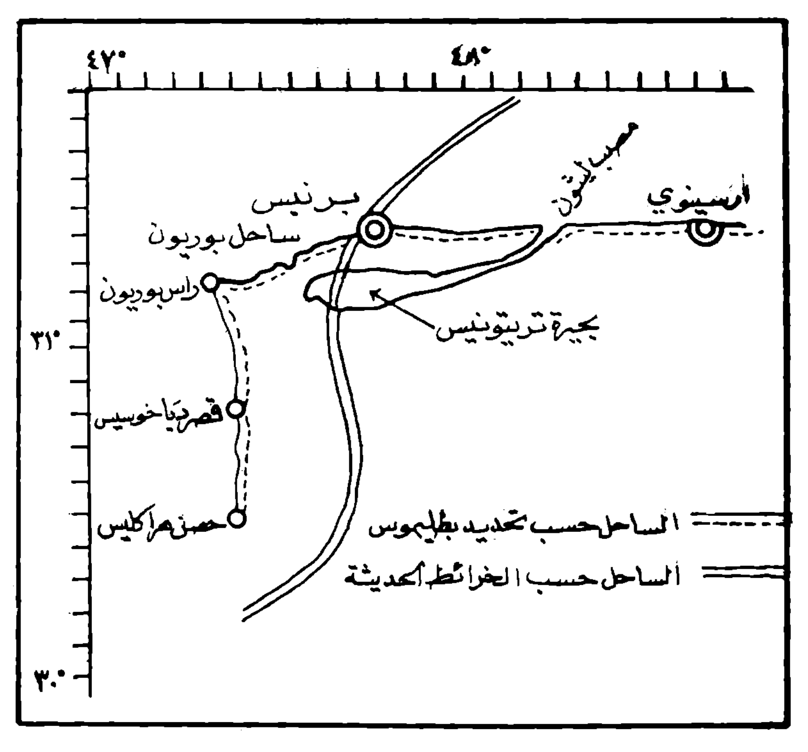
أما بطلميوس الجغرافي [٤] فيأتي بعد بلينيوس بقرن من الزمن ليحدد لنا موقعها بالدرجات على النحو التالي :

حصن هيراكليس	٤٧ْ ٢٠َ	طولاً	٣٠ْ ٣٠َ	عرضاً
قصر دياخوسيس	٤٧ْ ٢٠َ	«	٣٠ْ ٥٠َ	«
رأس بوريون (آخر سرت)	٤٧ْ ١٥َ	«	٣١ْ ١٠َ	«
شاطىء بوريون	٤٧ْ ٣٠َ	«	٣١ْ ١٥َ	«
برنيس (المسماة أيضاً هسبيريس)	٤٧ْ ٤٥َ	«	٣١ْ ٢٠َ	«
مصب نهر ليثون	٤٨ْ ١٥َ	«	٣١ْ ٢٠َ	«
ارسينوي (المسماة أيضاً تيوكيرا)	٤٨ْ ٤٠َ	«	٣١ْ ٢٠َ	«

وفي موضع آخر يقول :

وبحيرة كتلك التي تمتد من نهر ليثون ، يقع قطرها عند درجة ٤٧ْ ٤٥َ طولاً و ٣١ْ ١٠َ عرضاً .

إن بطلميوس ، بهذا التحديد الجغرافي المبني على خطوط الطول ودوائر العرض لا يقدم لنا كثيراً ، فإن تحديده لها على هذا الشكل يضعها في نفس الموضع الذي وضعها فيه بلينيوس ، على الرغم من الخطأ الجغرافي الكبير في تحديد شكل الانحناء الذي للساحل إلى الشرق وإلى الغرب منها ، كما تشاهد من الرسم التقريبي الذي وضعناه استناداً إلى الدرجات التي أعطانا إياها ، وعلى الرغم من خطئه في تحديد موضع مصب نهر ليثون (بالمقارنة



(ساحل برنيس كما هو حسب بطلميوس)

إلى من سبقه ومن لحق به من الجغرافيين والمؤرخين) اذ جعله يبعد عن مدينة برنيق بثلاثين درجة إلى الشرق بينما لا يبعد عن مدينة أرسينوي

المسماة تيوكيرا (توكره) سوى خمس وعشرين درجة فقط مما يجعله مقابلاً لمجرى أحد الأودية بمنطقة برسس ــ دريانه .

أما الجديد الذي جاء به بطلميوس ، فهو إشارته الى الساحل الواقـع فيما بين برنيس ورأس بوريون المسمى من غـيره بتاجونيس Tajonas (قريونس الحالية) .

ويأتي سولينو Solino بعد بلينيوس بحوالي قرنين من الزمان ليكرر نفس عبارته تقريبـاً إذ يقول : « عند آخر قرن خليج سرت ، يداعب برنيس نهر ليثون الذي .... الخ » أي أنه لا يأتي بجديد سوى وصفه للنهر بمداعبة برنيس التي تعني هنا الملامسة في رفق، وهذا غير ما قاله بلينيوس في عبارته: « على مقربة منها ، وفي مقابلتها » ولكن هذا الاختلاف الطفيف في الرواية لا يضيف جديداً على ما سبق وعلى ما عرفناه من تحديد لموقعها عند سابقيه جميعهم .

وفي ستاديازموس البحر الكبير [٥] وهو مصدر بيزنطي العهـد ولكنه يرجع إلى تراث الإسكندرية أو العصر الإمبراطوري بمصادره، نجد الفقرة ٥٧ منه تنص على ما يلي : « ... من توكيرا الى برنيكس ٣٥٠ (ستاد Stadi) ... الخ » . وبتحويل هذه المسافة الى أميال نجدها تعادل ٤١ ميلاً (والميل ١٤٨٠ متراً) أي ما يقرب من ٦٥ كيلومتراً ، وهذه هي نفس المسافة التي تفصل قرية توكرة الحالية عن مدينة بنغازي .

ويواصل نفس هذا المصدر تحديده فيقول إن اتجاه البحر يأخذ في الميلان ، وبعد ستة استاديات ، تلحظ [الحديث هنا موجه الى راكب البحر] رأساً يمتد نحو الغرب ، حوله صخور عالية ؛ احذر حينما تسامت الشاطىء فسترى جزيرة صغيرة ، غير مرتفعة ، سوداء ... الخ » . وهنا

نجد وصفاً بالغ الأهمية لموقع المدينة ، إذ ان الرأس الممتد نحو الغرب ، لا نزال نجده في تلك البقعة التي قامت عليها إدارة ومخازن الجمارك القديمة (في العهدين التركي والإيطالي) ابتداء من مدخل الميناء الحالي الى النقطة التي يمتد منها الرصيف القديم للميناء[٦]. وتحديد المسافة التي تفصل هذا الرأس عن مدينة برنيكس بستة استاديات فقط (أي ما يعادل ١٠٩٥ متراً) يجعلنا نتعرف على مكانها بدقة متناهية تحصرها بين حي الصابري وميدان البلدية على وجه التقريب .

أما الصخور العالية الممتدة حوله ، فقد أتت عليها عوامل التعرية الطبيعية ، ويد الانسان ، ربما أثناء انشاء الرصيف في أواخر العهد العثماني الثاني . ويقول البروفسور بوناتشيلي في مقاله الذي سبقت الاشارة اليه[٧]عن هذه العوامل الطبيعية ما ترجمته : « ... وينتفي الشك كلية في أن الزمن قد أحدث تغييرات في السطح على طول امتداد الساحل البرقي ، فالبحر الذي احترم فأبقى على اجزاء كبيرة من ميناءيْ طلميثة وسوسة ، قد أتى على شاطىء بنغازي ، فأحال الرؤوس الممتدة الى صخور بارزة ومغمورة عند الساحل ، بل وملأ قاع الميناء ومدخلها بطبقة من الرمال التي كانت تزحف بعامل التيارات البحرية القريبة من القاع القليل العمق الذي للبحر ، والمكوّن من سطح رسوبي عديم التماسك قليل المقاومة لعنف الامواج » (ص ٢١ منه).

أما الجزيرة الصغيرة القليلة الارتفاع السوداء الحجارة والتي يحذّر المصدر راكب البحر المسامت للساحل منها ، فيبدو أن الامواج والتيارات البحرية ، وربما بعض الحركات الجوفية كالزلازل وما يصحبها أحياناً من تغيير في السطح قد أتت على هذه الجزيرة ، فلم يبق منها غير تلك الصخور الممتدة مع امتداد الشاطىء فيما بين الرصيف الخارجي الشمالي وأول مباني معسكر توريلي الايطالي

(شارع احمد الجهاني من البحر) وقد غطت الرمال والانقاض ، وعمليات الردم المستمر لاكتساب المزيد من الأرض على حساب البحر ، معظم المسافة المائية الفاصلة بين هذه الصخور واليابسة أو هي تكاد تفعل ذلك .

والى جانب هذا الرأي الذي لا يمكن رفضه نقدم احتمالاً منا أقمناه أصلاً على دراسة للتضاريس المكوّنة لطبيعة أرض هذه المنطقة بالذات ، وليس على ما أوردته المصادر التي رجعنا اليها حتى الآن . واحتمالنا يتلخص في أن تكون الجزيرة هي المرتفع الصغير لرأس جليانة، ذلك أن هذا الرأس المتصل باليابسة في الوقت الحاضر من الممكن أن يكون منفصلاً عنها في ذلك العصر بمياه البحر أو المستنقع الذي يمتد فيما بين سيدي داود والطريق الرئيسي (سبخة الكيش ـ المدينة الرياضية) ثم فيما بين هذه والبحر (الملاحة التي استصلحها الايطاليون ثم أهملت الآن) . ولعل هذه السبخة أو المستنقع كان قاعه آنذاك أكثر عمقاً مما هو عليه الآن بكثير ثم ارتفع بما قذف اليه وادي القطارة من طمي وبما أذرته الرياح القبلية المحملة أبداً بالاتربة والغبار من تربة ، وبما يلفظه البحر من رمال شاطىء جليانة ـ طابلينو القليلة الارتفاع عن سطح البحر .

وفي مصدر تاريخي آخر يعرف في الايطالية باسم Tabula Pentigeriana يقول مقدمه لنا عنه « ... ربما يرجع في أصله الى خريطة Agrippa التي كانت توجد في القرن الثاني للميلاد ، غير أن هذه الرواية منه ترجع الى القرن الخامس أو السادس للميلاد على أبعد احتمال ، وإن وصلت الينا من « بردية » تعود تاريخياً الى القرن الثالث عشر الميلادي ». في هذا المصدر نجد مدينة برنشيدي قد حددت بأنها تبعد عن هدريانوبوليس (دريانة) بثمانية وعشرين ميلاً الى الشرق ، وهذه الاخيرة تبعد عن مدينة تيوكيرا بخمسة

وعشرين ميلاً أخرى . أي أن ما بين مدينة برنشيدي (برنيس) وتيوكيرا من مسافة هي ثلاثة وخمسون ميلاً ، وهذه تزيد عن المسافة التي حدّدت في الاستاديازموس باثني عشر ميلاً الى الغرب . وهي مسافة تنقل المدينة الىغير موضعها، مما يتحتم معه استبعاد الرواية للخطأ المؤكد الذي ستوقعنا فيه، اللهم الا اذا كان للميل فيها طولاً غير الطول الذي للميل اليوناني القديم ، وهو ما لم نستطع الوصول اليه بمعلوماتنا ومصادرنا حتى الآن .

وسواء أثبت خطأ هذا المصدر أم صوابه فاننا نعتقد أننا لسنا في حاجة الى المزيد من المعلومات الجغرافية التاريخية للتحديد ، ذلك أن ما أتينا به من الروايات (وهي ليست جميع ما يحفظه لنا التاريخ في الموضوع) قد مكننا من تحديدها وفي نفس الموضع الذي كشفت فيه الصدفة عن بعض آثارها مما لم يبق معه أي مجال للشك أو للتردد في الجزم بدقة هذا التحديد .

وهذه الرواية الرومانية التي أعيدت تاريخاً الى القرن الخامس أو السادس للميلاد ، وتدويناً الى القرن الثالث عشر منه ، إنما تسجل بداية الحيرة في تحديد المكان لبرنيق ، فالروايات التاريخية التالية تعود الى العصر الاسلامي المتأخر بعض الشيء . أما كتب التاريخ الاسلامي القريبة العهـــد من زمن الفتح فلا تذكر عن برنيق أي شيء (في حدود معلوماتنا) مما يحملنا على الاعتقاد بأن المدينة كانت قد وجدت نهايتهـــا في أواخر العصر البيزنطي . وحتى رواية مؤرخ الامبراطور جستنيان بروكوبيوس ترجح هذا الميل ولا تقصيه إذ انه في كتابه (العمران Edifisii) يذكر أن الامبراطور قد أعاد بنـــاء أسوارها ، من الأساس وهذا انما يعني انهيار هذه الاسوار بحيث لم يعد الترميم كافياً للإصلاح ، غير أن محاولته في اعادة الحياة الى هذه المدينة كانت فاشلة للعوامل التي ذكرها هذا المؤرخ نفسه في كتابه (التاريخ السري للامبراطورية)

وهو الذي سجّل فيه مظالم ومباذل هذا الامبراطور وحاشيته وأهله وعدّد مساوئهم في الحكم .

ولا فائدة جغرافية لنا من رواية ياقوت الحموي ما عدا صحة نطق اسم برنيق ، اذ انه جغرافياً يخطىء فيجعلها بين الاسكندرية وبرقة على الساحل، ولا يزيد . ولو أننا بحثنا عنها بحسب تحديده وحده لاستحال علينا الاهتداء الى مكانها إذ انها ليست قطعاً بين هاتين المدينتين . وخطأ ياقوت في نظري ناشىء عن عدم وجودها كمدينة في عصره . أما نسبة علي بن البرنيقي اليها فلا يعني وجودها آنذاك كمدينة ، ولنا في هذه النسبة رأي سنعود اليه في المكان المناسب من الدراسة .

ولا يذكر البكري أي شيء عن مدينة برنيق هـــذه في الوقت الذي أسهب فيه في ذكر أوصاف المدينتين الواقعتين الى الشرق والى الجنوب منها : برقة (المرج) واجدابية ، مما يقوي من الاحتمال الذي ذهبنا اليه من تلاشي وجودها آنذاك .

والإدريسي هو الجغرافي العربي الوحيد الذي نفيد منه في هذا الموضوع ، فهو يحدثنا بما يؤكد انعدام وجود أي أثر للحياة في البقعة التي حملت اسم برنيق، فيقول : « وتبعد سلوق عن قافيز مسيرة يوم، وقافيز قصر شيّد بوطا برنيق » . ويتحدث عن غابة وعن بحيرة عذبة المياه تفصلها عـــن الشاطىء سلسلة من كثبان الرمال ، ولكنه يسكت كلية عن الاشارة الى بلدة أو قصر أو موضع معين اسمه برنيق . ولو أنهـــا ذات حياة لأشار اليها وهو الذي لم يغفل ذكر قصر منفرد بسهلها وعلى مقربة منها ، الأمر الذي جعلنا نعتبره تأكيداً لما سبق، وأن ما ارتأيناه فيها يكاد يصل الى درجة الإفصاح بالنص عنه .

٤ – موقع مدينة بنغازي :

وفي الربع الأخير من القرن السادس عشر برز ولأول مرة في الخرائط الجغرافية اسم « مرسى ابن غازي » في نفس المكان الذي حمل اسم مدينة برنيق في الخرائط القديمة ، ولم يلبث هذا المرسى أن تحول الى مدينة بنغازي ولا تزال المدينة تحمل الاسم حتى الآن .

وإذا ما راجعنا الذي كتبه الرحالة العرب والإفرنج من وصف لهذه المدينة في القرون الثلاثة الأخيرة نجدها قد قامت في نفس المكان الذي حدده سترابون وبلينيوس وبطلميوس وغيرهم لمدينة برنيس : فوق ذلك الرأس الممتد بين البحر والسبخة (عين السلماني) والذي لا يزيد طوله عن الكيلومتر الواحد بكثير.

وحتى مطلع القرن العشرين لم تجاوز المدينة بمبانيها هذا الرأس ، وإن نشأت في الجهة المقابلة (جنوباً) من المستنقع (البركة) وعلى ربوة الأرض الواصلة بين الرأس واليابسة (سيدي حسين) ضاحيتان حسبتا جزءاً منها وإن حملتا اسمين محليين مستقلين .

وامتدت مزارع سكان هذه المدينة ، وبعض مساكن للمزارعين في تلك المنطقة الرملية الواقعة في أول الرأس والواصلة بينه واليابسة (الصابري – سوق حداس – دكاكين حميد – اللثامة) .

وقبيل الحرب العالمية الاولى غزت ايطاليا البلاد وحوصرت داخل منطقة المباني فاضطرت ، حماية لجندها ومنطقة نفوذها ، الى بناء سور يحيط بالمدينة نفسها فمدت جدرانه من البحر (شارع المستشفى من البحر) دائرة بالرأس من جانبه الشمالي الشرقي الجنوبي ، حتى انتهت به الى البحر (عند مكاتب الاشغال الحالية) فكان طوله بما في ذلك من تعاريج وانكسارات هو ٣٧٠٠ متر ، وقد تم ذلك فيما بين عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ فكان هذا هو آخر اتساع محيط

المدينة عدا الجانب الشمالي الغربي المواجه للبحر .

وبعد الحرب العالمية الاولى ، وابتعاد نشاط المقاومة الوطنية عن منطقة المدينة بدأت هذه تتوسع وتتجاوز السور فامتدت أولاً في المنطقة الواصلة والبركة المنخفضة (منطقة سيدي حسين ــ المفلوقة) ، وفي المنطقة التي عرفت بالصابري -- سوق حداس ــ دكاكين حميد ، بينما نشأت ضواحي جديدة شبه منعزلة عن المدينة في كل من: الفويهات ــ الرويسات ــ رأس عبيدة ــ الكيش ــ بوزغيبة ، ثم في فترة متأخرة أرض الماجوري (تحولت تسميته بعد الحرب العالمية الثانية الى حي المهاجرين) وبو صفية . أما التوسع الايطالي (للجالية) فقد كان في الجهة الغربية من الرأس ولكن داخل السور أولاً ، ثم في البركة (على مقربة من معسكر الجيش والمطار القديم) .

وبعد الحرب العالمية الثانية عاد الناس الى المدينة التي كانت قد هجرت من غالبيتهم طوال سنوات الحرب الدائرة في مناطق الشمال الافريقي ، وأصبحت بفعل الغارات الجوية انقاضاً ، فبدأت عملية الترميم وإعادة البناء والطرق والمرافق العامة ، وكما حدث في معظم العالم أصبحت هذه المدينة مركز الجذب لسكان القرى والريف ، فاتسعت رقعتها الى أضعاف ما كانت عليه فامتدت مبانيها خلال ربع القرن الاخير حتى غطت جميع المنطقة المحاطة بالطريق الدائري المعبد حولها والذي يبلغ طوله أكثر من واحد وعشرين كيلومتراً، بل وتجاوزته الى الاراضي الواقعة خلفه في كثير من المناطق واتصلت المباني ببعضها بحيث غطت جميع الاراضي التي كانت تتخلل العمران فراغاً ، وتضاعف تعداد سكانها خلال نصف القرن الاخير ثلاث عشرة مرة أو يزيد .

ويمكن الجزم الآن بأن مدينة بنغازي الحالية تقوم حيث كانت مدينة يوهسبيريدس وحيث وجدت مدينة برنيس وتتجاوز المنطقة التي اعتبرت ضواحي

قريبة لأي منهما طوال عصور التاريخ ، وتتكون من :

أولاً : المدينة القديمة (العثمانية) في الوسط .

ثانياً : ـ الصابري ـ سوق حداس ـ دكاكين حميد ـ الزريريعية ـ اللثامة ـ منطقة سيدي يونس (شمال شرق المدينة القديمة) .

ثالثاً : ـ المساكن الشعبية (السلماني) بن يونس ، بوقرين (في الشرق) .

رابعاً : ـ سيدي حسين ـ رأس عبيدة ـ الرويسات ـ ارض الرقريقي ـ بوزغيبة ـ بوصفية ـ ارض السوسي (في الجنوب الشرقي والجنوب).

خامساً : ـ القسم الحديث (زناتي النصارى ـ سابقاً) من المدينةالقديمة ، البركة ، حي المهاجرين ، الفويهات ، مدينة الحدائق .... الخ في الجنوب .

سادساً ـ : جليانة ـ الكيش ـ طابلينو ـ حي الجامعة الليبية (وهذا حديث جداً وفي دور التكوين) في الجنوب الغربي .

أما موقع المدينة جغرافياً فيحدد بنقطة تقاطع دائرة العرض ٣١° بخط الطول ٢٠° شرقي جرينتش على ساحل البحر ، ووسط سهلها الفسيح الذي يمتد خلفها وجنوبها وشمالها لعشرات الكيلو مترات .

٥ ـ تحديد موقع بحيرة تريتونيس :

ان اسم البحيرة هذا « تريتونيس » منسوب الى « تريتون » وهو المعبود البحري القديم الذي قدسه سكان الجزر والسواحل من اليونان قبل أن يعرفوا بالمعبود الليبي الكبير « بوسيدون » . فلما اشتهرت عبادة بوسيدون هذا بينهم واحتل مكانه بين آلهة جبل الأوليمب كواحد من الآلهة العظماء، قلّ شأن تريتون هذا ثم أصبح في الميثولوجيا اليونانية إبناً لبوسيدون من أنفتريت Anfitrite زوجته وملكة البحر . وأسكن معهما قصرهما الذهبي في أعماق

البحار. وقد تصور اليونانيون في الفن وفي الأدب هذا المعبود الميثولوجي كائناً غريباً نصفه الأعلى على هيئة إنسان ونصفه الأسفل سمكة دلفين. وجعلوا وظيفته النفخ في بوق أو قرن من المحار حسبما يحلو له : في عنف، فيهيج البحر ويحدث الاعصار، أو في رفق، فيهدأ البحر وتصفو مياهه الرقراقة .

ويرى بعض مؤرخي الأدب الميثولوجي من قدماء اليونانيين أن مركز عبادته الأول كان في إحدى المناطق الساحلية من الشمال الافريقي على خلاف بينهم وبين المؤرخين في تحديد البحيرة المنسوبة إليه .

وقد وضع هيرودوت مكان هذه البحيرة عند خليج قابس حيث مواطن اللوتوفاجة(٨) ووضع غيره هذه البحيرة في المغرب الأقصى عند شواطيء المحيط الاطلنطي .

أما سترابون فقد وضع هذه البحيرة حينما حدّد لنا موقع مدينة برنيس على مقربة من هذه المدينة ، وحددها بما لا يدع مجالاً للشك بأنها تلك البحيرة التي تفصل مدينة برنيس عن اليابسة ، وتكوّن مع البحر ذلك الرأس الذي أسماه بشبه الجزيرة الكاذب أو غير الحقيقي أي البسيودوبنياس والتي نعرفها اليوم بسبخة عين السلماني . ولكن مؤرخيهم وجغرافييهم ابتداء من سترابون قد أجمعوا على أن مكان هذه البحيرة يقع عند مدينة برنيس أو على مقربة شديدة منها ، ربما لأن الاسطورة اليونانية قد وجدت في النهاية مستقرها الاخير عند هذه المدينة التي كوّنت بالفعل آخر ما تحقق من حلم لليونان في التوسع الاستيطاني بالشمال الافريقي .

وتحدث سترابون عن جزيرة صغيرة تقع وسط هذه البحيرة ، فقال إن معبداً صغيراً لفينوس قد شيِّد فوقها . ولا وجود لهذه الجزيرة في العصر الحديث ، وقد افتقدها كل من زار المدينة في القرون الثلاثة الاخيرة من الرواد وهو على علم بنص سترابون هذا .

وقد أدى افتقاد الجزيرة الصغيرة الى عدة تكهنات حولها في العصر الحديث ، فرآها البعض في الأكمة التي تقوم فوقها مقبرة سيدي حسين الحالية ، ورآها البعض الآخر في الأكمة التي عرفت بالمفلوقة ، وقال غير الفريقين بتحلل أو تفتت تربتها الرسوبية التي كانت ولا شك ضعيفة التماسك بفعل عوامل التعرية الى درجة التلاشي .

وقد كان المستنقع على صلة بالبحر أكيدة عند المنطقة التي تقوم عليها اليوم مجموعة المباني المحصورة بين شارع عمرو بن العاص ، وأول مقبرة سيدي حسين المقابلة له من الجانب الآخر وحتى البحر .

ويؤكد معظم الباحثين بأن معظم قاع هذه البحيرة التي تحولت بعد الفصل عن البحر مستنقعاً كان أعمق كثيراً مما هي عليه في العصر الحديث ، ويرون في أسطورة جاسوني أرجوس Jasone Argo ورفاقه ، وفي حادثة كاتوني التاريخية التي رواها الشاعر لوكانو Lucano دليلاً أكيداً على أنها كانت على درجة من عمق القاع يسمح للسفن الشراعية الصغيرة على الأقل بالدخول اليها أو على الأقل تغري بذلك . ويرجع هؤلاء ارتفاع قاعها الى تراكم رواسب الطمي الذي دفعت به اليها فيضانات وادي القطارة ، وبعض الاودية الاخرى ، والى الاتربة التي تذروها الرياح الجنوبية الغربية المعروفة محلياً بالقبلي والتي يتكاثر هبوبها زمن الربيع والصيف .

ومع القرن العشرين أخذت مدينة بنغازي تنمو بشكل ملحوظ وغير عادي وتزحف تدريجياً على حافات هذه البحيرة ، أو على الأصح هذا المستنقع فتكسب شريطاً منها على إثر شريط حتى اذا اكتشف البترول في ليبيا بعد استقلالها بسنوات وسوّقت منتجاته ، فدرّ دخولاً مرتفعة وفرت الأموال اللازمة لقيام حكومتها بمشاريع عمرانية ضخمة ، فكر المسؤولون فيها في

التخلص مما تسببه مياه هذه السبخة (اي المستنقع) الآسنة من مضايقة ومن أمراض للسكان بردمها دفعة واحدة ، فاعتمدت لها الحكومة المال اللازم وتعاقدت مع شركة عالمية على تنفيذ المشروع حتى توفر للمدينة ، التي توسعت بمبانيها حتى أحاطت بشواطئها إحاطة السوار بالمعصم، الأرض الكافية للجديد من المباني .

وهكذا ستتلاشى قبل نهاية سنة ١٩٦٨ م. بحيرة تريتونيس التي عاشت مع المدينة طوال عصور التاريخ ، ولن يبقى منها غير ذكريات أهلها، وما دوّن حولها في التاريخ .

وكما تلاشت بحيرة تريتونيس ، أو سبخة عين السلماني ، فقد تلاشت أيضاً تلك الأكمة الصغيرة التي عرفت فيما مضى بالمفلوقة اذ سويت بالسطح أثنــــاء الأعمال التمهيدية لإنشاء المدينة الرياضية بها ؛ وهي الأكمة التي عثر فيهــا على مقابر وآثار غير ذات بال في حدود سنة ١٩١٤ م .

وقد كانت هذه الأكمة حسب رأي البعض هي تلك الجزيرة الصغيرة التي تحدث عنها سترابون حتى وإن لم يعثر فوقها على أي أثر لمعبد فينوس الذي تحدث عنه هذا المؤرخ .

٦ – تحديد موقع وطبيعة نهر ليثون :

في فصل قادم سأتعرض لذكر بعض الروايات التاريخية عن مكانة هــذا النهر في الميثولوجيا اليونانية ، ولا أرى مبرراً هنا لتكرار ما سأقوله هناك حوله ، لهذا فإنني سأبحث هنا موقع وطبيعة مجرى هــذا النهر التاريخي أو المجرى المائي الذي سمّاه اليونانيون بالنهر .

نشأ في العصر الحديث اتجاهان حول طبيعة مجرى هذا النهر ومكانه من

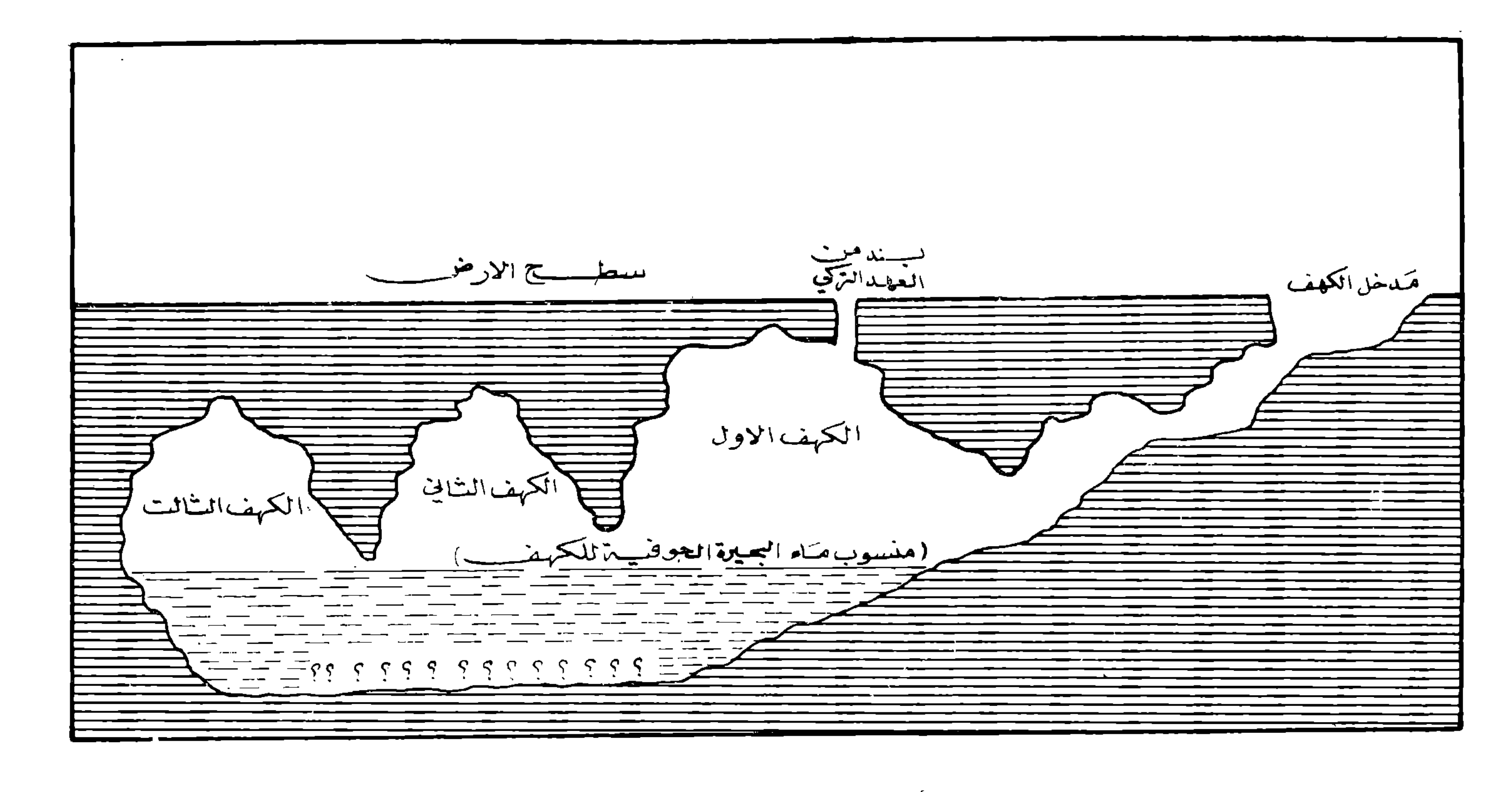
السطح ، اتجاه ميثولوجي التفسير والبحث يستند أصلاً الى ما نسب للنهر من قوة خفية وقدرة غيبية على فرض السلوى والنسيان على من يشرب من مائه . واتجاه جغرافي تاريخي يقوم أصلاً على تلك المعلومات الجغرافية القليلة التي وردت متناثرة حوله في النصوص الجغرافية القديمة .

وقد حاول أصحاب الإتجاه الميثولوجي أن يتعرفوا على هذا النهر في ذلك الكهف الكارسياكي الممتد تحت السطح في منطقة « بوعطني » على مقربة شديدة من الكلية العسكرية الملكية الحالية وقصر الغدير سابقاً وهو الكهف المعروف محلياً باسم « الجخ الكبير »[٩]وهو كهف يمتد في باطن الارض لعدة مئات من الامتار ، ويتسع في بعض الاماكن عدة عشرات من الامتار ، ويتكون في داخله من ثلاث حجرات أو كهوف متصل أحدها بالآخر وإن كان السقف ينخفض بين واحدة وأخرى الى أن يكاد يلامس سطح الماء الذي يغرق أراضيها بماء عذب الى حد ما وعميق الغور .

وقد دفع وجود هذا الكهف على هذا الشكل بخيال بعض الباحثين الى محاولة اثبات صلته بنهر النيل عبر نهر جوفي[١٠].

وقد استند أصحاب هذا الاتجاه الميثولوجي فيما استندوا اليه على أن الأساطير لا بد وأن يكون لها نصيب من واقع ترتكز عليه ، وهذا الواقع يمكن تلمسه في أن النهر جوفي الى حد ما، مما يسهل فكرة ارتباطه بالعالم السفلي حيث تنتهي الارواح ، وبالجحيم اذ صوره بعض أدباء اليونان القدماء على أنه نابع من الجحيم وقرنوه بفكرة السلوى أو النسيان (L'oblio) التي تدور حول نهر لاثون وليثون ، وصلة هذه التسمية بنهر لادون Ladon أحد أنهار الجحيم الميثولوجي .

وقد وجد أصحاب هذا الاتجاه سنداً قوياً من مشجعي السياحة الذين



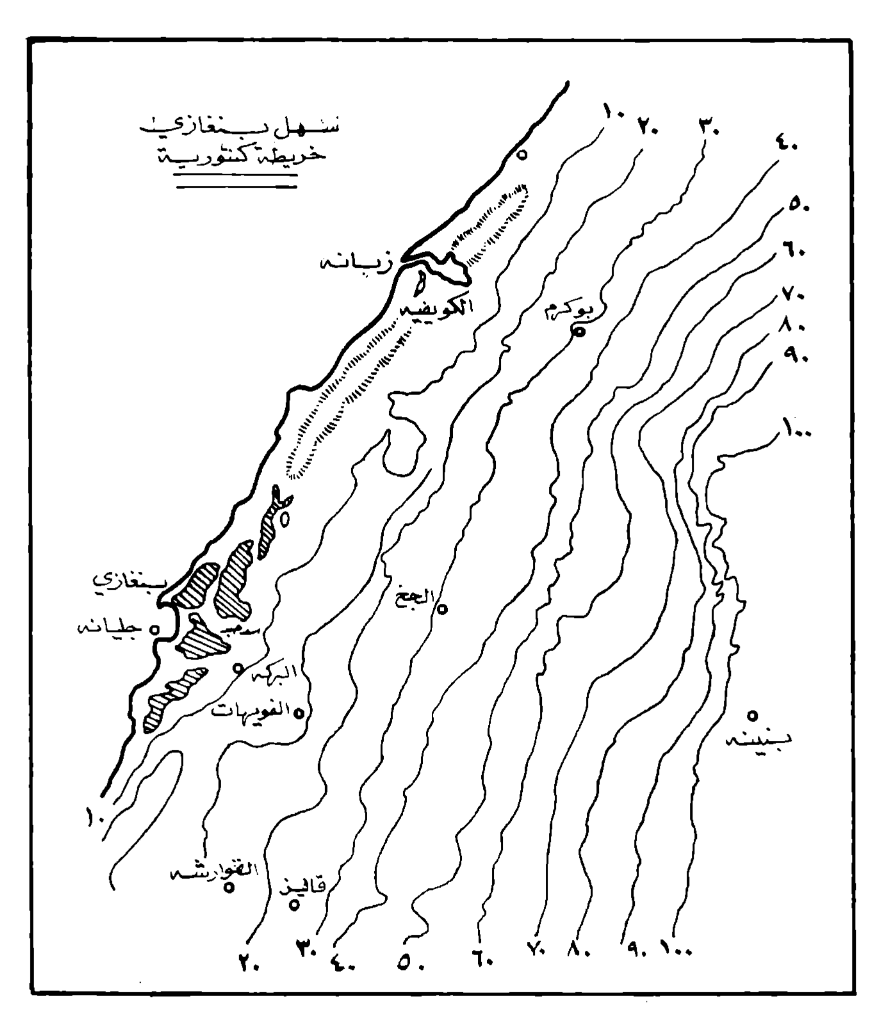
قطاع رأسي لكهف الجعيتا الكبير او نهر ليقون

تلقفوا هذا الربط والتحديد الجغرافي وروّجوه حتى يثيروا به اهتمام السائح ، ويذكّوا فضوله فيندفع لزيارة هذا النهر الميثولوجي الذي تنساب مياهه من والى باطن الارض ، ولذلك سموه بالاسم القديم « ليتي Lete » (وهي التسمية الرومانية للنهر) فغلب هذا الاتجاه في شيوعه ذلك الاتجاه الثاني الذي لا يبحث الا قصد الوصول الى الحقيقة ودونما نظر الى ما سواها من حوافز واعتبارات خاصة كالسياحة وما اليها .

اما الاتجاه الثاني ، والذي قام أصلاً على تلك الاشارات التي أوردها قدماء الجغرافيين والمؤرخين حول هذا النهر ، فقد بحث أصحابه عن ليثون كنهر صغير دائم الجريان أو في واد لا تتدفق مياهه الا في حالات الفيضان التي تعقب هطول الامطار .

واعتقد البعض من هؤلاء في أنه تعرف على نهر ليثون في تلك السلسلة من المستنقعات الممتدة من عين زيانة حتى سبخة السلماني (السلاوي - سيدي يونس - عين السلماني وما بينها من مناطق) ، واتصال هذه المستنقعات ببعضها كان ثابتاً جغرافياً ، ومن المعروف لدى سكان مدينة بنغازي حتى عهد آبائنا أن بحيرة زيانة (عند قرية الكويفية) اذا ما سد منفذها البحري فإن مياه الينابيع الجوفية التي بها (منطقة القدر) ستتخذ مجراها الى مدينة بنغازي عبر هذه السلسلة من المستنقعات . وقد سمعت مرات من شيوخ هذه المدينة المعاصرين للحادث التالي ، ثم قرأت عنه في مصادر ايطالية معتمدة علمياً وتاريخياً أن المجاهدين لجأوا الى سد هذا المنفذ في مطلع سنة ١٩١٢، قصد اغراق المدينة بالمياه لاجلاء الغزاة عنها ، ولم ينقذ المناطق المنخفضة في المدينة من الغرق الا فزع الايطاليين واستنجادهم بالبحرية التي قامت بفتح ذلك المنفذ الذي سد في مغامرة سريعة وجريئة من طريق البحر .

واذا سلمنا بهذا الرأي ، فان وصف معظم جغرافيي اليونان القدماء لهذا المجرى بالنهر تجد سنداً قوياً من الواقع اذ من المعروف أن ميـــاه قدر زيانة عذبة الى حد ما وغزيرة التدفق في نفس الوقت (تقدر كميتهــا بثلاثة عشر الف لتر في الثانية) مما يجعل الماء الذي كان جاريــاً أعذب مما هو عليه



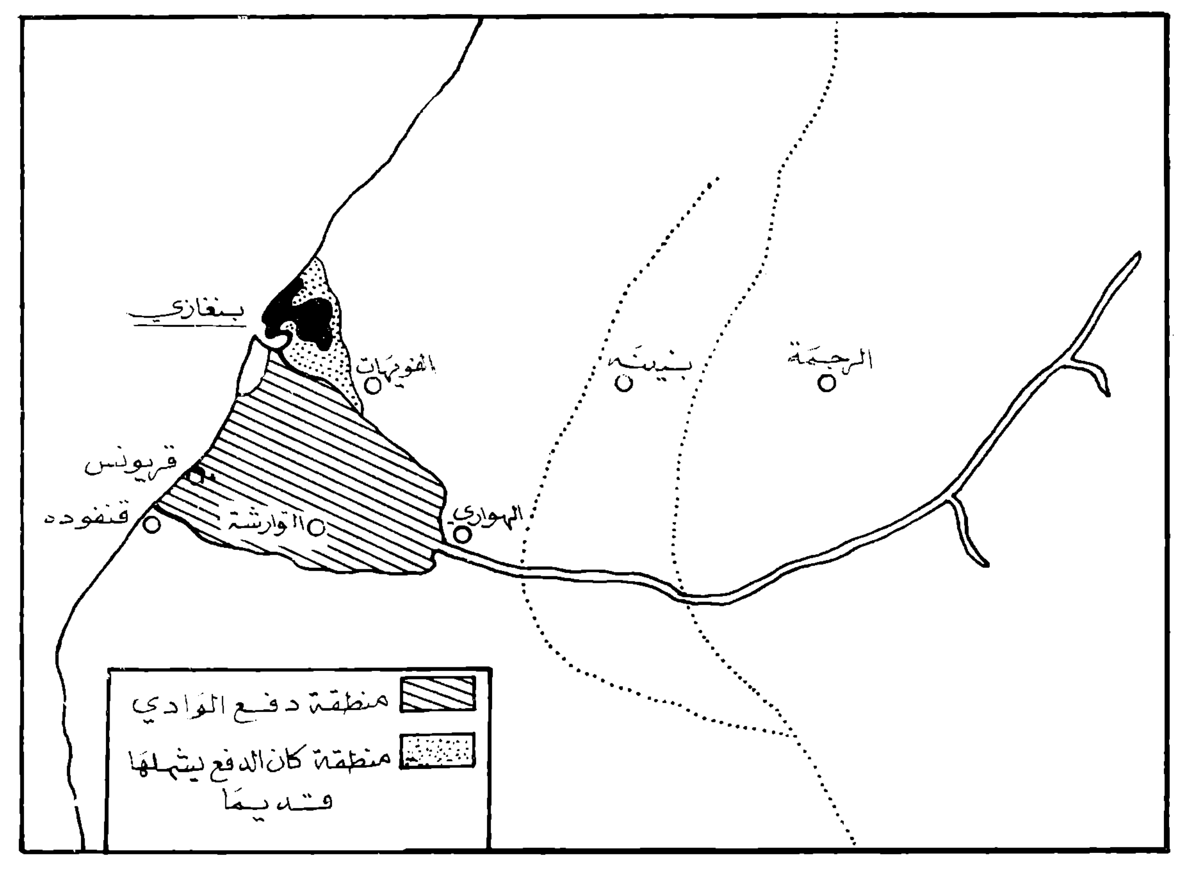
خريطة كنتورية لسهل بنغازي

مجراه اليوم بكثير ، وقد علل بعض الباحثين تحوُّل المياه الى درجة شديدة من الملوحة بالتبخر وعدم الامداد المستمر . والتدفق والعذوبة بعد هـذا هما الصفتان اللتان يرتكز عليهما تعريف النهر جغرافياً .

غير أن تحديدات معظم الجغرافيين لموقعه ، وموضع مصبه من المدينـــة لا تتفق ومجرى هذا النهر ، اذ انها تجعله في الجانب الآخر منهـــا وليس في الجانب الشمالي الشرقي .

وحتى الادريسي ، وهو آخر من تحدث عن مجرى مـــائي بهذه الديار (منتصف القرن الثاني عشر للميلاد) فانه يضعه في نفس الجانب الذي وضعه فيه قدماء اليونان فهو يقول عنه بالنص ما يلي: «والطريق من سلوق الى قافز مرحلة، وقافز قصر في وسط وطاء برنيق (سهل برنيق) ، وفي شرقيها غابة متصلة الى البحر، وبينها وبين البحر ٤ أميال، وبمقربة من قافز في جهة الشرق بحيرة مع طول البحر يحجزها تلّ رمل ، وماؤها عذب ، وطولها ١٦ ميلاً ، وتبلغ سعتها نحواً من نصف ميل. ومن منتصف هذه البحيرة تبتدىء الغابة».

ويلقي نص الادريسي هذا كثيراً من الضوء على موضوع هذا النهر الذي حيَّر الباحثـــين فذهبوا فيه المذاهب التي أوجزنا فيما تقدم ، ذلك أن قصر قافيز الذي يتحدث الادريسي عنه لا يزال مكانه موجـوداً ومعروفاً حتى يومنا هذا بـ « سيرة قافيز[١١]»ويحدد موضعه بانه في منتصف الطريق تقريباً بين قرية القوارشة والهواري أو حوش زواوه كما يسمى في بعض الاحيان. والبحيرة التي يتحدث عنها يمكننا التعرف عليها في « دفع وادي القطـارة » ومجراه حين فيضانه فيما بين الهواري وقريونس (تاجونس عند ياقوت الحموي وغيره) ، وطوله الذي حدده بستة عشر ميـلا لا يبعد أن يكون هو نفس الطول ، أما عرضه فان طمي الفيضان الذي كوَّن أرض «الرحبة» الطينيـة



منطقة دلتا وادي القطارة

قد غيّر منه كثيراً خلال القرون الثمانية التي تفصلنا عن عصر هذا الجغرافي . وحتى تلك الغابة التي يتحدث عنها يمكننا التعرف عليها بما بقي منها من شجيرات تعرف اليوم بسدر الكيخيا نسبة الى الأسرة مالكة الأرض .

وهذا يعني أن النهر المقصود هو وادي القطارة الذي يبدأ جريانه من أحد أحواض الجبل الاخضر الكبرى (يقع الحوض فيما بين الرجمة ـ الأبيار عند أول ارتفاعة لجبل العبيد) وتجري من هذا الحوض أودية بو نوفل، بو عجاز، البريمة ، العوشز ، وغيرها . ومن هذا الحوض يبتديء مجرى وادي القطارة أيضاً باسم وادي « رقبة الناقة » حتى يصل منطقة « سيدي بو قفة » الواقعة على بعد ثمانية كيلو مترات الى شرق الجنوب الشرقي من قرية الرجمة ، ثم يواصل هذا الوادي مجراه باسم وادي القطارة فينحدر من الارتفاعة الجبلية الاولى المعروفة محلياً بـ «الظاهر» ويخترق السهل في التواءات ، وبمجرى عميق نسبياً حتى ينتهي عند الدفع على بعد ١٢ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي من مدينة بنغازي . وقد أوجد هذا الوادي بفيضاناته السنوية (تقريباً) في القديم والحديث داله المكون من تلك المنطقة المعروفة محلياً باسم « الرحبة » والتي تتكون في عصرنا الحالي من طبقة طينية يبلغ سمكها في بعض الاماكن منها السبعة امتار . أما مصبه في الوقت الحاضر ، وبعد أن مدت سكة حديد بنغازي ـ القوارشة ـ سلوق (في العقد الثاني من القرن العشرين) فقد تحول بعض الشيء لينصب في البحر عند ضاحية الكيش ، أما قبل ذلك وكذلك في السنوات التي تزداد فيها قوة فيضانه حتى يتحطم الحاجز الترابي الذي مدت السكة فوقه ، فانه يتخذ طريقه الى البحر فيما بين آخر الطريق الدائري (طابلينو) وقرية قاريونس[١٢] .

وخلاصة القول في مجرى نهر ليثون ، وفي طبيعة هذا المجرى ، أن هناك ثلاثة آراء تدور حوله :

الأول : أنه نهر جوفي (تفسير ميثولوجي) وقد حدده بأنه الجخ الكبير .

الثاني : أنه نهر دائم الجريان فوق السطح (تمسك بالمدلول اللفظي للتسمية) وقد حدده بأنه في شمال شرق بنغازي .

الثالث : أنه واد تفيض مياهه في بعض الفترات (تساهل في الأخذ بالمدلول اللفظي للتسمية وميل الىاعتباره مجرىً مائياً وحسب) وقد حدده بأنه في جنوب غرب بنغازي .

ولكل من هذه الآراء قوته التاريخية التي لا يسهل رده معها في سهولة ، وان كنت شخصياً أميل الى الأخذ بمثالها لقوة ولوضوح نص الادريسي حوله، مع قرب هذا الجغرافي منا زمناً (ولكونه فيما كتب شاهد عيان) .

٧ – تحديد موقع حدائق الهسبيريدس :

وما قيل عن نهر ليثون من الناحية الميثولوجية يقال أيضاً عن حدائق الهسبيريدس ، فان هذه الحدائق المقدسة من آلهة الأوليمب قد وضعت في مبدإ الأمر عند أقصى الغرب ثم جيء بها أسطورياً الى آخر منطقة بلغها مدّ اليونان الاستيطاني في شمال افريقيا ؛ ويبدو أنها كانت أول ما قرب من المواضع الجغرافية للأساطير الميثولوجية في هذه البلاد، ذلك أنه منذ عهد هيرودوت ، كانت آخر مدينة لهم في الغرب من برقة قد حملت اسم « يوهسبيريدس » ، ومن الطبيعي أن تجتذب المدينة بهذا الاسم الميثولوجي تلك الاسطورة، وأن يعيّن سكانها أو سواهم لهذه الحدائق الأسطورية مكاناً ما حولها أو بالقرب منها حتى توجد تلك العلاقة المادية بين الاسم والاسطورة الدائرة حوله .

وهكذا نجد معظم المؤرخين من بعد هيرودوت قد عيّنوا موضعها بأنه على مقربة شديدة من هـذه المدينة ، وجاء المؤرخون والجغرافيون في العصر الحديث ليعينوا مكانها « بهواء حمزة » أو « سواني عصمان » أو بغيرهما من « الهويا » الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من مدينة بنغازي ، وكان دليلهم ومرشدهم الأول في تعيينها ما أثبته شيلاس الكارياندي من وصف لهـا في « البريبلوس » المنسوب إليه ، فقد قال هذا المصدر عنها : « ... هنا حدائق الهسبيريدس ، وهي حفرة عميقة يبلغ عمقها ثمـاني عشرة أورجه Orgie (١٠٨ أقدام) ، مستديرة الشكل ، وعرة الانحدار ، لا مدخل لها ، لا يقل عرضها ولا طولها عن ٢ ستاد Stadi (٣٥٥ مـتراً) تظلله الأشجار المتشابكة فيما بينها في كثافة ، وهذه الأشجار هي : اللوتس ، والتفاح من كل نوع ، والرمان ، والإجاص ، والعنب ، واللوز ، والمشمش ، والزيتون ، و .... الخ » .

وفي الصعوبة Fatica الحادية عشرة من صعوبات البطل اليوناني الميثولوجي « هراكليوس Ercole » الاثنتي عشرة نجد رواية تقول ان أطلس ، خوفـاً منه على التفاح الذهبي أقام حول بستان هيرا Hera سوراً متيناً ، حينما حذّر ، ليحول دون دخول أحد أبناء زيوس إليه . ولا بد أن واضع الاسطورة قد شاهد هواء حمزة ، أو هواء عصمان ، أو غيرهما أو أنه على الأقل أحاط به وصفاً حتى ينسب إلى أطلس الذي يسند الفلك بكتفيه بناء السور الحائط الذي هو في الواقع ليس غير كهف كارسياكي تهاوى سقفه فبـدا فجوة في الأرض ، وكأنها قد صنعت خصيصاً لتحمي جدرانها ما بداخلها من الثمار .

ويصعب تحديد أي الهويا كان المعتبر حديقة الهسبيريدس ، غير أن أكبر الظن أنه هواء حمزة من بينها ، ولكن يصعب الجزم بهذا لانعدام النصوص المعينة على التحديد بهذه الدقة المتناهية .

٨ – الخاتمة :

والآن ، وقد استعرضنا في عجالة وبايجاز نسبي ، ما أورده بعض القدماء من مؤرخين وجغرافيين وأدباء من نصوص حول موقع مدينة يوهسبيريدس – برنيق – بنغازي ، وحول بحيرة تريتونيس ، ونهر ليثون ، وحديقة الهسبيريدس ، وما ارتآه بعض العلماء المعاصرين والرواد في تحديد هذه المناطق ، لم يبق أمامنا غير كلمة عابرة نقدمها كخاتمة لهذا الفصل حول نشأة الخطأ لدى الباحثين الأثريين والجغرافيين في تحديدهم لموقع مدينة يوهسبيريدس ، واكتشاف موقعها الأكيد بعد الحرب العالمية الثانية بعامل الصدفة وحده .

لقد أغفلت النصوص التاريخية القديمة التي وصلت إلينا الإشارة إلى أن مدينة برنيس البطلمية قد قامت في غير المكان الذي وجدت به مدينة يوهسبيريدس ويبدو أن قيام مدينة برنيس على مقربة منها كان على حساب أنقاضها ، وأن طول العهد ، وقيام مدينة بنغازي الحديثة فوق برنيس ، كانت جميعها عوامل أدت إلى اندثار آثار المدينة الأولى واختفائها مما أوقع المعاصرين جميعهم في خطإ الاعتقاد بأن المدينة الثانية قد قامت على أنقاض وفي نفس مكان المدينة الاولى ، كما قامت المدينة الثالثة على أنقاض ، وفي نفس مكان المدينة الثانية . واستمر هذا الاعتقاد سائداً حتى كشف صدفة سنة ١٩٥١ تم بواسطة التصوير من الجو عن موقع مدينة يوهسبيريدس على بعد حوالي كيلو متر واحد من مكان برنيس عند مقبرة سيدي عبيد ، وعلى مرتفع الأرض الواقع بين المستنقعين (عين السلماني – وسيدي يونس) . فتم بهذا الكشف الجديد تحديد مواقع هذه المدينة في تسمياتها الثلاث أو هذه المدن الثلاث التي خلفت إحداها الأخرى في نفس المنطقة تحديداً دقيقاً لا يدع أي مجال للشك ولا يستدعي منا مزيداً من البحث والدراسة للموضوع .

الفصل الثاني

الهوامش والتعليقات

١ — لا يمكننا الجزم بأن اليونان قد خلطوا بين النهر والوادي والسيل في التسمية الجغرافية ، غير أننا لا نجد مفراً هنا من افتراض ذلك لمعرفة موقع المدينة .

٢ — وقد كشفت الحفريات الأثرية عن هذه الحقيقة الجغرافية التاريخية بعد الحرب العالمية الثانية كما سيأتي فيما بعد ، ثم عند الكلام عن الآثار .

٣ — سنعود إلى موضوع هذا الوادي عند الحديث عن نهر ليثون في هذا الفصل .

٤ — وهذا غير بطلميوس السابع الذي سبقت الإشارة اليه في الفصل الأول .

٥ — Stadiasmus del Gran Mari .

٦ — ويراه البعض في الرأس الممتد ما بين هوتيل البرنيتشي وآخر شارع « اميل سان لو » حيث يبدأ جسر جليانه .

٧ — راجع هامش ٢٦ من الفصل الاول .

٨ — هيرودوت ، تاريخه الرابع ، فقرة ١٧٧

٩ – والجخ هو التجويف في اللهجة الشعبية ومنه جخجوخ الصدر أي تجويفه والكبير صفة له ولا يوجد آخر أصغر منه في المنطقة فيما نعلم على الأقل.

١٠– نشر أحدهم وهو يوناني من أبنــاء بنغازي ولادة وإقــامة يدعى جينوفراكس Genovrakis قبيل الحرب العالمية الثانية ببضع سنوات بحثاً باسم « الليتي نابع من النيل Il Lete E Fluente dal Nilo » وقــد حاولت الحصول عليه فتعذر علي ذلك وما علق بذاكرتي منه لا يكفي لشرح وجهة نظره في الموضوع فاكتفيت بالإشارة اليها مع التنبيه .

١١– السيرة بكسر السين في اللهجــة الشعبية تعني الأكمة أو المرتفع الترابي الصغير من الأرض .

١٢– هناك احتمال يقوم على تسمية الوادي حديثاً بالقطارة لم نورده هنا لضعفه تاريخياً ولقيــامه على مجرد استنتاجات قامت أصلاً على مدلول كلمة « قطارة » ومعناها النبع الذي قل ماؤه فانساب في نقط من المــاء ، فهو يرى أن النبع كان قديماً غزير المياه في تدفقه مما كوّن مجرى النهر ، ثم شحّ أو قلّ حتى أصبح يتساقط من الجانب في نقط ولذلك سمي الوادي بالقطارة . ومع أن هذه الظاهرة تتكرر حديثاً في بعض ينابيع الجبل الاخضر إلا أننــا نكتفي بالاشارة الى هذا الرأي هنا ودون أن نقول به .

الفصل الثالث

المدينة وعالم الميثولوجيا

- مدخل .
- هذه الاساطير .
- هدية الارض إلى هيرا .
- الهسبيريدات .
- حديقة الهسبيريدس .
- هراكليوس والتفاح الذهبي .
- هيرودت وبحيرة تريتونيس .
- نهر ليثون .
- غدائر برنيق .
- الخلاصة .
- الهوامش والتعليقات .

الفصل الثالث

المدينة وعالم الميثولوجيا

١ – مدخل :

في مقدمة الفصل الرابع من كتابي « ليبيا ، هذا الإسم في جذوره التاريخية » ، تعرضت لفكرة تأليه الوطن عند الإغريق فقلت : « ... غير أن فكرة تأليه الوطن بوضع الأساطير التي تربطه كشخصية مقدسة ميثولوجية بعالم الآلهة ، نجدها عند الاغريق بالذات ، عادة واسعة الانتشار بينهم ، حتى لتكاد تكون ركيزة تاريخهم ، في عصورهم الذهبية ؛ فلكل مدينة مهمة ، عرفوها فسكنوها ، صنعوا إلهاً ، أو نحتوا تمثالاً ، أو ابتكروا اسطورة ، ضمنوها آدابهم فيما تغنى به فحول شعرائهم ... » . ولا أجد اليوم خيراً من هذه العبارات نفسها لتبرير نشأة أساطير :

بستان هيرا والهسبيريدات .

بحيرة تريتونيس .

نهر ليثون .

وهذه هي الأساطير الثلاث التي تدور حول مدينة يوهسبيريدس اليونانية

التي خصصنا هذا الفصل الثالث من دراستنا لمناقشة موضوعها ومحاولة فهمها عن طريق تحليلها .

والخيال اليوناني في هذا الميدان خصب خلاق ، يجد الباحث نفسه فيه إذا ما اقترب ببحثه منه ، تائهاً وسط عالم ملتصق بالآلهة ، متشابك في صلاته ، متداخل في أحداثه ، متلاحم في تداخل شخصياته الاسطورية العديدة حتى لا يعلم من حيث يجب أن يبدأ ولا يدري إلى أين سينتهي ؛ ولا غرو ، فالميثولوجيا اليونانية ـ الرومانية حصاد قرون من الفكر والخيال والفن والأدب والتاريخ اليوناني ، داعبته أقلام وقرائح شوامخ العقل اليوناني وأزاميل أطواد فناني النحت الذين ابتكروا من الخيال عالماً غريباً ، وأحالوا الصخر الجلمود آيات فنية رائعة تسحر العين ، ويأخذ جمالها بالألباب .

٢ ــ هذه الاساطير :

واذا كانت الأساطير اليونانية حول الهسبيريدات ، وبحيرة تريتونيس ، ونهر ليثون ، وغيرها من الأساطير المتعلقة بليبيا كقارة قد نشأت في بلاد اليونان وحامت حول الغرب البعيد ، فإن الأمل اليوناني في التوسع الإستيطاني في ليبيا (القارة) بأجمعها وحتى مضيق هراكليوس (جبل طارق) قد خاب بفشلهم المتكرر في الامتداد بشراذمهم إلى ما وراء خليج سدرة أو سرت ، ومنيت محاولتهم في الاستقرار عند نهر شينبوس Cinipe (وادي كعام) بالفشل الذريع ، حينما طردهم من المنطقة الليبيون والقرطاجنيون منها فانكمش حينئذ ذلك الحلم التوسعي كثيراً ، ولم يعد يجاوز خليج سرت. واذ ذاك نقلوا أساطيرهم الدائرة حول المغرب البعيد إلى آخر المغرب الذي استوطنوه من القارة[١] ، وأصبحت حديقة الهسبيريدس ونهر ليثون وبحيرة تريتونيس في

نظر الجغرافيين والمؤرخين والميثولوجيين تستقر عند آخر المدن اليونانيــة في غرب ليبيا : « يوهسبيريدس » الواقعة عند مصب نهر ليثون (وادي القطارة) على ضفاف بحيرة تريتونيس « سبخة السلماني » ووجدت في (هــواء حمزة) حديقــة الهسبيريدس مستقراً أخيراً لها وسط ذلــك التجويف الكارسياكي المعروف محلياً بالهواء (مفرد الهويا) .

وكان للقورينيين من الإغريق دورهم المباشر في نقــل هذه الأساطير من المغرب الأقصى (شواطىء المحيــط الأطلسي) إلى مدينـــة أقصى الغرب يوهسبيريدس ، ولا غرو ، فالنفوذ القوريني الثقافي في الحضارة الهلينية ، قد امتد في مدرسة قورينة وغيرها إلى حين نشأة المدرسة الهلينستية في مصر ، وتحوّل القيادة الثقافية إلى الإسكندرية ، فيما بعد (القرن الثالث قبل الميلاد)[٢].

٣ ـ هدية الأرض الى هيرا :

وأول هذه الأساطير الثلاث تدور حول زواج زيوس Zeus من هيرا Hera، ومقدار احتفاء الآلهة بهذا الزواج ، ومباركتهــا له ، وتقديمها الهــدايا لها بمناسبة هذا الزواج[٣]. وتذكر الأسطورة فيما يتعلق بموضوعنا أن هديــة الأرض الأم جيا Jea لهيرا، كانت شجرة التفاح الذهبية التي غرستها هيرا في بستانها الواقع على الشواطىء الغربية من المحيط[٤]، وحرصاً من هيرا على هذه الشجرة ، أقامت على حراسة ثمارهــا عدداً من الحسان [٥]، عرفن في عــالم الميثولوجيا والتاريخ باسم الهسبيريدات، وبهن اشتهر هذا البستان الأسطوري، فأصبح يعرف هو أيضاً ببستان أو حديقة الهسبيريدس .

وكما سبق أن أشرنا في الفقرة الرابعة من الفصل الأول من هــذه الدراسة فان لفظة « هسبيرا Hespera » إنمــا تعني في اللغة اليونانية « المساء » أو

« الليل » ، ويتضح هذا في عالم الميثولوجيا من اسطورة « إيوس Eos » في رحلتها الصباحية مصاحبة للشمس تعلن شروقها وغروبها [٦] .

٤ – الهسبيريدات :

وهسبيرا (نجمة الغروب) مقدسة لدى إلهة الحب فينوس Venus أو افروديت Aphrodite ، وقربان هذه المعبودة كان عند كاهنات معبدها هي ثمرات شجرة التفاح يشطرنها عرضاً نصفين وهن يشدون بأغاني الحب الشجية[٧].

ولهذه الثمرة صلة بالنجم فهي لو قسمت من عرضها كما تقول الاسطورة (وليس من قطبيها) لوجدت بزراتها مكونة شكل نجمة خماسية الأطراف ، وحتى الشمس في خيال الاسطوريين تبدو عند الغسق كما لو كانت تفاحة كبيرة وهي تتوارى خلف أمواج المحيط الغربية[٨]. وقد وجد الخيال اليوناني صلة أخرى بين شجرة التفاح هذه وبين الشمس والغروب : فإن ميل السماء الى الشحوب (الاخضرار) وانتشار الشفق الأحمر والأصفر ساعة الغسق قد شبه بشجرة التفاح وقد بدت خضرة أوراقها محملة بالثمار الناضجة ما بين الصفراء والحمراء[٩].

ولمنظر الأفق ساعة الغروب في مدينة بنغازي منظر طبيعي ساحر خلاب أشار اليه الحشائشي في كتابه : « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » فقال: « ... وموقع المرسى في الناحية الغربية من البلد ، والبحر يحفّ بالبلد من الجهة الغربية والجوفية ، بحيث أن الشمس اذا غربت تسقط بالبحر ؛ ولها منظر عجيب عند غروبها فيه لم أشاهده من قبل ، وإن شاهدته أثناء سفري لأوربا » . كما تغنى به شاعر الوطن الكبير رفيق في أكثر من قصيدة، ولكنه أبدع في قصيدته « جليانة » حينما وصف هذا المنظر بقوله :

« لضياء الشمس حين الشفق
« عكس ألوان حبال الافق
« أحمر في أصفر في أزرق
« جمعت في صفحة الجو الثقيل
« خلف وشي من بياض الهيدب
« ولقرص الشمس مالت تتوارى
« جذوة تشعل فوق الماء نارا
« تركت لوناً يحاكي الجلنـــارا
« أو حياء البكر في خد أسيل
« ألهبته قبـــلة في لعب» .

وهذا المنظر المتكرر مع الأيام ، وعبر الزمان ، منذ عهد بل وقبل عهد الإغريق، هو ما حمل اليونان ولا شك منذ آلاف السنين على نقل الاسطورة أو في عبارة أصح الأساطير من ذلك المكان اللامحدود للمغرب الميثولوجي، الى حيث توجد مدينة يوهسبيريدس الواقعة في نظرهم أقصى الغرب ، والمطلة على البحر الليبي الذي استبدلوا به البحر المحيط كما سبقت الإشارة .

وهذه الألوان الثلاثة ذات صلة بأسماء الغيد الثلاث اللائي اشتهرن باسم الهسبيريدات الثلاث وهي : هسبيرا Hespera، وايجل Aegle ، وتعني النور الساطع (الاصفرار) واريثيا Erithea ، وتعني التربة الحمراء (الاحمرار)[١٠].

وهاته الهسبيريدات الثلاث إنما يرمزن في مفاهيم الميثولوجيا اليونانية إلى أوجه القمر الثلاثة في مظهرها الأسطوري كملكة للموت ، وسيدة لعـالم ما بعد الحياة[١١].

وللتفاحات الذهبية في الميثولوجيا اليونانية معنى رمزي خاص : فهن لسن

غير جواز العبور إلى النعيم في عالم الموت وما بعد الحياة[١٢].

وحول نسب هاته الهسبيريدات أكثر من رواية في الميثولوجيا اليونانية : فهن بنات الليل واريبوس[١٣]في واحـــدة ، وهذا توليد فلسفي[١٤]، وهن بنات أطلس[١٥]من هسبيرا بنت هسبيروس[١٦]في ثانيــة ، وهن بنات شيتوس وفوركوس[١٧]في ثالثة .

ويبدو من مجموعة الأساطير اليونانيـــة أنهن معبودات أو معبودة ثلاثية المظهر وطنية ، عرفها الإغريق عن الليبيين فاحتفظوا بها وصاغوا لها أساطير من عندهم ، كما احتفظوا بالإله الليبي بوسيدون[١٨] وغـــيره ، وإن كان من الصعب الجزم في هذا الموضوع برأي قاطع لا يرقى إليه الشك[١٩].

٥ – حديقة الهسبيريدس :

ويقع بستان هيرا أو حديقة الهسبيريدس الميثولوجية عنـــد سفوح جبل أطلس الغربية حيث تنهي خيول عربة هسبيرا رحلتها اليومية ، وقد تقطعت أنفاسها من الركض من شرق الفلك إلى غربه ، وحيث قطعان ماشية أطلس ترعى وسط الحقول الزاهرة التي لم يشهدها أحد ، ولا يمكنه تصور حسنها .

وفي هذا البستان غرست هيرا شجرة التفاح الذهبية التي أهدتها إليها أمها الأرض « جيا » بمناسبة زواجها من « زيوس » كما تقدم ، ولإعجابها الشديد بثمار هذه الشجرة ، وحرصها عليهـــا أقامت على حراستها الغيد اللائي عرفن بالهسبيريدات[٢٠].

وتقول الأسطورة إن هيرا اكتشفت ذات يوم أن الغيد كن يختلسن من ثمار هذه الشجرة التي أقامتهن حارسات عليها ، فأمرت حينئذ الثعبان لادون Ladon[٢١]الذي لا يغفل أبـــداً ، بأن يلتفّ على ساق الشجرة فيتولى

حراستها وثمارها ، وبأن يمنع حتى الهسبيريدات أنفسهن من الإقتراب من ثمارها .

ويقال إن أطلس ، وبالرغم من أن هيرا كانت هي المالكة الحقيقية للبستان ، إلا أنه بصفته بستانياً ممتازاً ، كان يفخر في زهو بهذه الشجرة وثمارها، حتى أنه لما حذّرته الإلهة تيمي Temi (إلهة الأشهر والفصول)[٢٢] بقولها له : « يوماً ما ياتيتانوس[٢٣] ستتعرى شجرتك هذه من تفاحها الذهبي ، بيد أحد أبناء زيوس » . هلع (ولم يكن قد عوقب بعد بحمل الفلك السماوي على عاتقه[٢٤]. فسارع هذا العملاق إلى إحاطة الحديقة بأسوار عالية متينة[٢٥]. وأخذ يبعد جميع من يقترب منها من الغرباء ، وربما كان أطلس هذا هو الذي وضع أو كلف الثعبان لادون بحراسة الثمار حتى لا يستولي عليها هذا المجهول الذي حذرته تيمي منه[٢٦].

٦ — هركليوس والتفاح الذهبي :

وهركليوس Hercolus هو بطل اليونان الأسطوري ، وقد عوقب من الآلهة بأن كلّف بالتغلب على اثنتي عشرة صعوبة Fatica لما قتل أولاده في ساعة جنون ، ولا تهمنا هنا الصعوبات العشر التي تخطاها ، ولا الصعوبة الثانية عشرة كذلك لأنها لا تتعلق بموضوعنا هنا، إذ ان ما يهمنا هو الصعوبة الحادية عشرة وحدها ، فهي المتعلقة بالتفاحات الذهبية التي ترعاها الهسبيريدات ، ويحرسها الثعبان اليقظ أبداً لادون[٢٧] وهذه هي الأسطورة في احدى رواياتها المتعددة :

لم يكن هركليوس يعلم أين يقع بستان هيرا الذي طلب إليه إحضار التفاحات منه فقصد نهر بو Po موطن إله النبوءات المسمى نيريوس Nereos

ليعلم منه موقع هذا البستان ، فلما بلغه بعد مغامرة بطولية ، اقتادته غيد النهر إلى عند الإله نيريوس النائم ، فشدد هركليوس قبضته على إله Ninfe النهر هذا بحيث لم يتمكن من الافلات منها رغم محاولات التقمص التي تطور بشكله إليها حتى اضطر في النهاية الى إرشاده الى مكان البستان المقدس وحذّره من أن يقتطف بيده الثار المطلوبة ونصحه بأن يستخدم التيتانوس أطلس في ذلك[٢٨].

ولما انتهى هركليوس إلى حديقة الهسبيريدس توجه إلى أطلس يسأله أن يقدم له هذا الجميل . ولما كان أطلس مستعداً لأن يعمل أي شيء إذا خفّف عنه ولو لبعض الوقت ذلك الحمل الثقيل الذي ينوء به فقد رحّب أن يفعل ذلك غير أنه كان يخاف الثعبان لادون الملتف على ساق الشجرة ، فرماه هركليوس بسهمه المقدس[٢٩]من خلف الأسوار فقتله ثم تقدم إلى أطلس فحمل عنه الفلك السماوي ، وذهب أطلس فجاءه بالتفاحات الذهبية الثلاث التي اختطفتها له بناته الهسبيريدات[٣٠].

واستمرأ التيتانوس أطلس حريته تلك فعرض على هركليوس بأن يقوم هو بدلاً منه بتقديم هذه التفاحات إلى يوريستيوس واعداً إياه بعدم إطالة تأخره عنه لأكثر من ثلاثة أو أربعة أشهر يعود بعدها لحمل الفلك كالمعتاد . وتظاهر هركليوس بالقبول ، ورجا أطلس أن يساعده للحظة في رفع الفلك السماوي على كتفيه حتى يعدّل هو من وقفته ، فخدع أطلس وحمل الفلك عنه ، وحينئذ انحنى هركليوس على التفاحات الذهبيات التي كان أطلس قد وضعها على الأرض فاستولى عليها وغادره وهو يبتسم له هازئاً منه ساخراً به .

وكان هركليوس أثناء سفره في الصحراء قد أنهكه التعب ، وأمضّه العطش ، فرفس برجله الأرض فانفجرت المياه وتدفقت مكوّنة نهر « ليثون »

الذي أنقذت مياهه فيما بعد حياة بحارة السفينة أرجوس Argo حينما قذفت بهم العاصفة إلى بحيرة تريتونيس على ما سيأتي . وقد قام هركليوس ببطولات أخرى قبل أن يعود بما استولى عليه[٣١].

٧ - هيرودوت وابولونيوس وبحيرة تريتونيس :

وبحيرة أو مستنقع تريتونيس Tritonis هذه بحيرة أسطورية ميثولوجية اختلف الجغرافيون من الإغريق أنفسهم في تعيين مكانها من شمال افريقيـــا فوضعها هيرودوت بالقرب من خليج قابس[٣٢]، ووضعها غيره في نهـــاية الغرب عنـــد شواطيء المحيط الأطلسي[٣٣]ووضعها أغلب جغرافييهم ، ومؤرخوهم على مقربة شديدة من مدينة يوهسبيريدس ثم برنيس حيث وضع أيضاً بستان أو حديقة الهسبيريدس ، وحيث يجري على مقربة منها نهرليثون وقد تقدم في الفصل الثاني من هذه الدراسة بحث أقوال هؤلاء عند الحديث عن التحديد الجغرافي للمدينة ، ونكتفي هنـــا بالحديث الاسطوري الدائر حولها تمشياً مع التنسيق الموضوعي الذي ارتضيناه لهذا الكتاب .

وقد أورد هيرودوت في تاريخه الفقرتين ١٧٨ و ١٧٩ من الكتاب الرابع كما أورد أبولونيوس الشاعر في ملحمته الشعرية: الأرجوتيون (النشيد الرابع) حول مغامرة البطـــل الاسطوري جاسوني وصحبه في بحيرة تريتونيس مع اختلاف في الحوادث في سياقها وفي تفصيلات المغامرة ، وليس من غايتنـــا هنا تقديم المغامرة في الروايتين لاجراء مقارنة بينهما فغايتنا منهما دراستهما معاً لمعرفة ما يتعلق بموضوعنا بالذات ، مع إحـــالة الراغب في الاستزادة على النص في المصدرين المذكورين :

يتفق المصدران معاً في أن إعصاراً بحرياً قد قذف برياحه العاتية بالسفينة

أرجوس على شواطيء ليبيا بينما كان جاسوني وصحبه عائدين إلى موطنهم وينتهيان بهم إلى بحيرة تريتونيس وان كان ابولونيوس يزيد في روايته عن هيرودوت أن ثلاث معبودات ليبيات قد ظهرن لجاسوني في ساعة يأس وقنوط وخاطبنه بما يلي : « لماذا يفقد الشجاع إقدامه عند اليأس ؟ نحن نعلم باستيلائكم على الفراء الذهبي، والمتاعب والصعوبات التي انتصرتم عليها في البر والبحر ، فنحن معبودات الصحراء الحقيقيات ، وحارسات ليبيا ، وبناتها المخلصات . قم وتغلب على تخاذلك وناد رفاقك ، وبمجرد أن تفك أنفتريت Anfitrite[٣٤] الجياد عن عربة تلك الأعاصير[٣٥] تفقدوا أمكم المجدة (أي السفينة أرجوس المقدسة) التي احتضنتكم طويلاً في جوفها ، وجروها إلى المياه المباركة عبر الرمال». وهذه الفقرة من الأسطورة لا يشير اليها هيرودوت لأنه يضع السفينة في بحيرة تريتونيس مباشرة مما يجعلنا نحتمل أن هذه الفقرة كانت زيادة بعده في الأسطورة ويميل بعض الباحثين حديثاً إلى اعتبار هذه المعبودات لسن إلا المظهر الثلاثي للمعبودة ليبيا الرامزة إلى القمر ، ونرى نحن تاريخياً أن هناك مبررات سياسية أو اجتماعية حتمت اقحام المعبودة أو المعبودات الليبية في هذه الأسطورة لايجاد ربط عقائدي بين معتقدات الشعبين وهناك غيرها حالات مماثلة كثيرة يمكن تفسير جميعها بالمبرر ذاته في الميثولوجيا اليونانية .

ونجد عند ابولونيوس زيادة ثانية على ما أورده هيرودوت تربط بين بحيرة تريتونيس والبستان المقدس أو حديقة الهسبيريدس والثعبان لادون[٣٦] وهركليوس ومغامرة جاسوني ورفاقه الأرجوتيين فهو يروي أن هؤلاء بلغوا بسفينتهم التي كانوا يسحبونها عبر الرمال منذ أيام مياه البحيرة المباركة وأنهم تفرقوا يبحثون عن نبع ماء يروي ظمأهم الشديد ولكنهم اهتدوا إلى البستان

ووجدوا الهسبيريدات يندبن الثعبان المقتول لتوه والذي لم تفارق الحياة ذيله بعد، ويشدون شعورهن البيضاء بأذرعهن الناصعة البياض، وبأنهم لما بلغوا نبع الماء الذي تفجر من رفسة هركليوس شاهدوه متجهاً شرقاً عند آخر الأفق فلم يتصلوا به(٣٧).وهذه الإضافة الثانية ذات علاقة مباشرة بتجميع الأساطير الثلاث في مكان واحد بعد فقدان الأمل في التوسع نحو الغرب وهو ما لم تكن قد بلغته فكرة التوسع في عهد هيرودوت بعد .

ويختلف هيرودوت عن ابولونيوس في تقديم القربان إلى المعبود تريتون إله البحيرة التي حملت اسمه، فبينما نجد هيرودوت يجعل تريتون يطلبها آمراً جاسوني والأرجوتيين بتقديمها له نجد ابولونيوس يجعل تقديمها يتم بناء على اقتراح أرفيوس Orfeo (أحدهم) بتقديمها قرباناً لآلهة البحيرة المحليين ويتفقان بعد ذلك في التفاصيل الأخرى حتى خروجهم سالمين من البحيرة واتجاههم نحو بلاد الإغريق . ونجد نحن في هذا الإختلاف عوامل سياسية واجتماعية وثقافية أوجدها الزمن بين عصر الروايتين، ففي عصر المؤرخ هيرودوت كان اليونانيون لا يزالون ينفرون من فكرة التقرب لمعبودات الليبيين الأجنبية ، لذلك نراه يجعل تقديمها تنفيذاً لأمر تريتون المتسلط في عجرفة وصلف أما في عصر الشاعر (ولد سنة ٢٢٠ قبل الميلاد) فإن الأمر قد اختلف وأصبح آلهة الليبيين على صلة شديدة بعالم آلهة الأوليمب ، بل انهم تحولوا إلى آباء وأبناء وأحفاد زيوس اليوناني ولم تعد فكرة التقرب منهم بتقديم القرابين إليهم بالفكرة التي ينفر منها اليوناني الذي خالط الليبيين واحتك بهم وارتبطت مصالحه بأوطانهم ولذلك قدمت من غير أن تطلب بالأمر عند هذا الشاعر المتأخر زمناً عن هيرودوت.وليس هذا فقط بل إن هيرودوت يجعل تريتون يستولي على الآنية القربان وحسب أما ابولونيوس فيجعله يبادلهم الهدية بحفنة من

التراب مع الاعتذار عن ذلك بانه ليس لديه غيرها يستطيع تقديمه . وفي هذا نلمح انعكاساً لما عليه العلاقة بين الشعبين في كل من العصرين فهي في عصرها الأول جافة صارمة لا تفاهم ودي فيها بينما هي في عصرها الثاني رقيقة متسامحة تأخذ وتعطي في وداعة واحترام[٣٨].

والاسطورة بعد هذا إنما تصل بين البحيرة والإله تريتون الذي هو ابن الإله بوسيدون ، الذي يقول عنه هيرودوت صراحة بأنه ليبي الأصل ، وبين الأرجوتيين أبطال اليونان الأسطوريين في مغامراتهم المقدسة في عالم يختلط فيه الآلهة الوثنيين بالناس وينقصهم التقديس والإجلال .

٨ – نهر ليثون :

إن علاقة الغرب بالموت كجهةعلاقة يبدو أنها وطيدة في الأساطير المصرية الدائرة حول أزوريس وفي الأساطير اليونانية الدائرة حول هسبيرا والهسبيريدات والتفاح الذهبي ونهر ليثون ، وربما ذلك لأن الشمس تغيب في هذه الجهة فينتشر بغيابها الظلام والوحشة والخوف ، والنوم ذاته بصفته فقداناً للشعور الواعي ليس إلا مظهراً من مظاهر الموت مخففاً وقد جعل هزيود Asiodo النوم والموت إلهين للظلمة والليل .

ونهر ليثون الذي يضعه اليونانيون بالقرب من مدينة يوهسبيريدس ليصب في بحيرة تريتونيس عند البعض وبالقرب منها عند البعض الآخر ، هو ذلك النهر الذي ينبع اسطورياً من الجحيم ، ويصاب من يشرب من مياهه بالنسيان أو التبلد الذهني ، وقد جعلوه مجمع الأرواح تجد فيه السلوى وتنسى علاقاتها بالأهل والاصدقاء الذين عاشت بينهم حياتها الدنيوية .

ونهر ليثون Lethon (في اليونانية Λήθων) أو كما في اللهجة الدورية

(وهي لهجة القورينيين أيضاً) لاثون Lathon (في اليونانية Λάθων)
لم يتخذ هو الآخر مكانه على مقربة من مدينة يوهسبيريدس إلا بعد زمن
شيلاس الكاريانذي (القرن الثالث قبل الميلاد)، ذلك أننا نجده يسمي النهر
الذي يتخذ مجراه بالقرب من المدينة ليصب في مينائها باسم أكيوس Ekkeios، ويعتقد
علماء الجغرافيا القديمة أن شيلاس قد استخدم التسمية الليبية لهذا المجرى المائي،
ولكن الباحث الإيطالي بوناتشيلي يخالف هذا الرأي، ويرى أن للاسم صلة
بالفعل اليوناني ايجكيو Ejcheo (في اليونانية Ἐγχέω) الذي يعطينا فكرة
عن « امتلاء ذي حجم » ويرى أن لهذا المعنى صلة بمعاني تدفق أو جريان
النبع أو فيضان النهر، أو ما يقرب من هذا المعنى .

أما تسمية المجرى بنهر ليثون، فقد جاءت بعده عند الكثيرين من مؤرخي
وجغرافيي اليونان القدماء . ويرى بوناتشيلي نفسه استناداً إلى بعض قطع
النقود البرونزية الراجعة إلى العهد الجمهوري والخاصة بمدينة يوهسبيريدس أن
الاسم ليثون كان معروفاً ومتداولاً في عصر شيلاس أو على الأقل بعده
بمدة يسيرة .

ويرى بعض الباحثين أن للتسمية « ليثون » علاقة بالأسطورة حوله، إذ
يوجد في اللغة اليونانية القديمة لفظ لايثي Léthe (في اليونانية Λήθη) الذي ينطق
في اللهجة الدورية لاثا Lätha (في اليونانية Λάθα) يدل معناه على الفكرة
الخالصة للنسيان (L'oblio) بل إنه عند البعض خلاصة الأسطورة وجوهرها.

٩ — غدائر برنيق :

وحتى في عصر متأخر، وبعد أن طال باليونانيين المقام فامتد لمئات السنين
تطورت فيه العقلية اليونانية وتدهورت خلاله مكانة يوهسبيريدس، واندثرت

فيه معالمها كمدينة وتغير اسمها إلى مدينة برنيس ، لم يتخل الخيـــال الخصب لليونان عن ايجاد علاقة عليا بين الاسم وعالم الميثولوجيا ، واذا لم يربط فيهذا العهد بين المدينة وعالم الآلهة ، فقد جاء كاليماخوس Callimaco في قصيدته الرائعة « غدائر برنيق » ليمجد مليكته الجميـــلة الصغيرة في حبها المثالي وتضحيتها السامية فيرفع غدائرها إلىحيث تستقر متألقة بين النجوم والافلاك العليا[٣٩].

وفي عصر النهضة ، وفي غرة إحياء التراث اليوناني في أوربا ، تدفع ملكة شابة بطودين من شوامخ الأدب الفرنسي هما كورنيل وراسين فينظم كل منهما مسرحيـــة باسم برنيس لا تزالان تكوّنان درتين من درر الأدب الفرنسي العالمي[٤٠].

١٠ – الخلاصة :

وخلاصة البحث في هذا الموضوع هو أن اليونانيين بعد أن أطلقوا على المدينة اسم يوهسبيريدس وعنوا بهـــا مدينة أقصى الغرب ، عادوا فربطوا بين الإسم واسطورة حديقة الهسبيريدس وما يتعلق بهـــا من بطولات هركليوس ونهر ليثون وبحيرة تريتونيس والإله تريتون ومغامرات جاسوني ورفاقه وعدد آخر من أساطير اليونان المتعلقة بالغرب اللامُعَيَّن . وربمـا كان النصيب الأكبر في التحوير يرجع إلى اغريق برقة وحدهم في البداية رغبة منهم في ربط بلادهم التي استقروا بها بعالم اليونانيين الاسطوري حتى يجدوا في هذا المقر تلك العلاقة الروحية المقدسة التي ينشدها مؤلـّهو الأوطان .

الفصل الثالث

الهوامش والتعليقات

١ – Benedetto Bonacelli :- « L'Africa Nella Concezione Geografica Degli Antichi » - Pag. 53.

٢ – Bonacelli :ـ المصدر السابق ص ٣٩ ، ٥٣ ، ٨٠ ، هامش رقم ١ من صفحة ١٩٠ .

٣ ـ يقول الاستاذ المرحوم عباس محمود العقاد في كتابه : «الله» بحث في نشأة العقيدة الإلهية (ص ١٠٦ من الطبعة الأولى دار المعارف) عن زيوس هذا ما يلي : « ... فكان أرباب الأوليمب في مبدإ الأمر يقترفون أقبح الآثام ، ويستسلمون لأغلظ الشهوات . وقد قتل زيوس أباه (كرونوس) وضاجع ابنته وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار ، ويغازل بنات الرعاة في الخلوات ، وغار من ذرية الإنسان فأضمر له الشر والهلاك ، وضن عليه بسر النار فعاقب المارد (بروثيوس) لأنه قبس للانسان النار من السماء. ولم يتصوروه قط خالقاً للدنيا أو خالقاً للأرباب التي تساكنه في جبل الأوليمب، وتركب معه متن السحاب، فهو على الأكثر والد لبعضها ومنافس لانداده منها ؛ وتعوزه أحياناً رحمة الآباء ، ونبل العداوة بين الأنداد . ولم يزل زيوس إلى عصر (هومير)

حاضعاً للقدر ، مقيداً بأوامره ، عاجزاً عن الفكاك من قضائه ...وعلى رأسهم (أي الآلهة) ، زيوس الملقب بأبي الأرباب ».

٤ – قد يذهب البعض ممن لا صلة لهم بالتاريخ والجغرافيا القديمين مذهباً خاطئاً فيفهم من هذا أن المقصود بالشواطىء الغربية من المحيط (الاطلسي) في هذه الأسطورة هي شواطىء أمريكا ، ولهذا نبادر نحن إلى استبعاد هذه الفكرة كلية عنه بايضاح أن المعنى المقصود هو ذلك العالم الآخر الواقع خلف البحر المحيط باليابسة جميعها والذي لا حد غربياً له إلا خارج عالم الإنسان والحياة، ذلك أن العالم الذي تسوده الظلمة وتغيب فيه الشمس والقمر والنجوم هو عالم الغرب كما سيتضح لنا هذا من اسطورة إيوس التي سنوردها في الهامش بعد التالي لهذا مباشرة .

٥ – لم يتفق علماء الميثولوجيا على عدد الهسبيريدات فمنهم من جعلهن اثنتين ومنهم من قال بأنهن أربع ولكن الأرجح أنهن ثلاث ، ونميل نحن إلى الأخذ بالثلاث لأن عالم الميثولوجيا اليوناني المتعلق بليبيا يدور في مجموعة أساطير من الثلاثيات وهي في مغزاها العددي أوجه القمر التي تبدو بها كسيدة عالم ما بعد الحياة والقمر التي يرمز إليها بليبيا في الميثولوجيا الليبية اليونانية هي مدار هذه الأسطورة بالذات .

٦ – وهذه الأسطورة كما جاءت عند جريفس Robert Graves في كتابه : « الميثولوجيا الاغريقية The Greek Myths (40/ a) هي كما يلي : « مع نهاية كل ليلة تشرق إيوس إحدى بنات « هيبريون » و « ثيا » بأناملها الموردة وردائها المزعفر ، فتترك فراشها الوثير في أقصى الشرق، فتمتطي عربتها التي يجرها الجوادان لامبوس Lampus وفيثون Fithon فيركضان بها حتى تعتلي جبل الأوليمب لتعلن عن قرب مطلع اخيها هليوس (الشمس) . وحينما يظهر هليوس تتحول هي إلى هيميرا Himera (النهار) فتصحبه في رحلته اليومية حتى تعلن هسبيرا سلامة

وصولها إلى الشواطىء الغربية من المحيط ». وإيوس هي نجمة الصباح ، وأناملها الموردة وثوبهـا المزعفر كناية عن الشفق الذي يسبق الشروق ويصحبه ، ولامبوس (الشعلة) وفيثون (الضوء) وركضهما إلى انتشار الضوء (ساعة السحر) في قبة السماء وهسبيرا هي المساء .

٧ – Robert Graves :- « The Greek Myths » (33/D 7) وأغنيات الحب الشجية التي يرفعن عقيرتهن بها كناية عن سحر الليل وستره للمحبين في خلواتهم ونجواهم وشدوهم وغنائهم .

٨ – والتشبيه مجازي في اللون وفي الاستدارة أما في الحجم فإن الأمر يبدو بعيد التصور غير أننا إذا قدرنا أن الموضـوع يتعلق بالآلهة ، فإن الأمر لا يكون غريباً حينئذ إذ من الجائز أن يتضخم الحجم عند الآلهة إلى ذلك الحد الذي يصبح فيه قرص الشمس كالتفاحة (جريفس السابـق 33 /7) .

٩ – R. Graves ، المصدر السابق (7 / 33) .

١٠ – R. Graves ، المصدر السابق (D / 33) .

١١ – R. Graves ، المصدر السابق (1 / 41) . ولثلاثية أوجه القمـــر في الميثولوجيا اليونانية معنى آخر ، فهي رمز للفصول الثلاثة التي تنقسم إليها السنةُ عند الإغريق ، فاحداهن أو أحد هذه الوجوه ترمز للقمر الجديد أو العذراء وتمثل الربيع أول فصول العام . والثانية أو الوجـه الثاني رمز للقمر في اكتماله (بدراً) وتمثل الصيف ثاني فصول العام . والثالثة أو الوجه الثالث يرمز للقمر الهاوية أو الهابطة وتمثل الشتاء آخر فصول السنة . وهناك معاني أخرى كالرمز للشباب والنضج والشيخوخـة وغير ذلك من المعاني الفلسفية لثلاثية القمر في الميثولوجيا اليونانيـــة لا يهمنا إيرادها هنا .

١٢ – R. Graves : المصدر السابق (33/3 وفي مواضع أخرى عديدة منه) والتعبير عن التفاحات الثلاث بأنهن جواز العبور لعالم الأموات إنما هو رمز للصلة بين القمر إلهة الموت (باعتبارها المشعة ليلاً والمبددة للظلمة ـ عالم الأموات) وبين طقوس عبادة الإلهة أفروديت التي تفرض على كاهناتها أن يتقربن منها بقتل الإله هسبيروس وهن ينشدن أغاني الحب الشجية (ورمز قيامهن بقتله هو قطعهن للتفاحة إلى شطرين ، وبهذا يبدو النجم الخماسي الأطراف في كل من الشطرين وكأنه قد انقسم إلى نصفين) . أو أن المقصود هو أن هليوس (الشمس) يتحول إلى رمز التفاحة وهو ينحدر إلى عالم هسبيرا المظلم ، أو أنهن كالهسبيريدات رمز للدهر : شباب واكتمال وشيخوخة، التي ليس بعدها غير الوفاة أي أن المرء بولادته وشبابه نال الأولى، وباكتمال نموه وبلوغه أشده نال الثانية ، وببلوغه سن الشيخوخة لم يبق أمامه غير الوفاة. وعلى كل فان هركليوس ذلك البطل الأسطوري قد تسلم في نهاية الاسطورة هذه التفاحات عند احتضاره كدليل على انتقاله إلى العالم الآخر .

١٣ – إريبوس Erebus هي إلهة (أو أنه هو) العالم السفلي حيث تستقر الأرواح من بعد المات ، وتسمى اريبوس باسم أدي Ade .

١٤ – وهذه الرواية الفلسفية كما رواها جريفس في كتابه المشار إليه كثيراً (40 / a) هي كما يلي : « ... إنه في البداية كان الظلام ، ومنه انبثقت الفوضى . ومن تزاوجها نشأ الليل والنهار والهواء واريبوس (الظلام ، الرطوبة) [وهذه تقابل في كتب الطب القديم : البرودة (الليل) والحرارة (النهار) واليبوسة (الهواء) والرطوبة (اريبوس = العالم السفلي)] ومن تزاوج الليل بأريبوس نشأ : الحظ ، والشيخوخة ، والموت ، والاجرام ، والحشمة ، والنوم ، والاحلام (الرؤيا) ، والخصومة ، والسأم ، والانتقام ، والفرح ، والصداقة ، والرأفة ،

وراعيات الحظ الثلاث ، والهسبيريدات الثلاث .... الخ » ومعنى هذا أن العالم السفلي والليل أي (البرودة والرطوبة) إنما ينشأ عنهن ما تقدم . ويبدو لأول وهلة أن بعض هذه الأمور لا صلة لها بالبعض الآخر غير أن التعمق في التحليل يفصح عن الجوانب المشتركة الجامعة بينها .

١٥ – أطلس Atlas هو أحد آلهة الإغريق وكان يحكم مملكة اطلنطة Atlantide التي أغرقها الطوفان الذي سلطه عليها زيوس حتى احتواها البحر المحيط ، وعاقب زيوس أطلس نفسه بأن جعله يحمل على رأسه ، ويمسك بيديه قبة الفلك أبد الدهر . وهناك أسطورة أخرى تجعل من أطلس أحد العمالقة الكبار ، وقد مسخ حجراً (جبلاً) لما واجهه برسيوس Perseo برأس الميدوزا Medusa التي تحيل كل من تقع عيناه عليها إلى تمثال من الحجر (راجع جريفس : المصدر السابق ، وكذلك Carlo Kerenyi في كتابه I Dei E Gli Eroi Della Grecia وغيرهما من كتب الميثولوجيا اليونانية العديدة) .

١٦ – هسبيرا (الليل) إلهة الليل بنت هسبيروس ذلك النجم المقدس عند افروديت (راجع هامش ٣ من هذا الفصل) .

١٧ – شيتوس Ceto اسم ثان لاخيدنا Echidna ذلك الوحش البحري المخيف الذي تتمثل فيه أخيدنا في بعض الأحيان ، وفوركوس Forco اسم ثان لتيفونيس Tifone أو شربيروس Cerbero الذي يمثل الآلهة أنوبيس عند المصريين وقد ولدت فوركو لشيتوس عدة أبناء مريعين مثل إدرا Idra وهو الثعبان المائي ذو الرؤوس المتعددة وكيميرا Chimera فلك المعزى التي تنفث النار من فيها ، برأس أسد وذنب ثعبان ، وأريون Arion الكلب ذو الرأسين .

١٨ – هيرودوت : تاريخه الثاني ، ٥٠ .

١٩ – من الثابت عن هيرودوت أن الليبيين في مجموعهم قد عبدوا الشمس

والقمر . وهذه الهسبيريدات الثلاث ، والقرقونات Gorgoni الثلاث وعدد آخر من الثلاثيات جميعاً إنما يرمزن لأوجه القمر الثلاثة أو مطالعها الثلاثة أو لتجسيدها في أقمار الفصول الثلاثة كما تقدم (راجع الهامش ١١ من هذا الفصل) ، ويرجعن إلى ليبيا بشكل أو بآخر ، فهل عرف اليونان عبادة القمر في تجسيدها الثلاثي عن قدماء الليبيين ؟ هذا جائز وإن كان يحتاج إلى مزيد من البحث ليس هذا موضعه على أي حال .

٢٠ – التفاحات الذهبية رمز لجواز العبور إلى العالم الآخر ، (راجع هامش ١٢ من هذا الفصل) ، ولكن الشجرة قدمت هدية من جيا الأرض إلى هيرا ابنتها بمناسبة الزواج ، فما الصلة بين الأمرين ؟ هل يعني هذا نهاية هيرا كعذراء ودخولها عالماً آخر كزوجة لكبير الآلهة زيوس ؟ هذا جائز ولكننا لم نعثر عليه ولا وقفنا على غيره كتفسير ميثولوجي لهذا الأمر .

٢١ – لادون Ladon ثعبان تختلف حوله الروايات الميثولوجية : فمن بين قائل بأن له رأسين وقائل إن له ثلاثة رؤوس وقائل إن له مائة رأس دفعة واحدة . ومن بين قائل إن له فحيحاً موسيقياً يشبه صوت الناي . وقائل إنه ناطق يجيد مائة لغة بعدد رؤوسه المائة . ومن بين قائل إنه ابن الارض جيا وأخ لاخيدنا (راجع هامش ١٧ من هذا الفصل) وقائل إنه ابن هذه من شيتوس.

ولادون اسم لنهر من أنهار الجحيم في الميثولوجيا اليونانية كذلك، ويحتمل بعض علماء الجغرافيا الكلاسيكية أنه الأصل الأقدم لنهر ليثون الأسطوري استناداً إلى الصلة الشديدة بين حرفي « D » و «Th» في بعض اللهجات اليونانية القديمة . ولا نستطيع نحن قبول ولا استبعاد وجود شبه بين الحرفين لعدم تقديم مصادرنا لأدلة هؤلاء . وإن كنا نجد

صلة من نوع آخر بين نهر ليثون وحدائق الهسبيريدس والثعبان لادون ، تلك هي صلة التجاور المكاني المستمر في الميثولوجيا اليونانية ، ولكن هذه ليست بتلك بالتأكيد .

٢٢ – تيمي Temi هي ابنة زيوس من أمه Rea (راجع هامش ٣ من هذا الفصل) . وتعني التسمية في الهلينية القديمة معنى « النظام » وترمز إلى هذه الآلهة الكبرى التي تتولى تنظيم تعاقب الأشهر الثلاثة عشر التي تتكون منها السنة عند اليونان ، كما تتولى تنظيم تعاقب الفصول الثلاثة (الربيع ـ الصيف ـ الشتاء) التي تتكون منها السنة أيضاً عند اليونان .

٢٣ – تيتانوس Tetanus لقب لأطلس ولغيره من كبار الآلهة المكلفين بالكواكب السبعة السيارة وهم من الذكور ومن الإناث .

٢٤ – كان العقاب قد أنزل به من زيوس بعد أن أغرق هذا بالطوفان قارة اطلنطة (راجع هامش ١٥ من هذا الفصل) بسبب شن شعب أطلس من سكان تلك القارة لسلسلة من الحروب على سكان القارتين (ليبيا – افريقيا) وأوربا . ويبدو أنه كان قبل ذلك إله المراعي ، وراعي قطعان المواشي في الارض الاخرى الواقعة خلف المحيط الكبير .

٢٥ – ربما كان منشأ هذا الجانب من الأسطورة بعد أن حدد لها مكانها الذي اشتهر بها بالقرب من يوهسبيريدس فالمنطقة التي عينت من الباحثين عن هذه الحديقة استناداً إلى المعلومات المتناثرة التي قدمها علماء الجغرافيا من الإغريق حولها بأنها ذلك الانخفاض الكارسياكي في سطح الأرض ، والمعروف بهواء حمزة أو الآخر المعروف بسواني عصمان حيث لا يزال محاطاً بجوانب التجويف القائمة رأسياً ولبضعة أمتار وكأنها سور طبيعي سميك .

٢٦ – وهذا المجهول هو البطل هركليوس على ما سيأتي .

٢٧ – وقد وصف باليقظ أبداً لأن تعدد الأعين التي في رؤوسه تمكنه من النوم واليقظة كما تمكنه من الرؤية في جميع الجهات فهو لذلك يقظ لا ينام ولا يؤخذ على غرة أبداً ما دام حياً .

٢٨ – لم تقدم لنا مصادرنا سبباً مباشراً لهذا التحذير ، ولكن ربما ذلك لأن تناول هركليوس للثمار بيديه يعني تحديه لهيرا صاحبـــة الثمار وهي من كبريات الآلهة وهو من الأبطـــال أي دونها مرتبة ، كما قد يعني أن اقتطافها بيديه من الشجرة يحمل معنى نهايته التي لم تحن بعد في الأسطورة وقد يكون له معناه الميثولوجي الخاص غير هذين .

٢٩ – حينما شرع هركليوس في القيـــام بمتاعبه أو صعوباته الاثنتي عشرة ، قيل إن الآلهة أعدت له أشياء يستعين بها في مغامراته ، وكانت هدية أبولون له قوساً وسهاماً صقيلة يزينها ريش الصقر (المقدس عند أبولون) وبواحد من هذه السهام رمى الثعبان فأرداه فيما يبدو من سياق الأسطورة.

٣٠ – في احدى الروايات أن الهسبيريدات هن بنات أطلس من هسبيرا بنت هسبيروس كما تقدم . وفي رواية أن هركليوس لم يقتل الثعبان لادون ، وأن أطلس لم تمتد يده الى الشجرة وانما قدمت هذه الثمار له من الهسبيريدات أنفسهن باعتباره والداً لهن . ولكن هذه الروايـــة تسكت عن دور الثعبان لادون في هذه الحالة بالذات ولا تتعرض إليه .

٣١ – ومن هذه أنه التقى بأنتيوس Anteo ابن بوسيدون من الأرض وأنـــه قاتله وأنه أنشأ مدينة طيبة في مصر وأنه زار معبد زيوس بأمونيـــا (وهو أمون الكبش) ومناطق أخرى كثيرة قبل أن يعود بالتفاحات مما لا علاقة له بموضوع بحثنا هذا .

٣٢ – لم يعرف الخليج بهذا الاسم في عهـده ولم يسمه هو بأي اسم ولكن ما ذكره ساعد المؤرخين على هذا التحديد له .

٣٣ – والأطلس نسبة إلى « أطلس » والاطلنطي نسبة إلى اطلنطة القارة المفقودة، وقد تقدم ما يمكّن القارىء من تحديد الفرق بين التسميتين أو النسبتين .

٣٤ – انفتريت Anfitrite هي زوجـــة الإله بوسيدون كما ان هيرا زوجة زيوس وقد عذبت كلاهما من الغيرة على زوجها بسبب نزواته وخياناته لها . وقد ولدت انفتريت لبوسيدون فيمن ولدت تريتون .

٣٥ – وملك الأعاصير هو بوسيدون والمقصود بالتعبير: « حينما تهدأ العاصفة ».

٣٦ – لم يسم ابولونيوس الشاعر الثعبان باسمه وانما نعته بأنه المولود الأرضي، ولم نعثر لهذا على تفسير فيما بين أيدينا من مصادر ولعله يشير بذلك إلى علاقته بآدي Ade إله العالم السفلي وما بعد الموت .

٣٧ – وهكذا وحّدوا بين الأسطورتين زماناً ومكاناً وتابعوهـــا أحداثاً ولم أستطع أن أصل إلى فهم الغاية الميثولوجية الكامنة وراء هذا ولذا فإنني أمسك عن تقديم أي تفسير لهذا الجانب الخاص من الأسطورة .

٣٨ – وقد حاول البعض تفسير تقديم تريتون لهؤلاء هديته البديـــلة كحفنة تراب، بأنه سماح لهم بالاستقرار على هذه الأرض التي منحهم إياهـــا في حفنة التراب وبامتلاكها،غير أن في هذا التفسير تعارضاً واضحاً بما سبق وأنأشرنا اليه من نبوءته لهم بأنهم سيعودون إلى امتـــلاك هذه الأرض وسينشئون عليها مائة مدينة يونانيةيوم يتمكن أحد أحفادهم من استعادة القربان الذي قدّم اليه، ولذلك نستبعد أن تكون هذه هي دلالته ونرى أنها رمز إلى علاقات الود القائمـة بين الشعبين في عصر اختلاق هـــذا الجانب من الأسطورة بالذات .

٣٩ – ليست هذه الأسطورة في الواقع من نوع الأساطير الميثولوجية السابقـة والتي تعود إلى عالم الآلهة الاغريق ، وربما هـــذا لأن الزمن قـد تقدم

بالانسانية ولم تعد فكرة الجاد صلة بين برنيس، الفتاة اليونانية التي عاشت أحداث التاريخ في العصر البطلمي، تتمشى مع ما حققه الفكر اليوناني من تطور ونضج، ولذلك مزجت الأسطورة بين عالمي الواقع والخيال فجعلت برنيس تنذر غرائزها المسترسلة الذهبية قرباناً للآلهـــة (وهذا واقع) ثم جاء عالم فلكي معاصر للحدث يسمى كانونيس Canone فمجّد مليكته الشابة الوفية المخلصة بأن أطلق اسم غدائر برنيس Chioma di Ber. على مذنبة الأسد المكونة من سبعة نجوم على هيئة مثلث وكانت قبله تعرف بمجموعة السنبلة . ثم جاء شاعر البلاط البطلمي وأعظم من أنجبت قورينة من شعراء الإغريق ليحوّل هذا الواقع وهذا التمجيد إلى أدب رفيـــع مزج فيه بين الواقع والخيال بأن جعل الآلهة تقدر لمليكته وفاءهـــا فترفع غدائرها لتخلد هناك بين النجوم في عالم الافلاك السماوي المتألق.

٤٠ — وبالرغم من أن هدف الملكة الشابة هنريكيتا Henrichetta كان برنيس البطلمية ابنة ماجاس كما تروي ذلك دوائر المعارف أو بعضها على الأقل، إلا أن الشاعرين جنحا بالفكرة فجعلاها أميرة فلسطينية مما ذهب بجمال الفكرة الكامنة في استقامة هذه الفتاة وحبها لزوجهـا واخلاصها لهذا الزوج، ولم يبق من صلة بين المطلوب والموضوع سوى العنوان في روايتي الشاعرين .

الفصل الرابع

يوهسبيريدس في التاريخ

— مدخل .
— المنطقة في العصور الحجرية .
— احتمال قدم نشأة المدينة على نصوص هيرودوت .
— العلاقة بين يوهسبيريدس وقورينة .
— خضوع يوهسبيريدس للباطيين .
— يوهسبيريدس ونهاية الحكم الباطي في برقة .
— يوهسبيريدس في العهد الباطي .
— العهد الجمهوري ويوهسبيريدس .
— يوهسبيريدس في العهد البطلمي .
— خاتمة هذا الفصل .
— الهوامش والتعليقات .

الفصل الرابع

يوميات بدليس عبر التاريخ

١ – مدخل :

إذا كان تتبع تاريخ أمة من الأمم في جميع عصورها بتسلسله صعباً ، فإن عملية التأريخ لمدينة بذاتها تعد من أصعب الصعاب . ذلك لأن كثيراً من الأحداث الهامة التي وقعت بها لم يدوّنها التاريخ أصلاً ، أو اكتفى بمجرد الاشارة المقتضبة إليها ، فلم تصل لعلمنا بالتالي إلا في شكلها المختصر الإجمالي الذي لا يساعدنا على التعمق في فهم المسببات بما يحجبه عنا من أسباب . وقد لا تصل إلينا أية معلومات بالمرة ، لأن الزمان طواها سراً في سجله ، وضنّ بها على الأجيال التالية . وهذا يعني ، في عبارة أخرى، استحالة تدوين تاريخ مسلسل الحوادث من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى الذي يليه ، كما يحدث في تاريخ الأمم العام .

وبالإضافة إلى هذا فإن كثيراً من الأحداث التاريخية في مدينة بذاتها ليست في الواقع منبثقة عنها وان كانت المدينة مسرحاً لها أو لجانب من أحداث الواقعة ، والعديد من المؤثرات التاريخية الإجتماعية الثقافية التي

تكون سبباً في ازدهار العمران فيها أو في تدهورها واضمحلالها لا تنشأ عن المدينة أو في المدينة ذاتها ، ولهذا فلا يمكن الوقوف عليها بالاقتصار على تاريخ المدينة وحدها، بل لا بد من التوسع في الدراسة حتى تشمل تاريخ البلد جميعه في ذلك العصر بالذات .

وهذا يعني أننا في محاولتنا استعراض تاريخ هذه المدينة سنبقى على ثغرات واسعة يكتنفها الغموض ، وسنضطر في حالات إلى سرد الأحداث التي تكون المدينة مسرحاً لها أو جانباً من مسرح أعم ، وفي توسع قد لا يدرك البعض الضرورة له فيعده حشواً لا صلة له بتاريخ المدينة ذاتها ،وما هو بذلك .

وتاريخ هذه المدينة بالذات عريق جداً يعود أول المدوّن منه ،في النصوص التي وصلت الينا ، إلى خمسة وعشرين قرناً من الزمان ، أما غير المدوّن منه فهو أعرق من ذلك، لأنه يرجع إلى العصور الحجرية ويضيع مع الزمان بعداً فلا يصل إلينا منه شيء .

وقد رأيت لهذا تقسيم تاريخ المدينة الى ثلاثة فصول، خصصت الأول منها للعصر الذي حملت فيه المدينة اسم « يوهسبيريدس » بتطوراته ، ويمتد من أبعد زمان في التاريخ حتى سنة ٢٤٧ قبل الميلاد أو حوالي ذلك، وخصصت الثاني منها للعصر الذي حملت فيه اسم برنيس بتطوراته ويمتد من سنة ٢٤٧ قبل الميلاد الى سنة ١٥٧٩ ميلادية، وخصصت الفصل الثالث والأخير لتاريخ العصر الحديث الذي حملت المدينة فيه اسم بنغازي وهو ما يمتد من سنة ١٥٧٩ الى آخر العهد العثماني، وهو الذي أنهيت به محتويات هذا الجزء الأول من البحث .

وقد كان من الممكن أن نلجأ إلى تقسيم آخر لتاريخ هذه المدينة يتفق ومجرى الأحداث التاريخية العامة للبلاد ، غير أنني فضلت هذا التقسيم الذي يتفق وأبرز الأحداث الخاصة في تاريخ المدينة ذاتها ، وهو تحوّل تسميتها وقد

رافق التسمية في كل مرة عودة جديدة للحياة ، بعد تدهور تام أو قريب من الكمال الذي يتلاشى فيه وجودها السابق لتبرز من جديد وباسم جديد .

٢ – المنطقة في العصور الحجرية :

واذا ما انتقلنا من عالم الأساطير والخيال الى عالم الواقع وأحداث التاريخ البعيدة منها والقريبة ؛ وبحثنا عن الأدلة التاريخية ، والمخلفات الأثرية للإنسان فإننا نجد أن منطقة بنغازي (المدينة وسهلها)[١] قد سكنت من الإنسان الأول طوال العصور الحجرية الثلاثة : القديم والأوسط والحديث[٢]، يدلنا على سكناه لها تلك الآلات الحجرية المتناثرة التي التقطت صدفة فوق السطح وأثناء قيام ملتقطيها بأبحاث أخرى غير البحث عن مخلفات الإنسان الأول ، من قبل : الأب ف . زانون[٣] ومن أ . فانتولي[٤] ، ومن ذ . بوتشوني[٥] ، ومن ج . زوكو[٦] وأخيراً من س . بتروكي[٧] وذلك في كل من الرجمة ، والفويهات والقوارشة والهواري والفعاكات والجخ الكبير (بوعطني) واللثامة وسيدي سعيد وسيدي اللافي وسيدي طاهر وبوكرمة والقطاره والرحبة وبعض المناطق الأخرى التي تحيط بالمدينة أو تكوّن الآن جزءاً منها .

أما الدليل القاطع والهام والأكيد على سكنى انسان العصر الحجري فيقدمه لنا كهف أو « حقفة الطيرة »[٨] باعتبارها مركزاً من مراكز التجمع البشري الاستقرارية في عصور ما قبل التاريخ بهذه المنطقة[٩].

وليس من غايتنا هنا دراسة آثار العصر الحجري ومخلفاته ، أو نسبتها بحسب صناعاتها وأشكالها إلى حضارات العصر الحجري المتعاقبة فإن ذلك مما يتطلب تخصصاً في البحث لا نعتقد هذه الدراسة بالذات مما يناسبه ، ولهذا فإننا نكتفي هنا بما قدمناه دليلاً على قدم استقرار الإنسان الليبي في هذه

المنطقة ، ونحيل الباحث على المراجع المتخصصة في الموضوع من التي أشرنا إليها في الهوامش السابقة من هذه الفقرة ، ففيها وفي مصادرها هي أيضاً ما يعطي الصورة الواضحة التي إن لم ترض الباحث فهي تقدم له على الأقل جملة ما تمّ التوصل إليه من اكتشافات في هذا الميدان .

٣ — احتمال قدم نشأة المدينة على نصوص هيرودوت :

ليس من فصل تاريخي يسبق عهد هيرودوت ، لا بين أيدينا ولا في علمنا ، يتحدث عن مدينة في الموضع الذي قامت به بنغازي ، فهل يعني هذا أن نشأة المدينة ذاتها لا ترجع إلى أقدم من العهد الذي تعينه هذه النصوص ؟ إن معظم الذين تعرضوا لتاريخ نشأة هذه المدينة قد أخذوا بهذا الإتجاه ، فقالوا بنشأتها في العهد اليوناني وبالدقة في القرن الخامس قبل الميلاد . غير أننا لا نقبل بهذا الرأي ونخضع نصوص هيرودوت ذاتها للدراسة الدقيقة ، فهيرودوت هو أول مؤرخ قديم أورد ذكر هذه المدينة بالاسم صراحة وعلى لسان هاتف أبولون تلميحاً ومن هنا تأتي أهمية نصوص هيرودوت هذه ، وعنايتنا بدراستها هي بالذات فيما يلي :

تعرض هيرودوت لذكر هذه المدينة بالاسم في ثلاثة مواضع من تاريخه سبق تقديمها في الفصل الأول من هذه الدراسة ، وأشار اليها بما يمكن أن يدل عليها في موضع رابع سبقت الإشارة اليه أيضاً ، وفي هذه المرات الأربع يبرز وجود المدينة عند هيرودوت فجأة مما يوحي بأن الحديث كان منه أبداً عن مدينة قائمة قبل ذلك النص .

وبترتيب النصوص الأربعة زمنياً، نجد النص الذي ذكرت فيه كحد لمنطقة سكنى بعض القبائل الليبية ، وكذلك النص الذي يصف زكاء تربتها برجحان

الى زمن هيرودوت نفسه أي الى المدة فيما بين سنتي ٤٦٠ و ٤٧٠ قبل الميلاد (١٠)، وهذا يعني أنها أحدث النصوص زمناً . ثم نجد النص الذي يجعل المدينة آخر نقطة بلغتها الحملة الفارسية ضد مدينة برقة يعود الى المدة فيما بين ٥٠٧ و ٥١٠ قبل الميلاد ، ثم نجد أقدمها جملة ذلك النص الوارد على لسان هاتف وحي أبولون بدلفي ، وفيه تحذير للملك أرشيزلاو الثالث من الإقتراب من المدينة التي تحيط بها المياه . ويرجع هذا على وجه التقريب الى سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ، ويدل صراحة على أن المدينة كانت قائمة آنذاك مما يعيد تاريخ نشأتها إلى عهد أقدم من هذا التاريخ بزمن .

وبمراجعة لما كتب هيرودوت عن برقة عموماً نجده لا يعنى بذكر شيء عن ماضي المدن أو القرى التي كانت نشأتها سابقة لعهده اللهم إلا اذا كان اليونانيون قد أسسوها(١١)، وهو يتحدث عن الواحدة منها اذا استدعى ذلك سياق البحث حديثاً عابراً ودون الإشارة إلى وجودها قبل ذلك، كما حدث منه عندما ذكر ايراسا ، وازوريس (ازيريس) ، وأوجلة مثلاً ، الأمر الذي يجعلنا في حل من احتمال نشأة مدينة يوهسبيريدس قبل التاريخ الذي أرجعنا إليه زمناً أقدم نصوصه الأربعة أي إلى ما قبل سنة ٥٢٨ قبل الميلاد.

ولا يفهم من نص واحد فقط من هذه النصوص الأربعة ، (ولا يوجد عنده سواها) أن الايوهسبيريديين هم من اليونانيين وحدهم ، وقد يفهم منه العكس اذا فهمت المنطقة المعينة عنده بهذا النص على أنها شاملة لجميع السهل حتى منطقة « السلك » (جنوب غرب سلوق) وهي المنطقة التي اشتهرت بخصوبتها في السنوات المطيرة حتى في العصر الحديث .

لما تقدم جميعه يمكننا احتمال وجود مدينة يوهسبيريدس يونانية أو ليبية في نفس المكان وسابقة لنصوص هيرودوت الأربعة وإن مجهولة الإسم، وهي ذات

المدينة التي حملت فيما بعد اسم يوهسبيريدس الذي يبدو أن اليونانيين هم الذين اطلقوه عليها في كتاباتهم ، ابتداء من عصر هيرودوت أو قبله .

واذا كانت نصوص هيرودوت التاريخية قد اثبتت وجود مدينة يوهسبيريدس في سنة ٥٢٨ قبل الميلاد ودون أن تساعدنا على تحديد زمن نشأتها فهل في إمكان عالم الأسطورة الميثولوجي مساعدتنا في هذا البحث العويص ؟ ليس هذا البحث من السهولة بمكان ، فإن مدينة يوهسبيريدس قد اختلطت نشأتها بالأساطير الميثولوجية التي تدور حولها كما هي الحال في معظم المدن اليونانية الأخرى ، في ليبيا وخارجها من سائر العالم اليوناني. غير أن الغموض والإبهام الذي يحيط بعالم الأساطير عامة قد زاد منه هنا صمت التاريخ عن كثير من الأحداث الراجعة إلى ذلك العهد المبكر من تاريخها الهليني ، مما جعل تلك الأساطير الدائرة حول هذه المدينة أو المتعلقة بها على شكل ما متداخلة في غيرها من أساطير اليونان الأخرى ، وبشكل يجعل من الصعب على المؤرخ الربط بين هذه وأحداث التاريخ المروية ، كما حدث في كثير من المحاولات التي يختلط فيها التاريخ بالأسطورة فيمتزجان ويتداخلان ، وقد أفردت لهذه الأساطير الدائرة حول المدينة فصلاً خاصاً من هذه الدراسة ، ولا أرى لذلك داعياً للحديث عنها هنا لا إجمالاً ولا بالتفصيل .

ومن بين هذه الأساطير الدائرة حول المدينة نجد أسطورة واحدة على الأقل يمكن أن تساعدنا في البحث عن نشأة هذه المدينة ولو قليلاً ، ونجد هذه الأسطورة عند هيرودوت في تاريخه كما نجدها عند ابولونيوس Apollonio وعند غيرهما من قدماء المؤرخين والادباء من الإغريق . وما يهمنا من هذه الأسطورة هي تلك النبوءة الواردة على لسان تريتون Triton(١٢)، والتي تعد الشعب اليوناني بمائة مدينة ينشئونها حول بحيرة

تريتونيس يوم يتمكن أحد أحفاد الأرجوتيين من استعادة الآنية الثلاثية القاعدة Tripode هديتهم إليه(١٣).

والنبوءة التي في هذه الأسطورة ، وبالشكل الذي وردت عليه عند كل من هيرودوت وأبولونيوس تضمن مطامع اليونان وأحلامهم في التوسع الاستيطاني بالشمال الافريقي ولا شك ، فهي تبشر بمزيد من الإمتداد نحو الغرب ، ذلك الغرب الذي سيطر عليه الفينيقيون منافسوهم في هذا المجال ، سيطرة منعت اليونان من التوغل فيه الى أبعد من آخر حدود برقة الحالية بعد أن فشلت جماعة منهم في التوطن عند نهر شينيبوس (وادي كعام) في حدود سنة ٥٧٠ قبل الميلاد .

واذا جاز لنا هنا تقديم تفسير تاريخي لهذه النبوءة في الأسطورة ، فإننا قد نلمسه في ورودها على لسان أحد المعبودات الليبية بالذات ، كمعنى من معاني استجداء اليونانيين لليبيين علهم يقفون الى جانبهم في صراعهم ضد القرطاجنيين على أساس أن هذه هي إرادة الآلهة التي يقدسها الليبيون . وقد يبدو لنا هذا التفسير ساذجاً وسطحياً ،غير أن هذه النظرة ستختلف متى أدركنا دور العقيدة وقوة نفوذها في عالم إنسان الأمس البعيد، ولا يغير من هذا كون العقيدة وثنية .

وقد لا يقتصر الغرض من وراء هذه النبوءة على استمالة الليبيين وحسب، فهي قد تتضمن تشجيع اليونانيين أنفسهم على المخاطرة من جديد ومحاولة الاستقرار في ذلك الغرب الذي تعد الأسطورة به .

وهذ التفسير للنبوءة إنما يقبل إذا أثبتنا أنها لا ترجع إلى أبعد من زمن فشلهم في الاستقرار عند نهر شينيبوس الذي أشرنا إليه منذ قليل . وبالفعل فإننا **لا** نجد أي أثر لهذا الجانب الليبي في الأسطورة الميثولوجية عند هوميروس

ولكننا نجدها عند هيرودوت ، وعند من جاء بعده مثـــل ابولونيوس وبنداروس وكاليماخوس وغيرهم ممن يرجع عهدهم إلى أبعد من زمن هيرودوت نفسه ، الأمر الذي يدعم فكرة اختلاف هذا الجانب من الأسطورة بعد فشل المحاولة في التوسع اليوناني نحو الغرب .

مما تقدم يمكننا تحديد الزمن الذي اختلفت فيه هذه النبوءة وأقحمت في اسطورة الأرجوتيين بأنه خلال الفترة الواقعة ما بين فشل محاولة اليونان في الاستقرار على ضفاف شينيبوس وبين عهد المؤرخ هيرودوت ، أي فيما بين سنتي ٥٣٠ و ٤٦٠ قبل الميلاد ، ومع ذلك فلم تعتبر مدينة يوهسبيريدس إحدى تلك المدن المائة التي تحدثت عنها الأسطورة متنبئة بإقامــة الإغريق لها على ساحل بحيرة تريتونيس ، ولو في زمن متأخر من العهد اليوناني ، وإنما قضت الرواية على هذه النبوءة وجمدتها بأن جعلت الليبيين يعلمون بالنبوءة فيخفون الآنية القربان وسط الرمال الصحراوية ، مما جعل استعادتها من قبل أحد ابنـــاء الأرجوتيين مستحيلاً . فهل معنى كل هذا أن المدينة كانت قائمة بالفعل قبل سنة ٥٧٠ قبل الميلاد ؟ هذا محتمل جداً وإن كنا نحجم عن الجزم به مكتفين في الوقت الحاضر بمجرد الإشارة إليه .

٤ – العلاقة بين يوهسبيريدس وقورينة :

يحدثنا مؤرخو العصر الحديث عن أسرة الملوك الباطيين التي حكمت قورينة فيما بين سنتي ٦٣١ و ٤٥٠ قبل الميلاد كما لو كانوا ملوكاً على سائر إقليم برقة الذي استقر به اليونانيون . ولكن التاريخ في حقيقته ليس كذلك فإن أسرة الباطيين لم تحكم حكماً مباشراً طوال هذه الفترة غير قورينة وحدها ، أما المدن الأخرى : برقة ، وتيوكيرا ، ويوهسبيريدس ، فقد كانت لكل منهـــا

حكومتها الخاصة المستقلة منذ نشأتها وحتى الغزو الفارسي على الأقل ، وإن سكت التاريخ عن رواية معظم أحداث تاريخ هذه المدن اللهم إلا في حالات كان سياق الحديث عن قورينة يقتضي إبراز الكيان المستقل الذي كانت عليه مدينة برقة ، وقد يذكر ملك برقة بالاسم ، كما في حالة لجوء الملك ارشيزلاو الثالث إليها واحتمائه بملكها ألازير Alazir (ألعزير) .

واذا كان التاريخ يلتزم الصمت فلا يذكر لنا شيئاً عن استقلال دولة مدينة يوهسبيريدس عن تاج قورينة الباطي ، فليس معنى هذا تبعيتها بالضرورة لهذا العرش وطوال الفترة التي حكمت فيها الأسرة الباطية هذه البلاد . وهذه حقيقة يجب أن نعيها ونحن نحاول كتابة تاريخ هذه المدينة وللمرة الأولى في العصر الحديث ، لما لهذا من أهمية في فهم بعض الأحداث التاريخية التي تسربت إلينا من بين طوايا تاريخها البعيد .

ولهذا الصمت من التاريخ فقد جهلنا أيضاً نوع الحكم الذي كانت عليه هذه المدينة خلال العهد الباطي ، بحيث لم يعد في إمكاننا الجزم بأنه كان ملكياً أم جمهورياً وإن كنا نرجح أنه كان كما في قورينة وفي برقة نظاماً ملكياً لما نعلمه عن الليبيين في التاريخ من أنهم عرفوا النظام الملكي ومارسوه وكان لهم في التاريخ ملوك ، ولأن المؤرخين القدماء لم يشيروا إلى فكرة النظام الجمهوري في برقة كلها الا بعد نهاية الحكم الباطي فيها . وحتى يكشف لنا التنقيب عن أية آثار أو نصوص ترجع إلى هذا العهد المبكر جداً من تاريخ هذه المدينة (يوهسبيريدس) فتزيح بعض ما يكتنف تاريخ هذه الفترة من غموض ، فليس من شيء يمكننا أن نقدمه في هذا السبيل .

واذا كنا لا نعلم نوع الحكم الذي قام في مدينة يوهسبيريدس طوال العهد

الباطي ، فإننا نجهل بالتالي الكيفية التي نظمت بها دولة يوهسبيريدس طريقة الحكم فيها . ومن ضروب التكهن والاستنتاج الذي لا يستند إلى منطق تاريخي اعتباره فيها مطابقاً لما وجد عليه في قورينة أو حتى لما بدا فيها هي ذاتها بعد ذلك بزمن طويل . إذ ان التشريع الدستوري لقورينة كما أورده هيرودوت ، وكما كشفت عنه لوحة العهود Stele Dei Patti التي عثر عليها في « شحات » كانت له ظروفه التاريخية المبررة لوجوده على ذلك الشكل في قورينة بالذات . وليست هذه الظروف نفسها بالمتوفرة في أي من المدن البرقية الاخرى إلى ما بعد مجيء الحملة الفارسية في أواخر القرن السادس قبل الميلاد على الأقل وما نتج عنه من خضوع هذه المدن للحكم الملكي في قورينة . ذلك أن مدينة برقة قد نشأت (حتى مع تصديق الرواية اليونانية حول نشأتها) نتيجة للجوء إخوة الملك الباطي إلى الليبيين ، وليس نتيجة لنزوح جماعات إغريقية إليها كما هي الحال في قورينة نفسها ، وهذه ظروف خاصة تضع الليبيين في برقة في غير الموضع الذي نجدهم عليه في قورينة مما يدفعنا الى احتمال نشأة نظام اجتماعي مغاير فيها لما هو عليه في قورينة الباطية . واذا كنا نجهل الكيفية التي استقرت بها جماعات اليونان الاولى في مدينة يوهسبيريدس فلا معنى لأن نتكهن بأنها أخذت بالنظام الذي سارت عليه قورينة أو برقة أو حتى تيوكيرا بل لعله من الأسلم القول بأننا نجهل هذا النظام.

مما تقدم جميعه يمكننا القول بأن التاريخ يجهل حتى حملة الفرس على برقة فيما بين سنتي ٥١٠ و ٥٠٧ قبل الميلاد ، نوع وشكل الحكومة والحكم في مدينة يوهسبيريدس ولا يعرف شيئاً عن كيفية التنظيم الإجتماعي الذي أخذ به مجتمعها وارتضاه .

٥ – خضوع يوهسبيريدس للباطيين :

إن جهلنا هذا لا يمتد الى آخر هذه الفترة ،فإن نبوءة أبولون التي أوردها لنا هيرودوت والتي حذر فيها ارشيزلاو الثالث من الاقتراب من تلك المدينة التي تحيط بها المياه ، ترجع تاريخاً الى سنة ٥٢٨ قبل الميلاد أي الى حوالي عشرين سنة قبل الغزو الفارسي لها واخضاعها للحكم الباطي . فمن هذا التحذير ندرك أن علاقة ما لا بد وأن تكون موجودة بين المدينتين وبدرجة يتأثر فيها مجتمع يوهسبيريدس اليوناني بالذي يؤثر في مجتمع قورينة الإغريقي من أحداث سياسية . والا فما الدافع وراء هذا التحذير للملك من الاقتراب من هذه المدينة في حالة إقدامه على الفتك بخصومه السياسيين في قورينة ذاتها أليس في هذا ما يشير الى أن الصلة بين سكان المدينتين كانت قوية ؟ وأن الاتجاهات السياسية التي تسيّر المجتمع فيها واحدة !.. قد يكون من المجازفة التجرؤ بالقول بأن الأحزاب السياسية التي تكوّنها طبقات الشعب قد انتهت الى تحالف فيما بينها وفيما يتعلق بمناوأة الحكم الملكي في قورينة وفي برقة وفي يوهسبيريدس ولكن علاقة ما لا بد كانت تصل ما بين خصوم الملكية في المدن الثلاث .

ومهما يكن من أمر فإن صمت التاريخ عن أحداث المدينة السابقة للغزو الفارسي سنة ٥١٠ – ٥٠٧ قبل الميلاد قد زاد من غموض هذا التحذير وحال دون وصولنا الى أي استنتاج منطقي حوله يقوم على أي سند تاريخي مقبول عدا هذه العلاقة التي كانت سبباً ولا شك في امتداد الغزو الفارسي الى هذه المدينة واخضاعها للحكم الباطي . وقد أورد هيرودوت عبارة مجملة عن حملة الفرس هذه على المدينة « يوهسبيريدس » لا يفهم منها أن جيشهم قد احتلها بصورة مؤكدة ، فقد اكتفى بقوله « بأن الفرس في غزوهم قد انتهوا الى

يوهسبيريدس على أقوى احتمال » .

ومن رواية هيرودوت هذه ، والتي أشرنا الى مصدرها في السابق ندرك أن الفرس قد بلغوا في زحفهم على برقة سنة ٥١٠ قبل الميلاد حتى يوهسبيريدس آخر مدينة سكنها اليونانيون في الغرب من الاقليم ، وهذا معناه ومع التجاوز ، خضوع هذه المدينة للفرس في جملة الإقليم . وبالرغم من أن الفرس كانوا جيشاً غازياً محتلاً إلا أن حملتهم كانت موجهة أصلاً ضد دولة مدينة برقة وحدها وليس ضد بقية مدن الإقليم ، فما معنى تقدمهم حتى يوهسبيريدس وهي تبعد عن مدينة برقة بعد هذه عن مدينة قورينة ذاتها ؟ قد يكون الدافع للحملة على مواصلة الزحف حتى مدينة يوهسبيريدس هو أن هذه الأخيرة كانت حليفة لمدينة برقة في صراعها ضد قورينة وأنها قد اعتبرت مسؤولة هي الأخرى عن دم الملك المسفوح ، قد يكون الأمر كذلك ، إذ ان من أبرز نتائج هذا الاحتلال الفارسي للمدينة هو فقدانها لاستقلالها الذاتي ، وتبعيتها منذ ذلك التاريخ للحكم الباطي في قورينة الذي كان قد اعترف بدوره بالتبعية للفرس منذ احتلال جيش قمبيز للأراضي المصرية[١٤] والذي لم تأت الحملة الفارسية أصلاً إلا لفرض سلطانه وتمكين نفوذه على المدينتين ، لا باعتباره ملك قورينة وحسب وانما باعتباره حليفاً تابعاً لهم وخاضعاً الى حد ما لسلطانهم الفارسي.

وبالرغم من أن نص هيرودوت يسكت عن هذه التبعية ولا يشير إليها ، إلا أننا نجد آخر ملوك هذه الأسرة يعمل على تغذية العنصر اليوناني من سكانها في سنة ٤٦٠ قبل الميلاد بأناس جدد استقدمهم من بلاد اليونان لتدعيم سلطانه وحماية عرشه المتزعزع آنذاك ببوادر الثورة على الحكم الفارسي الذي كان يمثله بسلطانه على شكل ما في كل من قورينة وبرقة ويوهسبيريدس .

ان ارشيزلاو الرابع لو لم تكن له سلطة ما على هذه المدينة ذات الدولة

المستقلة عنه استقلال مدينة برقة لما أمكنه فعـــل هذا بالتأكيد إذ كيف تتصرف دولة في شؤون وأوضاع دولة أخرى ما لم تكن لها سلطة وسلطان عليها ؟

لما كان التاريخ يسكت فلا يروي خلال فترة السبعة والاربعين عاماً التي بين الحادثتين أي شيء عن حملات عسكرية ضد هذه المدينة البعيدة عن قورينة تخضعها لملكها الباطي فإن احتمال اعترافها بالتبعية للملك الباطي منـــذ الاحتلال الفارسي يعد ، والى أن يكشف التاريخ عن حادثة أخرى تجعل مدينة يوهسبيريدس تخضع للحكم الباطي في قورينة من جديد بين التاريخين ، الإحتمال المقبول تاريخياً على الأقل .

٦ – يوهسبيريدس ونهاية الحكم الباطي في برقة :

وليس من غايتنا هنا التأريخ للأسرة الباطية التي ملكت قورينة ثم امتد نفوذها الى أن شمل بقية المدن البرقية الثلاث الأخرى ولذلك فإننا سنشير الى أبرز الأحداث التي أدت الى الثورة على هذا النظام وانهاء نفوذه ليس في قورينة فقط وانما في سائر الإقليم مع التركيز ما أمكن على دور يوهسبيريدس في هذا الصراع ما دام هذا هو موضوعنا المباشر :

نشأت الملكية الباطية في قورينة نشأة تلقائية طبيعية وأغلب الظن أنهـا لم تكن نشأة يونانية صرفة وإنمـا كان لفكرة الحكم الليبي فيها دور كبير كما يدلنا على هذا لفظة باطوس Batto نفسها والتي قال لنا عنها هيرودوت ذاته بأنها ليبية الأصل وأنها تعني « الملك » ولكنها لم تستمر على نشأتها الأولى فقد تدخلت العقلية اليونانية في تنظيمها من بعد ذلك وكان أول تدخل يحفظه لنا التاريخ هو دستور ديموناكس الذي وضع في عهد الملك باطوس الثالث

(سادس ملوك الاسرة) .

وبالرغم من أن التاريخ يصمت كما سبق وأن أشرنا الى ذلك فلا يحدثنا عن الأسر الحاكمة في بقية المدن البرقية الأخرى إلا أننـــا نحتمل أن أسراً حاكمة قد وجدت في برقة وفي يوهسبيريدس ، واذا كان التاريخ يلتزم الصمت كلية بالنسبة الى يوهسبيريدس فانه يلقي بصيصاً خافتاً عن حكومة ملكية في برقة ويسمي بعض ملوكها بالاسم ، ونحتمل أيضاً أن أسلوب الحكم في هذه المدن كان وحتى مجيء المشرّع ديموناكس الى قورينة متقارباً إن لم يكن متجانساً : الملك فيها غير محدود السلطات وإرادته مطلقة .

واذا كان النظام الملكي في قورينة قد قوي واشتد في مبدإ الأمر فإن تنازع أفراد الاسرة الحاكمة من جانب ومنافسة مدن برقة الأخرى لقورينة من جانب آخر ولا سيما برقة من بينها ، والنزاع الذي اشتد بين العنصرين الليبي واليوناني في قورينة حتى بلغ حد التقاتل من جانب ثالث ، ونشوء طبقة أرستقراطية داخل المدينة القورينية ذاتهـــا تقاوم السلطان المطلق للملكية الباطية من جانب رابع ، جميعها أسباب أدت الى ضعف سلطان هذه الأسرة وقلّلت من نفوذها وأدت في بعض الحالات الى طرد الملك من عرشه وبلاده .

ويسكت التاريخ عن دور مدينة يوهسبيريدس في هـــذا الصراع ولكن بعض الأحداث التي أشرنا إليها في السابق وهي تحذير هاتف أبولون لأرشيزلاو الثالث ، والاحتلال الفارسي لكل من برقة ويوهسبيريدس ، وتقوية أرشيزلاو الرابع للعناصر الموالية لعرشه فيها بتغذيتها بعناصر يونانية جديدة ثم نهايته هو نفسه بهذه المدينة في النهاية، جميعها عوامل يمكن أن ترشدنا الى مكانها من الصراع بأنه ضد قورينة أو فيعبارةأكثر دقة ضد هذا الحكم الباطي فيها ليس بعد الاحتلال الفارسي للبلاد فقط ، وإنما قبل ذلك وربما منذ نهايـــة دور

الصداقة مع الليبيين وبدء النزاع المسلح بين الشعبين في عهد الملك الرابع من الأسرة .

ولما جاء قمبيز الى مصر على رأس جيش فارس غازياً واحتلها بدا للأسرة الباطية أنها مهددة هي الأخرى بالعدوان فبادر ارشيزلاو الثالث بارسال الهدايا مظهراً تبعيته للفرس الأمر الذي أثار عليه خصومه وأنصاره على السواء وأدى الى خروجه من قورينة ثم الى مقتله في برقة مع ملكها الذي آواه وحاول مناصرته وكانهذا سبباً في تسيير الحملة الفارسية التيقضتعلىبرقة ويوهسبيريدس وأخضعتها للملكية الباطية الموالية لها في قورينة على ما تقدم.

ولما تضعضع حكم فارس في مصر بموت اجزركسيس Xerxes حاكمهم عليها سنة ٤٦٥ قبل الميلاد [١٥] ثارت مصر على الفرس وثارت مدن برقة على الحكم الباطي الموالي للفرس غير أن الثورة لم تفلح في مصر فأخمدت سنة ٤٥٦ قبل الميلاد لتنجح بعد ذلك في ليبيا بالقضاء على آخر ملوك هذه الأسرة في يوهسبيريدس سنة ٤٥٠ قبل الميلاد .

ومنذ سنة ٤٦٢ قبل الميلاد كانت الثورة قد اندلعت في مصر وبدأت كفتها تميل الى جانب الوطنيين ، وبدأت العناصر اليونانية المناوئة للنفوذ الباطي ذي الوجه الفارسي تعيد تحرشها بالملكية وتقترب من الليبيين الكارهين للملكية الباطية والحاقدين على الفرس الذين آزروه ومكنوا له فقويت شوكتهم ، وبدأ آخر ملوك هذه الأسرة أرشيزلاو الرابع يفكر جدياً في دعم سلطانه وتقوية جانبه فأقدم على خطة استوحاها من ماضي الأسرة تتلخص في استقدام عناصر يونانية جديدة يغدق عليها من ذات يده ويحميها بنفوذه ، لتكون الى صفه أيام المحنة المتوقعة ، ولما كان من المستحيل على أرشيزلاو أن ينجح في خطته هذه في قورينة أو في برقة لازدحامها باليونانيين

الى درجة لا يمكن تغطيتها بمن سيستقدمهم من جزر وبلاد اليونان فقد لجأ الى تنفيذ فكرته في مدينة يوهسبيريدس ربما لقلة العناصر اليونانية بهـا أو لوقوعها في الغرب مما يجعلها أبعد المناطق عن بلاده وبالتالي عن مركز الثورة وأتونها المستعر . ولكن امتداد فترة الزمن فيما بين مقدم الاغريق الجدد الى مدينة يوهسبيريدس (سنة ٤٦٠ ق.م.) وبين نهاية حكم هذه الأسرة (سنة ٤٥٠ ق.م.) قد جعلت خطته وبالاً عليه إذ تم خلالهـا ولا شك نوع من التقارب الفكري بين المقيمين في المدينة والقادمين إليهـا انتهى بالجميع الى الوقوف صفاً واحداً ضد الملك ومناصريه . فلما نشبت الثورة عليه في قورينة فرّ منها لاجئاً الى مدينة يوهسبيريدس فاذا بها ثائرةهي الاخرى عليه فقبض عليه فيهـا وقتل وقطع رأسه ورمي في أعماق البحر ، وانتهت بموته فترة الحكم الباطي في قورينة وبرقة وتيوكيرة ويوهسبيريدس وأعلن النظـام الجمهوري[١٦] في هذه المدن جميعها .

٧ – يوهسبيريدس في العهد الباطي :

اذا كانت معلوماتنا عن الاحداث التاريخيـة السياسية قليلة ولا تتعدى بضعة أحداث فإن معلوماتنا عن سكان هـذه المدينة في وضعهم الاجتماعي والاقتصادي أقل من ذلك خلال هذا العهد المبكر من تاريخها إلا أن هذا لا يعني فقداننا لكل أثر ، فهناك تلميحات لهيرودوت الذي نعتبره مؤرخ ذلـك العصر وهناك بعض النقود التي عثر عليها راجعـة الى ذلك العصر المبكر من تاريخها القديم من الممكن أن ترشدنا الى الطريق وتحدد لنا القليل من المعالم .

أما عن سكان هذه المدينة فقـد أسماهم هيرودوت بالإيوهسبيريديين وهي عبارة غامضة لا تدل على شيء ولا تحمل معنى إتنولوجياً خاصاً يعيننـا على

تحديد عنصرهم بنسبتهم الى اليونانيين أو الى الليبيين . ولذلك فإن النافذة المباشرة التي كان من الممكن أن نتعرف من فتحتها فيهـا ، على عنصر السكان قد أغلقت ساعة فتحها وبيد هيرودوت نفسه . ولكن هذا المؤرخ إن سكت عن ذكر حادثة أو أسبغ غموضاً على عبارة فإن مواضع أخرى من تاريخه قد تنير لنا السبيل وان بالتكهن والاستنتاج.وبالفعل نجد هيرودوت يعود فيذكر القبائل الليبية التي تسكن المنطقة الواقعة فيما بين برقة ويوهسبيريدس وسهلهـا فيروي لنا أن قبيلة الأوسكيز Auschisi تسكن فوق برقة وتمتد بمنازلها حتى البحر عند يوهسبيريدس ، وأن قبيلة الباكاليس Bacali الصغيرة توجد بمنازلها وسط هؤلاء وأن منازلها تتصل بالبحر عند مدينة تيوكيرا ، وأن قبيلة الناساموية Nasamoni تسكن الى الغرب من هؤلاء (الأوسكيز) وهذا يعني أن مدينة يوهسبيريدس تقع فيما بين أراضي قبيلـتي الناساموية والأوسكيز وبالتالي فهم سكانها الأصليون ومن أفراد هاتين القبيلتين يتكون العنصر الليبي من سكانها وقد تجتذب الى جانبهم عدداً من أفراد قبيـلة البكاليس أيضاً وان في عدد أقل من أفراد أي من القبيلتين الأخريين لصغر هذه أصـلاً ولوجود مدينة تيوكيرا وسط أراضيها الخاصة .

واشتراك أفراد قبيلة الأوسكيز بالذات في سكنى مدينتي برقـة ويوهسبيريدس لامتداد منازلهم من الأولى الى الثانيـة قد يفسر لنا تحالف هاتين المدينتين في الأحداث الماضية التي ذكرناها وفي أحداث تالية ستأتي فيما بعد، فإن وحدة العنصر الليبي فيها وانتماءه الى أصل واحد يدفع باحداهما ولا شك الى مؤازرة الثانية ما دامت لهذا العنصر في مجتمع المدينتين كلمة مسموعة ووزن محسوب .

والى جانب العنصر الليبي لا بد وأن هنالك عنصراً يونانياً وإن كان من غير

السهل علينا تحديـــد موطنه بمدينة أو جزيرة يونانية معينة كما أمكن ذلك بالنسبة للعنصر اليوناني الأول في قورينة والذين حددوا بأنهم من جزيرة ثيرا Thera . ولكن هذا العنصر اليوناني لا بد وأنه كان قليل العدد قبـل إقدام ارشيزلاو الرابـع سنة ٤٦٠ قبل الميلاد على تغذيته،بعناصر يونانية جديدة كما سبق القول . ونقيم احتمالنـــا على السبب السابق الذي أشرنا إليه في الفقرة السابقة من هذا الفصل وعلى انعدام الإشارة الى أي تصادم مسلح بين العنصرين الليبي واليوناني في التاريخ حتى ذلك العهد .

ولا يوجد في مدينة يوهسبيريدس في ذلك العهد عنصر ثالث وجد بها فيما بعد وهو العنصر اليهودي وإن وجد منه فجالية قليلة العدد لا تشكل خطراً ولا هي بذات شأن . كما ان وجود عناصر أخرى غير هذين ليس بالمحتمل إلا اذا كانت جاليات قليلة العدد وغير مستقرة تأتي للمتـاجرة وحسب من بلاد حوض البحر المتوسط بحراً .

ومما تقدم نستخلص أن سكان مدينـــة يوهسبيريدس في العهد الباطي يتكونون من العناصر التالية :

العنصر الليبي : ويتكون من أفراد قبيلتي الأوسكيز والناسامونة وبعدد أقل من أفراد قبيلة البكاليس الصغيرة وهي القبائـل الليبية التي تسكن السهل الذي تتوسطه مدينة يوهسبيريدس .

العنصر اليوناني: ويتكون من اليونانيين الذين قدموا الى هذه المدينة منذ فترة الاستقرار الأولى لليونان وهم أقلية ثم من اليونانيين الذين استقدمهم أرشيزلاو الرابع سنة ٤٦٠ ق.م.

عناصر أخرى : أقليات صغيرة يحتمل وجودها في مدينـــة يوهسبيريدس

وتكوّنها جاليات من اليهـــود ومن شعوب البحر المتوسط الأخرى اجتذبتها الحركة التجارية في المدينة .

وليس من المستطاع التكهن بتعداد سكان هذه المدينة في تلك الفترة المبكرة من تاريخهـــا ، وان كان المظنون أن عدد سكانها ليس بالقليل وأن غالبيتهم من الليبيين حتى سنة ٤٦٠ قبل الميلاد على الأقل .

ومن النقود التي عثر عليها وأرجعت الى المدينة في عهدها الملكي نجد رسم الدلفين ورسم نبات السلفيوم الى جانب رسوم أخرى لا يهمنا أمرها في هذا المكان بالذات وقد رأى بعض المؤرخين أن الدلفين يرمز الى القوة البحرية التي تمتلكها دولة المدينة أو الى الحركة البحريـــة الواسعة التي تميزها عن بقية المدن البرقية . وثانيهما رأي له قيمته في نظرنا فمدينـــة يوهسبيريدس تتمتع بموقع استراتيجي ممتـــاز من الناحية الجغرافية لا يتوفر لأي من المدينتين الأخريين برقة وقورينة لوقوعها على غير مقربة من الشاطيء ولا يتوفر حتى لمدينة تيوكيرا الواقعة على الشاطيء لافتقار هذه الى الميناء الطبيعي الحصين . أما أبولونيا ميناء قورينة فقد تأخر ازدهاره الى وقت لاحق .

وكان ميناء يوهسبيريدس ذا إهمية تجارية كبيرة ولا شك فإن أفرادقبيلة الناسامونة الذين عرفوا طريقهم الى الصحراء ، والى أواسط القارة قد مارسوا التجارة البرية مع تلك الشعوب وكانت مدينة يوهسبيريدس سوقهم الطبيعية مما يدعونا الى احتمال قيامها بتجارة الترانزيت في العالم اليوناني بـين أواسط القارة وبلدان حوض البحر المتوسط اليونانية .

والدلفين بعد هــذا حيوان بحري مقدس يرمز الى بوسيدون Poseidone ذلك المعبود الذي قال عنه هيرودوت إن اليونانيين قد عرفوه عن الليبيين

وجزم بأنه معبود ليبي الأصل ، وهو نفسه المعبود الذي عرفه الرومان فيما بعد بأسم نبتون Nepton وهذا المعبود هو سيد البحار وفي قاعها قصره الذهبي فإذا ما اتخذته مدينة يوهسبيريدس شعاراً لها تحمله نقودها فإن لهذا تفسيرين : أولهما يتفق والرأي القائل بأنه رمز للقوة البحرية التي تمتلكها دولة هذه المدينة، وهي قوة سيبدو دورها فيما بعد أثناء الصراع مع قرطاجنة، وثانيهما يرمز الى الأصل الليبي لهذه المدينة إذا ما سلمنا بصدق رواية هيرودوت حول هذا المعبود بوسيدون .

أما نبات السلفيوم فهو أشهر من أن نتحدث عن أهميته في ذلك العصر ورسمه على نقود هذه المدينة الراجعة الى العهد الباطي إنما يعني أن هذا النبات كان من بين منتجاتها وأبرز صادراتها وقد حدد بعض المؤرخين الذين جاءوا بعد هذا الزمن منطقة السهل بأنها المنطقة التي يكثر فيها هذا النبات .

وبالعودة إلى ما سبق وأن ذكرناه حول تفسير التسمية في أحد رأيي بنديتو بوناتشيلي في أول فصول هذه الدراسة نجد أن هذا الرأي منه قد قام أصلاً على أنها مدينة ذات بساتين أو مزارع عديدة ؛ وبالعودة الى وصف هيرودوت لمنطقتها بالجودة وزكاء التربة الى حد أنها تعطي المائة ضعف في السنوات المطيرة ، ندرك وبسهولة أن المنتجات الزراعية ولا سيما من الحبوب، وربما من الزيتون أيضاً ، كانت تكون الدعامة الإقتصادية لسكان هذه المدينة من غير التجار ولا سيما من الليبيين .

وخلاصةالقول هو أن الحياة الإقتصادية لهذهالمدينة كانت منذ العهد الباطي مزدهرة لقيامها على الزراعة والتجارة دعامتي الإقتصاد في الزمن القديم .

٨ ـ العهد الجمهوري ويوهسبيريدس :

لما فقدت الباطية عرشها بموت أرشيزلاو الرابع آخر ملوك هذه الأسرة تحولت حكومات المدن البرقية جميعها الى نوع من النظام الجمهوري ، ويبدو أن كلاً من حكومات هذه المدن قد استعادت استقلالها الذاتي ففقدت بذلك وحدتها باختفاء رمز هذه الوحدة المفروضة . كما يبدو أن التنافس بين هذه المدن على الزعامة قد خفت حدته كثيراً ليس فقط بزوال النظام الذي قضى عهده في إثباته لصالحه وإنما بسبب الدفعات القوية التي أكدت تفوق مدينة قورينة في الإقليم ولا سيما بعد النكسة التي نتجت عن الغزو الفارسي الذي أصاب مدينة برقة وربما يوهسبيريدس أيضاً بالدمار الشامل . بل يبدو أيضاً أن هذا التنافس قد تحول الى نوع من المنافسة الحرة في الميادين الإقتصادية الأمر الذي عاد بالرخاء والإزدهار على جميعها فتمتعت بعهد من الثراء جعل المؤرخين يتمدحونه بوصفه بأنه العصر الذهبي في تاريخ هذه المدن .

ويبدو أن المدن البرقية التي استقلت احداها عن الأخرى في الشؤون الداخلية والإقتصادية والسياسية قد عرفت في نفس الفترة نوعاً من التحالف يجمعها في جبهة واحدة ضد قرطاجنة الفينيقية. حقيقتان تبرزهما لنا أحداث هذا العصر التاريخيةسواء بالنسبة لمدينة يوهسبيريدس التي نؤرخ لها أو بالنسبة لتاريخ المنطقة عموماً .

لقد أدى تكاثر العنصر اليوناني في مدينة يوهسبيريدس في عهد آخر ملك باطي الى اختلال توازن القوى في مجتمع المدينة التقليدي فانتهى بذلك عهد الصداقة والتفاهم بين الشعبين وإلى تصادم العنصرين في صراع مسلح دفع بالليبيين إلى مهاجمة المدينة ومحاصرتهم لها عدة مرات . ويحدثنا التاريخ عن إحدى هذه الهجمات الليبيةفيروي لنا أن جليبوس Gilippo الإسبرطي الذي

كان موفداً سنة ٤١٣ قبل الميلاد على رأس جيش يوناني من البلوبونيز لنجدة سيراكوزة في صقلية قد قذف إعصار بحري باسطوله الى شاطىء هذه المدينة فوجدها محاصرة من الليبيين ، وأنه سارع الى نجدة سكانها اليونانيين ، واستطاع بعد معارك عنيفة أن يفك الحصار عن المدينة وأن يبعد عنها الليبيين[١٧] .

ويبدو أن الخطر الليبي قد استمر يهدد هذه المدينة بعد ذلك طويلاً إذ ان التاريخ يحدثنا عن حامية عسكرية يونانية استقرت بها بعد ثماني سنوات (سنة ٤٠٦ قبل الميلاد) .

وكان السبب في مجيئهم إليها فيما يرويه برساري واستقرارهم بها هو أن الإيوهسبيريديين قد وجهوا دعوة الى جميع الإغريق للاستقرار بينهم كمواطنين واعانتهم على مقاومة الليبيين . وقد استجاب عدد كبير من المسانيين Messeni تحت إمرة شخص منهم يدعى كومونيس Comone كانوا قد طردوا من اللاكسيديمونيين Lacedemoni في حرب البيلوبونيز . وبعد أن اصطدموا مع القورينيين في معركة حاولوا فيها السيطرة على قورينة أو الاستقرار بها وموت أكثرهم لم يصل إلى مدينة يوهسبيريدس غير القليل[١٨] .

وفيما يرويه كل من باوزانيوس Pausania (الرابع ٢٦) وديودور الصقلي (الرابع عشر ٣٤) فان هؤلاء النفر الذين تكونت منهم الحامية العسكرية المذكورة قد استقروا حتى سنة ٣٦٩ قبل الميلاد ثم عادوا الى مسانيا Messenia بأركاديا من بلاد اليونان .

وهذا الذي تقدم من وقوف مدينة يوهسبيريدس لوحدها في صراعها ضد الليبيين الى جانب ما عثر عليه من نقود خاصة بهذه المدينة أرجعت إلى العهد الجمهوري هو ما حملنا على الاعتقاد بأن مدن برقة كانت مستقلة إحداها عن الأخرى طوال العصر الجمهوري ، وهناك شواهد أخرى كثيرة على هذا

الإنفصال أو الإستقلال في تاريخ كل من قورينة وبرقة تؤكده ولا تنفيه . أما عن التحالف أو الحلف الذي وحد بينها أمام العالم الخارجي ، فإننا نجده في رواية سالوستيوس[١٩] أهم المصادر التاريخية في الصراع الذي نشب بين البرقيين والفينيقيين في القرن الرابع قبل الميلاد ، يقول هذا المؤرخ في كتابه « حرب يوقورثا » (الفصل LXXIX) ما ترجمته :

« في الوقت الذي عنى فيه القرطاجنيون بالسيطرة على الجانب الأكبر من افريقيا [الشمالية] كان القورينيون قد أصبحوا هم أيضاً أقوياء وذوي مطامع . وكان هناك بينهما منطقة رملية مستوية لا نهر ولا جبل بها يمكن اتخاذه حداً بين البلدين الأمر الذي جعلهما وبسبب التنازع عليها في حالة حرب ضروس ومستمرة ، غير أنهما في النهاية رأيا أن جيشيهما وأسطوليهما قد تبادلا النصر والهزيمة مراراً وأنهما إذا أمعنا في صراعهما فسيضعفان معاً ، وخوفاً من أن يتدخل طرف ثالث في الصراع فيقضي على الغالب والمغلوب معاً فقد تهادنا واتفقا على تخطيط الحدود بينهما ... الخ »

وفي هذه الفقرة بالذات من كلام سالوستيوس ملخص وافٍ لأحداث تلك الحرب التي نشبت بين القوّتين الواقعتين إلى الغرب وإلى الشرق من خليج سرت ، واعتراف واقعي وصريح بقوة المدن البرقية المتحالفة بحراً وبراً على السواء وبدرجة مكنتها من تحدي أضخم قوة بحرية في الحوض الغربي من البحر المتوسط حتى أجبرتها على الاعتراف بحق البلدين في المنطقة المتنازع عليها في نهاية الصراع في حدود سنة ٣٥٠ قبل الميلاد .

ووقفة على خريطة الإقليم تبين لنا أن مدينة يوهسبيريدس هي أشد مدن برقة صلة بهذا الصراع باعتبارها آخر دويلة في برقة إلى الغرب وأن هذا الموقع يجعلها تتحمل العبء الاكبر في هذا الصراع باعتبار المنطقة المتنازع عليها

متاخمة لحدودها الغربية . وحتى من حيث القوة البحرية التي اشتركت في هذا الصراع فإننا نحتمل أن أسطول يوهسبيريدس كان أقواها جملة بالنظر لموقع المدينة من البحر بالنسبة إلى برقة وقورينة معاً وحتى مدينة تيوكيرا، فبالرغم من وقوعها على الشاطىء هي الأخرى إلا أن انعدام الميناء الطبيعي بها وضيق أراضيها المحصورة بين برقة ويوهسبيريدس يجعلها أقل مقدرة على تقوية الأسطول من هذه . إذن فإن مدينة يوهسبيريدس في العصر الجمهوري وخاصة في منتصف هـذا العصر كانت مدينة قوية الجيش قوية الأسطول قادرة على الحيـاة على الرغم من فترة النزاع الطويلة التي انقضت بين سكانها من الليبيين والإغريق .

ويبدو أن تحالف المدن البرقية في الصراع على منطقة النفوذ بين اليونانيين والفينيقيين قد أعـاد موضوع التنافس بينهما على الزعامة من جديد ، وبعد فترة من الزمن لا تجاوز العشرين عاماً من نهاية هذه الحرب نجد هذه المدن في صفين متقابلين وقد انحاز كل منهما إلى جانب يؤيده على الآخر كما كان الوضع قبل الغزو الفارسي .

في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد احتل الاسكندر المقدوني مصر وزحف في رأي بعض المؤرخين بجيشه قاصداً قورينة وبقية المدن البرقية واتجه الى مدينـة برتونيوم (مرسى مطروح) ليتخذ منها طريقه الى معبد أمون بسيوة في رأي بعض المؤرخين الآخرين، وأي الرأيين أصدق تاريخياً، فإن الإسكندر المقدوني قد وجد في استقباله بهذه المدينة وفداً من أعيان مدينة قورينة ليقدم إليه هدايا المدينة ومن بينها بضع مئات من الخيول الأصيلة وليعلن خضوع القورينيين واستسلامهم لحكمه في رأي بعض المؤرخين الأمر الذي جعله يغير اتجاهه نحو أمونيا حيث معبد جوبيتر أمون أو أمون الكبشي . والذي يهمنـا من هذه

الحادثة هو أن الإسكندر لم يدخل برقة بجيشه محتلاً ولكن هذه الحادثة كانت بداية خصام بين مدن برقة ، ففي الوقت الذي كانت فيه قورينة قد جنبت نفسها الدخول معه في حرب خاسرة تضعفها وتفقدها زعامتها على بقية الإقليم وفي الوقت الذي تتحزب لها مدينة أبولونيا (ميناؤها) ومدينة تيوكيرا كحليفة لها نجد مدينة برقة ومدينة يوهسبيريدس تبديان نوعاً من الاستياء لهذا الخضوع السريع والذي لا مبرر في نظرهما له وهما قد خرجتا من حربهما مع قرطاجنة بتحالفهما مع المدن الأخرى منتصرتين . غير أن هذا الاستياء لم يبد صريحاً إلا في الأحداث التالية .

وقد استنتجنا هذا الإستياء استنتاجاً ليمكن تفسير الأحداث التالية والتي أدت إلى تقابل هذه المدن في جبهتين متضادتين بمجرد وفاة هذا البطل الأعجوبة في التاريخ سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ، واستندنا فيه إلى عامل إثبات الكيان البرقي أمام قرطاجنة الذي أشرنا إليه وإلى عامل نفسي مترسب في تاريخ المدينتين ، فقد سبق لأرشيزلاو الثالث أن أبدى خضوعه وربما بنفس الطريقة للجيش الفارسي وكانت النتيجة تسيير تلك الحملة الفارسية على برقة بنتائجها التي لا يمكن أن تنسى ممن كان ضحيتها المباشرة .

٩ – يوهسبيريدس في العهد البطلمي :

صحب موت الاسكندر المقدوني حالة من القلاقل والفتن التي عمت سائر أنحاء الأقاليم المكوّنة للملكة الواسعة التي كوّنها ، ووجد المغامرون من صغار القواد وكبارهم فرصة مؤاتية للحصول على مكاسب شخصية تحقق أطماعهم العريضة . ولم تنج المدن البرقية من التعرض لهذا المصير ، فإن تنافس الطبقة الحاكمة فيما بينها على السلطة وتضعضع مركزها الذي كانت تستند فيه على

قوة نفوذ الإسكندر قد أعطى الفرصة لبقية مدن الإقليم أن تنغمس في هـذا الصراع فانحازت أبولونيـــا وتيوكيرا الى الفريق الذي يتزعمه ميناسيكلس الكريتي وانحازت برقة ويوهسبيريدس الى الفريق الذي يتزعمه ثبرون الإسبرطي غير أن حزب العامة الذين سئموا حياة الصراع قد قام بانقـــلاب في مدينة قورينة بينما كانت هذه محاصرة من ثبرون وطرد منها طبقــة الأشراف فانضم بعض هؤلاء إلى ثبرون بينما لجأ البعض الآخر الى مصر للاستنجاد ببطلميوس الذي اغتنم الفرصة فسيَّر جيشاً بقيادة أوفلاس Orfella إلى برقـــة ، وانضم الليبيون في هذا الصراع إلى جانب الجيش المصري فأدى هذا الى هزيمة ثبرون على الرغم من انضمام ميناسيكلس اليه ضد أوفلاس وتمكن بعض أصحـــاب العربات من الليبيين من القبض على ثبرون الإسبرطي وتسليمه لأوفلاس الذي اقتاده الى أبولونيا حيث قتل ومثِّل به تشفياً وانتقاماً . وفي نفس السنة زار بطلميوس الأول برقة ومنحها فيما يراه بعض المؤرخين والأثريين ذلك الدستور السخي الذي عثر على نصه بين الآثار(٢٠).

وفي هذه الفترة القلقة من تاريخ البلاد نجد مدينة يوهسبيريدس قد انحازت الى جانب ثبرون في الصراع مع حليفتها التقليدية برقة ، نتساءل عن الدافع لهذا التحزب فنجده نتيجة لذلك التنافس التقليدي بين جميعها على الزعامة في قيادة الإقليم . وما من شك في أن هزيمــة الجانب الذي انضمت هــذه المدينة اليه إنما يعني هزيمتها هي أيضاً كما يعني هزيمة برقة كذلك . وبحكم مؤازرتهـــا لثبرون الإسبرطي فلا بد وأن جندهما قد وقف في وجه الحملة العسكريـــة القادمة من مصر مما استوجب معاقبتهما على تمردهما ومقاومتهما لأوفلاس وجيشه وعلى وقوفهما الى جانب ثبرون في نفس الوقت . ومع أن التاريخ يصمت فلا يتحدث الينا عن تفصيلات حملة أوفلاس هذه إلا في صورة إجماليـــة فإننا نحتمل أنهما قد تحملتا أكثر من غيرهما مغبة ذلك الموقف العدائي ففقدتا الكثير

من مكانتها وثروتها واستقلالها .

ويحدثنا التاريخ عن ثورة برقة (الإقليم) على الجيش البطلمي المحتل سنة ٣١٣ قبل الميلاد أي بعد تسعة أعوام من الأحداث الأولى وعن حملة تأديبية ضد الثوار أعادت البلاد الى سلطان البطالمة من جديد تحت إدارة حاكمها منذ الإحتلال الأول أوفلاس . ولا تسعفنا المصادر التي بين أيدينا وهي مصادر ثانوية تنقل عن ديودور الصقلي[٢١] وعن جوستين[٢٢] بأية تفصيلات عن الثورة ولا عن الحملة التأديبية ضد برقة ، فلم نتمكن بالتالي من معرفة دور مدينتي برقة ويوهسبيريدس فيها ، ولو جاز لنا الاستنتاج هنا أيضاً لاحتملنا قيام هاتين المدينتين مع بقية العناصر الناقمة على التدخل البطلمي في برقة ثم استمرار جيشهم في احتلالها ، إذ لا بد وأن تشعر العناصر المغلوبة على أمرها بشدة وطأة الإحتلال الى جانب مرارة الهزيمة . وإذا صح هذا فإن حملة التأديب لا بد وأنها قد وجهت ضد هاتين المدينتين بالذات ضربتها المباشرة وفي قسوة ووحشية كانت كافية لتدميرهما والقضاء على معالم الحياة فيها كلية .

يدعونا إلى هذا الإحتمال اختفاء ذكر مدينة يوهسبيريدس من الأحداث التاريخية التالية لمغامرة ثبرون ثم بروزها بعد ذلك بأكثر من نصف قرن كمدينة جديدة وفي موضع وباسم جديد . الأمر الذي يعني أن تدميرها كان شاملاً وعنيفاً إذ لا تنتهي حياة المدن عادة في مثل هذه السرعة من الزمن اللهم إلا متى تعرضت لعوامل طبيعية كالزلازل وهو ما لم يشر إليه واحد من قدماء المؤرخين . كما يشجعنا على التقدم بهذا الإحتمال أن برقة كمدينة قد اختفت من التاريخ ، وفي نفس الفترة التي انتهى فيها ذكر مدينة يوهسبيريدس بهذا الإسم في التاريخ ، وبرزت بطلميوسة (ميناء برقة) كبديلة لها بين مدن الإتحاد وفي نفس الوقت الذي برزت فيه مدينة برنيس .

وسواء كان القضاء على مدينتي يوهسبيريدس وبرقة بسبب موقفها العدائي من جيش أوفلاس أو بسبب الثورة على هـذا الحاكم البطلمي سنة ٣١٣ قبل الميلاد فإن الأمر لا يختلف في الواقع كثيراً بالنظر لتقارب الزمن بين الحادثتين.

١٠ – خاتمة هذا الفصل :

هكذا نشأت أو على الأصح برزت مدينة يوهسبيريدس فجأة من بين مجاهل التاريخ وذكرت لأول مرة في نص أرجع تاريخه الى سنة ٥٢٨ قبل الميـلاد واستمرت تحمل هذا الاسم بتطوراته التي ذكرناها في الفصل الأول حتى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد بالتأكيد والى سنة ٣١٣ قبل الميـــلاد احتمالاً ثم اختفت من التاريخ بهذا الاسم بعد ذلك فكانت فـترة حملهـا لهذا الاسم ٢١٥ سنة أو حوالي ذلك .

ويلحظ الباحث أن مدينة يوهسبيريدس قد ظلت طوال أحداث تاريخهـا هذا حليفة صادقة لمدينة برقة وفي الصف المضاد لقورينة، هكذا وجدناها يوم تعرضها للاحتلال الفـــارسي وهكذا كانت في مغامرة ثبرون وهكذا كانت بين هاتين الفترتين . وقد حاولنا أن نستشفَّ لهذا التحالف سبباً فلم نره في غير وحدة العنصر الليبي فيها لانتمائه الى قبيلة ليبية واحـدة هي قبيلـــة الأوسكيز .

وللأمانة التاريخية نسجل هنا أن ما وقفنا عليه من تاريخ المدينة في هذه الفترة من الزمن قليل وبأن الثغرات التي تتخلل الأحداث كبيرة ومتعددة وأن، في محاولتنا التوصل إلى فهمها بالإستنتاج والاستقراء حتى وإن ارتكز على سند تاريخي ، كثيراً من المجازفة التي قد لا يرضى عنها حنابلة النص من المؤرخين ولكن عذرنا في هذا أنه الطريق الوحيد لإبراز الوحدة التاريخية في تسلسلها رغبة في حصر الثغرات التاريخية بين حدين من الزمان .

الفصل الرابع

الهوامش والتعليقات

١ — ذلك أن الاقتصار على المدينة بحدودها الإدارية لا يمكن أن يعطينا أي شيء عن بقايا الإنسان الأول وآثاره ، حتى ولو وجدت بكثرة لانتشار المباني وتعاقبها تاريخياً وعبث الانسان بالسطح ، مما يضيع الأثر الحجري وغيره ، وقد درج العلماء على توسيع دائرة البحث حول المنطقة حتى يمكنهم التوصل إلى الكشف عن شيء ذي دلالة خاصة في هذا المجال .

٢ — أو كما تسمى علمياً : الباليوليتيك Paleolitico ، والمسوليتيك Mesolitico ، والنيوليتيك Neolitico .

٣ — V. Zanon : - « Appunti Di Paletnologia Bengasina », Mem. Pont. Accad. delle scienze Nicovi Lincei IX. Roma 1928.

٤ — A. Fantoli : - « La Scoperta Di Manufatti Litici in Libia», in Rivista delle Colonie Italiane. Anno III, N. 10-11 (1929), Anno IV, N. 1 (1930).

٥ — N. Puccioni:- « Di Alcuni Manufatti Litici Raccolti in Cirenaica », in Cirenaica Geografica, Economica, Politica. Milano 1922.

٦ — A. Fantoli : — المصدر السابق .

٧ — C. Petrocchi:- «Resti Di Industria Litica E La Grotta Di Hagfet Et - Tera », Est. Boll. Soc. Geolog. Italiana. Vol. LIV 1935.

٨ — C. Petrocchi:- « Ricerche Preistoriche in Cirenaica », in Africa Italiana. Anno XVIII Vol. VII (Apr. 1940).

٩ — وقـد أجرى عليها بتروكي دراساته الحفرية ، واستطاع لأول مرة في تاريخ هذه البلاد أن يقدم معلومـات أثرية عن العصر الحجري مستنداً الى تتابع طبقي يمثـل مركزاً حضارياً للعصور الحجرية : القديم ، والأوسط ، والحديث . ويقول هذا البحاثة إن هذا الكهف ليس إلا واحداً من عدة كهوف مماثلة اختاره ولم يجر بحثه إلا على جزء منه دون بقية الكهف . وقـد ذكر في تقريره الأول المذكور في الهامش السابق نوع الحياة البشرية والحيوانية لتلك العصور السحيقة كما أوضح في إيجاز نوعاً من العلاقة بين التعاقب الطبقي للكهف وبـين الفترات المطيرة في العصر الجليدي ، وختم مقـاله بخمس وعشرين لوحة لرسوم الآلات الحجرية التي عثر عليها في حقفة الطيرة وفي غيرها من الأماكن مما يجعل لمقاله ذاك أهمية خاصة عند الباحثين .

١٠ — هناك أكثر من رأي حول تاريخ زيارة هيرودوت لقورينة، فهناك مـن يقول بالذي قلنا به ومنهم من يرجعها الى أحدث من ذلك، الى سنة ٤٤٥ قبل الميلاد ، وسواء أخذنا بالذي قدمناه أو بهذا التاريخ أو بغيره فإن الأمر لا يختلف من حيث نتائج الموضوع الذي نبحث فيه .

١١ — ونستثني من هذه القاعدة ما يتعلق من كتابه بالمدن والحضارة المصرية التي بهر بها كما بهر سواه ، والتي كانت أعظم وأبرز من أن يتجاهل وجودها في تاريخه .

١٢ — تريتون معبود ليبي أو إغريقي قديم جداً ربط أسطورياً ببوسيدون الليبي كابن له لوحدة طبيعتهما البحرية ، وفي الفصل الخــاص بالأساطير الميثولوجية حديث كاف عن هذا المعبود فارجع إليه .

١٣ — وهذا الـ Tripode هو نذر Ecatombe جاسوني ورفاقه الأرجوتيين الى آلهة الأوليمب ولكنهم اضطروا لاهدائه الى تريتون حتى يساعدهم على الخروج من بحيرة تريتونيس التي رمت بهـــم فيها عواصف هوجاء (راجع الفصل الخاص بالأساطير الميثولوجية من هذه الدراسة) .

١٤ — كان للصراع الداخلي العنيف بين الأسرة الحاكمة والطبقة الأرستقراطية من جانب ، وكان لاحتلال الفرس مصر من جانب آخر ، وكانت رغبة الحكومة الباطية في عدم الدخول في الصراع الناشب بين الفرس واليونان من جانب ثالث عوامل أساسية في مسارعة ملك قورينة بإبداء الخضوع الأسمى والمؤازرة المعنوية لقمبيز حتى يكتسب عن طريقهم قوة جديدة تدعم عرشه وسلطانه. راجع في هذا إبراهيم نصحي: تاريخ مصر في عصر البطالمة (أول) و Thrige في Res Cirenensium وغيرهما .

١٥ — دكتور ابراهيم نصحي : تاريخ مصر في عصر البطالمة الأول ص ٦ .

١٦ — هناك خلاف بين المؤرخين المحدثين في هذه الحادثة وأشهر هذه الروايات ما قدمناه هنا ، وأمـــا الرأي الثاني ومصدره هيراقليدس Heraclide فيرى أن أرشيزلاو الرابع قــد قضي عليه في قورينة ذاتها وأن ابنه باطوس الأخير هو الذي قتل في يوهسبيريدس ، ولكن آخر ملوك الأسرة هو أرشيزلاو الرابع ولم يتوَّج بعده أحد كملك في برقة من هذه الأسرة على أشهر وأوثق الروايات ، والذي قتــل ومثِّل به في يوهسبيريدس هو آخر ملوك هذه الأسرة وليس سواه .

١٧ — Tucidide, VII, 50 .

١٨ – Geografia Etnologica etc... pag. 154. Fer. Borsari : -

١٩ – La Guerra Giugurtina Cap. LXXIX Caio Sallustio Crispo : -
pp. 199/200. Bologna 1965.

٢٠ – دكتور نصحي : المصدر السابق ، ص ٥٦ ، ٨٠ وغيره : Oliverio
II/II 164.

٢١ – الكتاب ٢٠ – فصل ٤١ الى ٤٣ .

٢٢ – الكتاب ٢٢ – الفصل ٧ .

الفصل الخامس

تاريخ مدينة برنيس

- مدخل .
- وضع الإقليم في بداية هذا العهد .
- المدينة بين ماجاس وبرنيس .
- المدينة الجديدة تحمل اسم برنيس .
- مدينة برنيس حتى آخر العهدالبطلمي .
- سكان مدينة برنيس في العهد البطلمي .
- حق المواطنة في تشريع بطلميوس.
- وضع برنيس السياسي والإقتصادي.
- عقائد ومعبودات المدينة في العهد البطلمي .
- مدينة برنيس في أول العهد الروماني .
- مدينة برنيس وثورة اليهود .
- مدينة برنيس حتى آخر العهد الروماني.
- المسيحية في برقة وفي برنيس .
- مدينة برنيس والمواطنة الرومانية .
- الفنون والثقافة والعمران في برنيس .
- مدينة برنيس في العهد الإسلامي .
- الهوامش والتعليقات .

الفصل الخامس

تاريخ مدينة برنيس

١ – مدخل :

انتهت بنا رحلتنا مع يوهسبيريدس عبر التاريـــخ في الفصل الرابـع عند آخر حادثة ذكرت فيها المدينة بهذا الاسم في نصوص التاريخ وغير مقرون باسم برنيس . كما انتهت بنا عند إخماد الثورة البرقية والتي اندلعت في مدن برقة ضد الحكم البطلمي المباشر . وحتى فترة بروز هذه المدينة باسمها الجديد برنيس حدثت مجموعة أحداث تاريخية هامة نوجزها في هذا التقديم: فقد انتهت باحتلال الاسكندر المقدوني لمصر أو بموته كما سبق القول تلك الفترة الذهبية من الحكم الذاتي للمدن البرقية والتي عرفت بالعهـــد الجمهوري . وسيَّر لها بطلميوس الأول حملته الأولى بقيادة أوفلاس وهي النجدة التي جاءت بناء على طلب بعض من لجأ إليه مستصرخاً من اعتداء ثبرون ومناسيكلس على بلادهم، غير أن الغاية من هذه الحملة قد تبين أنها الاحتلال وليس نصرة البرقيين : الأمر الذي سبب ثورة البلاد على حاكمه عليها أوفلاس والتي أخمدت في عنف وقوة على ما سبق وأن احتملناه ،غير أن أوفلاس نفسه قد راودته فكرة الاستئثار بحكم

البلاد لصالحه فاستقل بها بعد سنتين من ذلك التاريخ (سنة ٣١١ قبل الميلاد) متحالفاً مع اجاتوكليس Agatocle الصقلي في غزو قرطاجنة غير أن الطموح هالك فقتل من حليفه غيلة ، وبهذا انتهى أمره في التاريخ .

وسير بطلميوس حملتــه الثالثة بقيادة ماجاس Magas ابن زوجته برنيس سنة ٣٠٨ قبل الميلاد حتى يسترجع البلاد تحت الحكم البطلمي من جديد . ويبدو أنماجاس لم يلقعناء كبيراً في استعادتها وعيّن عليها نائباً لبطلميوس . وباستثناء ما حدث عقب وفاة بطلميوس الأول من تمرد ماجاس على أخيـــه الذي تولى حكم البلاد باسم بطلميوس الثاني وعدم اعترافه بالتبعية له وعزم كلا الأخوين على إبعاد الثاني بقوة السلاح وتخليها عن ذلك لأسباب أخرى فرضت على كليهما التخلي عن الفكرة قبل التصادم بين القوتين ، فان حادثاً ذا بال لم يطرأ على البلاد حتى ذكرت المدينة باسم برنيس .

وفي هذا الفصل سنتابع أحداث تاريخ هذه المدينة حتى ينتهي في التاريخ ذكرها باسم برنيس وبرنيق وهي فترة طويلة جداً تمتد لأكثر من ثمانية قرون يتوالى خلالها على حكم البلاد الرومان من بعد البطالمة والعرب والمسلمون ولا تنتهي إلا قبيل مجيء الأتراك بزمن قليل .

٢ – وضع الاقليم في بداية هذا العهد :

ويجدر بنا قبل الدخول في ذكر الأحداث التاريخية الخاصة بمدينة برنيس Berenice أن نتعرض – ولو في شيء من الإيجاز غير المخل – لشرح الوضع الدستوري الذي أصبحت البلاد عليه في بداية هذا العهد البطلمي ، ذلك أن أسلوب الحكم وحقوق المواطنة وصلة المدن البرقية ببعضها قد طرأ عليهـــا الكثير من التغيير الجوهري مما يجعل هذا الحديث ضرورة حتى نفهم بعدها

ما يعطينا إياه التاريخ حولها من نصوص متفرقة ينقصهـا الترابط والوحدة لكثرة ما يتخللها من ثغرات واسعة يكتنفها الغموض والظلام .

ولقد تعرضت مدن برقة خلال الربـع الأخير من القرن الرابـع قبل الميلاد لفترة من الاضطرابات والقلاقل جرَّتها الى عدة حروب وثورات استنزفت قواها وقضت على خيراتها وأفنت رجالها :

١ – نشوء النزاع بين الطبقة الارستقراطية في قورينة على الحكم وإشهارها السلاح ضد بعضها البعض .

٢ – تدخل ثبرون الإسبرطي وميناسيكلس الكريتي كمغامرين فيه وتحزب المدن البرقية وانحيازها في الصراع المسلح الى جانب هذا أو ذاك مدفوعة بالتنافس القديم فيما بينها على الزعامة للاقليم .

٣ – الانقلاب الديمقراطي ضد الأرستقراطيين وطردهم لهؤلاء خارج أسوار قورينة ،ولجوء المبعدين الى ثبرون والي مصر ،ويمكن اعتبار هذه السلسلة من الأحداث أمراً واحداً لوقوعها في بحر سنة ٣٢٣ ولاتصالها فيما بعضها كمسببات وأسباب لأحداث السنة التالية .

٤ – تسيير بطلميوس الأول لحملته العسكرية بقيادة أوفلاس على اعتبار أنهـا نجدة للقورينيين الذين استنجدوا به على طرد المغـامر ثبرون والحروب القاسية المريرة بين هذه القوات وقوات المغامرين ميناسيكلس وثبرون وتدخل الليبيين فيها وانتهاؤها سنة ٣٢٢ قبل الميلاد .

٥ – فرض السيـادة البطلمية على الإقليم باجمعه وثورة برقة على هذا الإحتلال سنة ٣١٣ قبل الميلاد .

٦ – تسيير بطلميوس لحملته العسكرية الثانية الـتي أعادت برقة إلى حكم

بطلميوس وقضت على الثورة في قسوة ووحشية وأعادت حكم أوفلاس باسم بطلميوس في السنة ذاتها .

٧ – تمرد أوفلاس على بطلميوس واعلان استقلاله ببرقة عن بطلميوس وفتكه بخصومه وانصار البطالمة في البلاد .

٨ – طموح أوفلاس وتسييره لأهل البـــلاد في حملة عسكرية ضد قرطاجنة متحالفاً مع اجاتوكليس والنهاية المؤلمة لتلك الحملة الفاشلة سنة ٣٠٨ .

٩ – تسيير بطلميوس الاول لحملته الثالثة ضد برقة بقيادة ابن زوجته ماجاس واستعادة هذا لبرقة تحت حكم بطلميوس في العام ذاته .

١٠ – ثورة برقة سنة ٣٠١ قبل الميلاد وتسيير حملة رابعة لاستعادتها وإخضاعها من جديد لحكم البطالمة تحت إمرة ماجاس كنائب للملك عليها .

حروب وثورات وحملات عسكرية قضت على قوة البلاد في جميع الميادين وفتن واضطرابات وتدخل أجنبي قوّض نظامهـــا السياسي الإجتماعي الذي سارت عليه قبل ذلك فكان لا بد لكل هذا من نشأة نظام سياسي واجتماعي جديد يتفق مع الوضع ويخـــدم مصلحة المحتلين لها من البطالة ويمكّنهم من السيطرة على هـــذا الإقليم . وقد اسعفتنا الظروف في العصر الحديث فوقع المنقبون على نص التشريع الدستوري الذي وضعه بطلميوس[1] بين آثار مدينة قورينة البطلمية فألقى هـــذا النص الأثري على الوضع الدستوري كثيراً من الضوء .

ومن هذا التشريع الذي تسامح الكثير من المؤرخين فسمّاه بالدستور البطلمي لبرقة نستخلص بعض الحقائق المتعلقة بما نبحثه الآن ، وأولى الحقائق هي أنه جعل المواطنة تمتد من كتاباثموس (السلوم) إلى أوتومالا (العقيلة أو قريب

منها) ولم يجعلها مقتصرة على المدن ومعنى هذا إذابة الشخصية الذاتية للمدينة كوحدة سياسية اقتصادية اجتماعية وبعبارة أدق تغيير أساسي في التنظيم السياسي الإجتماعي الذي اعتنقته البلاد طوال تاريخها السابق وعلى الأقل منذ أن سكنها الإغريق .

والحقيقة الثانية تعمُّد النص عدم تعيين المدن التي في هذا الإقليم بالإسم الذي أطلق عليها آنذاك أو في فترة لاحقة وهو اسم بنتابوليس (أي المدن الخمس)[٢] وهذا الإغفال المقصود إمعان من المشرّع أو الآمر بالتشريع على الأصح في القضاء على الشخصية الذاتية للمدن وبحيث لا تكون هناك فرصة لإحياء النظام القديم من جديد .

والحقيقة الثالثة في هذا التشريع هي أنه لم يقصر حق المواطنة على اليوناني ذي النسب الصريح[٣] وإنما ألحق بها طائفة المولودين من أُم ليبية وأب يوناني، وحرص واضع التشريع على إلحاقهم بالمواطنين يدل على أنهم كانوا كثيرين جداً، وإقحامهم على صرحاء النسب من الإغريق إنما يعني إغراق هؤلاء المواطنين بعنصر جديد كان فيما يبدو محروماً من حق المواطنة الأمر الذي يجعلهم يركنون إلى هذا السلطان الجديد الذي أنصفهم ويدفعهم حرصهم على هذا الحق إلى الدفاع عنه بدلاً من الثورة عليه . ومما يندرج تحت هذه الحقيقة ضمّ التشريع للمنفيين من سكان البلاد وهم كثيرون ولا شك ، إذا ما أرجعنا عامل النفي إلى الأحداث السياسية العسكرية التي سادت الإقليم في تلك الفترة ؛ وضمه أيضاً لجميع الجنود المرتزقة الذين أنزلهم أهل المدن مناطق نفوذهم للدفاع عنها وهي طبقة لا تكتسب عادة هذا الحق بسهولة . ويندرج تحت هذه الحقيقة أخيراً أنه أعطى بطلميوس نفسه حق إسباغ المواطنة على من يستقدمهم إلى البلاد من غير سكانها المقيمين .

هذه الحقيقة بجميع عواملها التي ذكرناها إنما تهدف أولاً وأخيراً إلى إغراق العنصر اليوناني المستأثر بحقوق المواطنة بعناصر جديدة يجعلها حرصها على الاحتفاظ بهذا الحق مستميتة في الدفاع عنه ، وهذا ينسجم كلية مع الحقيقتين السابقتين ، وثلاثتها تخدم فكرة عامة مشتركة واحدة هي اقتلاع النظام القديم من جذوره السياسية والإجتماعية والإقتصادية فلا يبقى لنظام « دولة المدينة» ، الذي سبب ويسبب للحاكم الأجنبي الكثير من المتاعب ، أي وجود.

ولا يهمنا هنا من بقية مواد هذا التشريع الخمس عشرة جميع محتواها فنحن لا ندرسه كتشريع كما اننا لا نؤرخ لبرقة في مجموعها وإنما يهمنا أن نشير إلى أن غالبية الأعداد التي ذكرت فيه قابلة للقسمة على خمسة (عشرة آلاف ، خمسمائة ، مائة (وواحد = هو نائب بطلميوس ؟) خمسة ، تسعة = (زائد نائب الملك ؟) ، ألف وخمسمائة) ، الأمر الذي حدا بالكثيرين ممن درسوه إلى اعتبار أنه كان يسير في تعيينه للوظائف التي تعنيها هذه الأرقام على أساس خمس وحدات ليست هي غير المدن الخمس التي يتكوّن منها هذا الإقليم . ونحن لا نستبعد هذا فإن أي مشرّع لا بد وأن يكون الواقع ركيزته ومنه انطلاقه إن شاء لتشريعه التطبيق أو الحياة .

ونلاحظ عن واقع الإقليم آنذاك أن المدن الثلاث القوية : قورينة — برقة — يوهسبيريدس(٤) قد زعزع وضعها وأضعفت مكانتها كثيراً إبان أوائل العهد البطلمي ، فقورينة قد فصل عنها ميناؤها أبولونيا ، فحرمت بهذا من الصلة بالبحر ، وشعوبه إذن توترت علاقتها مع هذه المدينة التي أصبحت لها منافساً جديداً ؛ وبرقة قد خلقت لها هي الأخرى منافسة خطيرة أمكنها القضاء عليها وفي سرعة بل ربما حلت محلها في المكانة بين مدن الإقليم منذ أول هذا العهد ، ومدينة يوهسبيريدس قد برهنت لنا الحفريات على أنها قد

قضي عليها كمدينة حتى عادت إلى الوجود من جديد باسم برنيس . أما مدينة تيوكيرا فقد حماها صغرها وقلة ما يتبعها من مناطق من مثل هـــذا التحطيم المعنوي والمادي للكيان الذاتي .

وهكذا نجد أن الحروب والفتن والثورات قد قضت على قوة هذه المدن وأن الإحتلال البطلمي قـــد قضى على كيانها المستقل لينشىء منها منطقة نفوذ خاضعة للعرش البطلمي ، ومن التاريخ نعلم أنهم نجحوا بهذا في الذي أرادوه إذ لم يعد لأي من هذه المدن كيان ذاتي مستقل .

٣ – المدينة بين ماجاس والأميرة برنيس :

في الفقرة السابقة أوضحنا كيف عمل الحكم البطلمي منذ أول عهده على إزالة الذاتية المستقلة لمدينـــة يوهسبيريدس وغيرها من مدن الإقليم سواء بالتشريع أو بأسلوب الحكم القائم على مبدأي : « التآكل الذاتي في الصراع » و « مسخ الذاتية القائمـة » وكيف نجح فيه . ومن الطبيعي أن تتلاشى الشخصية الذاتية لهذه المدينة في التاريخ منذ أن أصبحت أحداثها جزءاً غير متميِّز من أحداث سائر الإقليم .

ولا يحدثنا التاريخ عن هـــذه المدينة بأي شيء حتى يشير الى مجهودات الأميرة برنيس في إصلاحها وذلك بعد حوالي ثلاثة أرباع القرن من مغامرة ثبرون . غير أنه بالمقارنة بين هذا الخبر التاريخي وبين ما كشف عنه حديثــاً من موقع مستقل لمدينة برنيس عن المدينة السابقة يوهسبيريدس يجعلنا نعتقد أن الأمر كان يتعدى الإصلاح الى إعـــادة التشييد الكامل للمدينة مما يجعلنا نتساءل : هل يعود الفضل في إعادة تشييد هذه المدينة الى الأميرة برنيس ، أو الى أبيها ماجاس ، أم انه يعود الى زوجها بطلميوس ؟ وهذا سؤال يدفع

بنا الى مناقشة هذا الموضوع على الرغم من ندرة ما تحت أيدينا من معلومات واضحة بما فيه الكفاية عن أحداث هذا العهد من التاريخ .

إن فترات الحكم التي يمكن أن تكون فيها برنيس قد وجدت كمدينة جديدة بعد تدميرها كمدينة باسم يوهسبيريدس يمكن أن تحصر في واحد أو أكثر من العهود التالية :

عهد ماجاس من ٣٠٨ الى ٢٧٤ ق.م. كنائب عن بطلميوس .
عهد ماجاس من ٢٧٤ الى ٢٥٨ ق.م. كملك مستقل بالبلاد .
عهد أباما وديمتريوس من ٢٥٨ الى ٢٥٥ ق.م. كوصية وخطيب لبرنيس .
عهد الأميرة برنيس من ٢٥٥ الى ٢٤٧ ق.م. كأميرة لبرقة .
عهد بطلميوس الثالث من ٢٤٧ الى ٢٢١ ق.م. كملك لبرقة ومصر معاً .

ويمكننا منذ البداية استبعاد فترة الحكم الأخيرة الواقعة بين سنتي ٢٤٧ و٢٢١ قبل الميلاد لأن المدينة كانت قد حملت اسم الأميرة برنيس بمناسبة زواجها من بطلميوس فيما يقولون وهذا قد حدث في أو قبل سنة ٢٤٧ قبل الميلاد ومن المستبعد منطقياً أن يكون اسمها قد أطلق على موضع المدينة وقبل بنائها . هذا الى جانب أسباب أخرى كثيرة تتعلق بفترة حكم هذا الملك وانشغاله بالحروب السورية وغيرها مما استنفد قواه واستولى على جل اهتمامه .

كما يمكننا أيضاً استبعاد تلك الفترة التي تمتد فيما بين سنتي ٢٥٨ و ٢٥٥ قبل الميلاد ، وهي الفترة التي حكمت فيها الملكة الأم أباما مشتركة في جزء منها مع الذي رشحته للزواج من ابنتها الأمير ديمتريوس وذلك للمؤامرات المتلاحقة التي وقعت خلال هذه السنوات الثلاث حتى انتهت بثورة الناقمين على خطة أباما عليها وقتله وعزلها بعد أن ضبطا بجريمتها البشعة متعانقين في سرير

وكان هذا قد تم بقيادة وبتدبير الأميرة الناقمة برنيس نفسها . وذلك الى جانب ضيق فترة الحكم ذاتها واستحالة القيام بمشروع ضخم كهذا خلالها.

لم يبق إذن غير الفترة التي حكم فيها ماجاس ، وغير الفترة التي حكمت فيها الأميرة برنيس . وإذا نحن سلمنا بصحة الرواية التاريخية التي سبقت الإشارة اليها من أن الأميرة برنيس قد قامت بعدة إصلاحات انشائية في مدينة برنيس ، وفهمنا هذه الإصلاحات على أنها زيادة على المباني أو إتمام لما تبقى من هذه المدينة بعد وفاة ماجاس دون إتمام ، أمكننا احتمال قيام ماجاس بمهمة إعادة إنشاء هذه المدينة ونحن مطمئنون لهذا الإحتمال ، إذ اننا نجد أمامنا بضع حقائق تاريخية عامة تسند هذا القرار هي :

أولاً : طول فترة حكم ماجاس كنائب لبطلميوس ثم كمستقل عن البطالمة في حكمه للبلاد وهي تمتد لخمسين عاماً متصلة .

ثانياً : تميُّز هذه الفترة من التاريخ بالاستقرار والهدوء الداخلي ، إذ باستثناء ثورة سنة ٣٠١ وتمرد المارمارديين سنة ٢٧٤ فإن التاريخ لا يورد لنا أخباراً عن أي توتر أو ثورة في سائر مدن وأراضي الإقليم .

ثالثاً : عدم مرور فترة طويلة من الزمن على تدميرها (حدث سنة ٣٢٢ أو ٣١٣) وإعادتها من جديد (بعد سنة ٣٠٨) وهو ما يحدث لو قلنا بأن الذي أعاد بناءها سواه .

رابعاً : إمكان تعليل نشأة مدينة بطلميوسة كبديلة لمدينة برقة وازدهار ميناء قورينة الذي عرف فيما بعد بأبولونيا في نفس الفترة ، وربما كان عنايته بثلاثتها لأن ميزان القوى الدولي كان يعتمد في العهد البطلمي على السيادة البحرية ولا شك في أن هذه المدن الثلاث تعد مرافىء

صالحة لإيواء الأساطيل وحمايتها حين الحاجة، الأمر الذي يجعلها بمثابة الحصون البحرية. وقد يفسر لنا هذا الأمر زحزحة موقع مدينة برنيس واختيار موقعها فوق ذلك اللسان الممتد بين البحيرة والبحر .

لهذا فإننا نرتاح إلى احتمال أن يكون ماجاس قد سعى بعد استتباب الأمر له ، وبناء على أمر بطلميوس الأول نفسه ، أو حتى من غير هذا الأمر، إلى إصلاح ما دمرته الثورات والحروب في سائر الإقليم ، فأصلح ما كان قابلاً للإصلاح (قورينة ـ تيوكيرا ـ أبولونيا) وخطّط مدناً جديدة في الأمكنة الأكثر مناسبة لتحل محل تلك المدن التي قضت الحرب على سائر العمران بها فدكت أسوارها وحصونها وقصورها وتهدمت مبانيها ، وقد تقدم احتمال أن تكون مدينة يوهسبيريدس ومدينة برقة قد تعرضتا لهذا المصير الرهيب بحكم وقفتهما العدائية إلى جانب ثبرون سنة ٣٢٣ ـ ٣٢٢ ثم لقيامهما بالثورة على أوفلاس سنة ٣١٣ على حسب ما احتملناه .

وهناك ملحوظة لنا على الموقع الجديد الذي اختير لمدينة برنيس ، فهو موقع استراتيجي ممتاز (آنذاك) يسهل الدفاع عنه ضد الهجمات الموجهة ضد المدينة من البر ، وإذا أخذنا بعين الإعتبار ما وصف به بعض قدماء الجغرافيين طبيعة شواطئها فانها محصنة ضد الهجمات البحرية كذلك . وربما كان الباعث على هذا الإختيار الدقيق لمكانها الجديد هو استمرار حالة التوتر بين سكانها من الإغريق وبين المحيطين بها من الليبيين مما جعلها أكثر تعرضاً من غيرها للهجمات المستمرة عليها واستمرار تهديدها منهم على الدوام ، أو ربما كان الباعث عليه إلى جانب هذا ما سبق من سهولة استيلاء الجيوش المعادية عليها في أحداث تاريخها القريب والبعيد فأريد لها بذلك قدرة على المقاومة ومزيد من التحصين .

٤ – المدينة الجديدة تحمل اسم برنيس :

قدّمنا في الفقرة السابقة احتمال أن تكون مدينة يوهسبيريدس التي قضي عليها قد أعيد بناؤها من جديد في عهد ماجاس ، وأن برنيس قد أتمت ما بقي من مبانيها ولكن اسمها قد ظل فيما يبدو كالسابق وهو يوهسبيريدس على الرغم من أن المدينة الجديدة قد قامت في غير الموضع الذي وجدت المدينة الأولى به .

وقد كانت قضية زواج الأميرة برنيس من بطلميوس الثالث الملقب بافرجيط ذات مظهر وطابع وأبعاد سياسية شارك الشعب البرقي فيها بكليته ما بين عامل على تحقيقه ومقاوم لإتمامه ، وما ذلك إلا لأن الأمر يتعلق بمصير البلاد ذاتها وبموقفها من الحكم البطلمي في مصر ، فإن ماجاس الذي كان قد تمرّد على أخيه بطلميوس الثاني يوم أن خلف أباه بطلميوس الأول على عرش مصر قد عاد في أواخر أيامه فتصالح معه وخطب ابنته برنيس الى بطلميوس الثالث غير أن ماجاس توفي قبل أن يتم هذا الزواج ، ولم تكن أباما Apama أو أبامي Apame والدة برنيس براضية عن هذا الزواج السياسي الذي يعيد برقة الى الحكم البطلمي على شكل بائنة (دوطة) مع العروس . فلما مات ماجاس،وبرنيس في الرابعة عشرة من عمرها ، أعلنت والدتها معارضتها تلك وللقضاء عليه أرسلت تستدعي ابن أخيها الأمير ديمتريوس Demetrio الانطاكي لتقدم له العروس والعرش البرقي في نفس الوقت .

ويبدو أن إغريق برقة قد كانوا أو أنهم أصبحوا ما بين محبّذ لخطوة أباما هذه لما يراه فيها من استقلال البلاد عن العرش البطلمي في مصر وما بين معارض له إدراكاً لما في هذه الخطوة من خطورة على الاستقلال وتهديد بالحرب من قبل الأمير المبعد المخدوع . ويبدو أيضاً أن الفريق الأول قد انتصر في

البداية فاستدعى الأمير الانطاكي وأحله في القصر باعتبـاره خطيباً لبرنيس أميرة البلاد غير أن صلفه وكبرياءه فيما يقول المؤرخون أبعد عنه الفتاة نفسها التي انضمت الى الفريق الذي يعارض هذا الزواج ، وأدى هـذا الى اكتشاف هذا الفريق للعلاقة المخزية بين أبامي وديمتريوس فدبرت مكيدة انتهت بضبط العشيقين متلبسين بالجريمة ، فقتل ديمتريوس وأبعدت أبامي وتولت الأمـيرة برنيس كامل سلطاتها على البلاد . وهكذا انتصر الفريق المحبذ للإرتباط بمصر غير أن الأمر لم يتم بهذه السهولة فإن التاريخ يحدثنا عن معارك عنيفة بـين الفريقين بعد ذلك، وتم الزواج في سنة ٢٤٧ أو قبل ذلك بقليل على اختلاف بين المؤرخين .

ويبدو أن الأميرة برنيس قد تمكنت من اكتساب قلوب شعبها وحبه لها خلال السنوات التي اتصلت فيه بهؤلاء اتصالاً مباشراً ، ولا غرو فإن قضيتهـا العاطفية ووقوفها ضد إرادة أمها مع الشعب وتضحيتها بها وفوق ذلك جمالها الأخاذ وصغر سنها وذكريات والدها واصلاحاته ، جميعها عوامل قد قرّبت الشعب منها وحببته فيها ، ولذا كان الزواج عرساً للشعب وفرحة للعـامة ولا شك .

وقد احتفى الشعب بهذا الزواج وباركه وكانت هديته العظمى الى الزوجين إطلاق إسم الزوج على المدينة الجديدة التي قامت عند شاطيء البحر كبديلة لمدينة برقة أهم المدن البرقية من بعـد قورينة فسميت « بطولمايس » (بطلميوس)[٥] وإطلاق إسم الزوجة على المدينة الجديدة التي قامت عنـد شاطيء البحر مباشرة كبديلة لمدينـة يوهسبيريدس فسميت بإسم « برنيس Berenice » وكمجاملة – ربما من الزوجين نفسيهما – أطلق إسم «أرسينوي» « Arsinoe » والدة بطلميوس وحماة برنيس على مـدينة تيوكيرا القديمة التي



تمثال رأسي للأميرة برنيس

امتدت إليها يد ماجاس بالإصلاح كما سبق وأن احتملناه[٦].

وهكذا حملت المدينة الجديدة اسم الأميرة الشابة الجميلة برنيس بمناسبة زواجها من بطلميوس في حدود سنة ٢٤٧ قبل الميلاد وعرفت به منذ ذلك التاريخ ، وإن ذكر الإسم السابق مقروناً به فلمجرد الربط والتحديد الذي يلزمه المؤرخون والجغرافيون عادة ؛ ولعل المسؤول عن ذلك الخلط من المؤرخين والقائل بأن مدينة برنيس هي ذاتها مدينة يوهسبيريدس القديمة هي تلك الفترة الزمنية الواقعة بين إعادتها وتسميتها والتي حملت فيها الإسم السابق على أغلب الظن .

٥ – مدينة برنيس حتى آخر العهد البطلمي :

سبق لنا وأن ذكرنا في الفقرة الثانية من هذا الفصل كيف أن التشريع البطلمي الذي وضع للإقليم من بطلميوس الأول قد هدف الى دعم السياسة التي انتهجها البطالمة للقضاء على الشخصية الذاتية للمدن البرقية لا ليحققوا بها وحدة الإقليم كما يبدو وكما حدث بالفعل ، ولكن لتسهل عليهم السيطرة ويتيسر لهم بسط النفوذ المباشر عليها جميعاً من طريق إذابة الكيان الذاتي للمجتمع بإغراق الطبقة الممتازة التي كانت محتكرة حق المواطنة لنفسها من بين الإغريق في هذا الإقليم بطبقات أخرى كانت تعتبر أقل منها مركزاً ومكانة في المجتمع .

ولا يهمنا هنا أن ندرس آثار هذا التغيير الجذري في مفهوم المواطنة من الناحية الإجتماعية فقد نعود الى هذا في فقرة أخرى من هذا الفصل ، وانما يهمنا منه هنا الإشارة الى أن ما حدث نتيجة لهذا التوسع بمفهوم المواطنة في البلاد هو أن قلّت في التاريخ الإشارة الى الأحداث التاريخية للمدن كل على

حدة وهو ما كان يحدث في السابق مما أدى الى صعوبة متابعة التاريخ الخاص بمدينة برنيس ، إذ ان ما يذكر عنها في التاريخ أصبح متباعداً جداً وتتخلله ثغرات واسعة من الصمت ، الأمر الذي يزيد من صعوبة البحث ويقلل من امكانات المقارنة والإستنتاج التي ساعدتنا في السابق كثيراً على استجلاء بعض الغوامض في أحداث تاريخها الخاص .

لما تقدم فإن ما يمكننا تقديمه من تاريخ هذه المدينة خلال الفترة الباقية من هذا العهد الذي امتد حتى سنة ٩٦ قبل الميلاد ليس سوى بضعة حوادث وردت عفواً وأثناء الحديث عن التاريخ العام لسائر الإقليم ، ولهذا السبب فإننا سنوردها كما عثرنا عليها إتماماً للبحث محاولين استخلاص الحقائق التاريخية المتعلقة بالمدينة منها ، وفي حدود ما يمكن أن يقدمه لنا حولها تاريخ البلاد ، ولكن من غير محاولات للربط بينها كما اعتدنا أن نفعل في السابق للإستحالة قبل أن تتوفر للبحث مواد أخرى تمكن من هذا وتستدعيه .

وأول هذه إشارة عابرة نعثر عليها عند سيليوس ايتاليكوس Silio Italico تروي لنا أنه كان في جيش هملقار Amilcare القرطاجني خلال الحرب البونيقية الأولى بين قرطاجة والرومان جنود نسبوا الى مدن قورينة وبرقة وبرنيس وهذه رواية متأخرة زمناً — فيما يقوله مصدرنا عنها — علاوة على أنها ذات طابع أدبي مما يوجب قبولها منا بتحفظ شديد ، ولكننا لا نستطيع أن نرفضها على أية حال ، الأمر الذي يدفع بنا الى مناقشتها قليلاً لتحديد الزمان الممكن حدوثها فيه .

لقد وقعت الحرب البونيقية الأولى بين الدولتين فيما بين سنتي ٢٦٤ و ٢٤١ قبل الميلاد ، ولا يحدثنا التاريخ خلال هذه الفترة عن أي تحالف قد تم بين برقة وقرطاجنة في حرب الأخيرة ضد الرومان ، فإن كان قد وجد في جيش

هملقار جنود نسبوا الى مدن برقة فلا بد وأن يكون تجنيدهم قد حدث بصورة فردية وكمرتزقة في الجيش الفينيقي .

ومما نعلمه من تاريخ برقة خلال هذه الفترة ذاتها لا نجد فترة من الممكن أن يحدث فيها مثل هذا التجنيد غير تلك التي أعقبت وفاة حاكمها ماجاس وتولي ابنته الأميرة برنيس أي فيما بين سنتي ٢٥٨ و ٢٥٥ قبل الميلاد ، فهي الفترة التي كانت البلاد فيها مضطربة لانقسامها إلى حزبين : أحدهما يؤيد الارتباط بمصر ، والآخر يقاومه كما تقدم ، ومن غير المستبعد أن يوجد خلال هذه الفترة تقارب أكثر بين أبامي (الملكة الوالدة) وحزبها المؤيد لسياسة الابتعاد بالإقليم عن البطالمة ، وبين قرطاجنة . وكنتيجة لهذا التقارب من الجائز أن يتمكن القرطاجنيون من الاتصال بالبرقيين لإغرائهم على الإلتحاق بجيشهم كمرتزقة فيه . على أن هذا الاحتمال ضعيف جداً لما نعرفه من النفور التقليدي بين الفينيقيين والإغريق علاوة على أن هذه الرواية هي الوحيدة التي تشير إلى نوع من العلاقة الودية – وحتى غير الودية – بين برقة وقرطاجنة طوال العهد البطلمي بكامله ، وهي ليست بعد هذا بالمقبولة دون تحفظ ، وقد أهمل الإشارة اليها معظم من تناول تاريخ الحروب البونيقية من المحدثين .

وثاني هذه الأحداث إشارة منا إلى أن إقليم برقة الذي كان قد فقد ذاتيته بالاندماج بمصر كنتيجة لزواج الأميرة برنيس من ملكها بطلميوس الثالث قد عاد فاستقل بانفصاله عن مصر ثانية ، وكنتيجة لصراع الأخوين : بطلميوس السادس فيلوميتور Filometore وبطلميوس السابع فسكون Fiscone ، ولتدخل روما في هذا الصراع ، وإنهائه بقسمة المملكة البطلمية بين الأخوين ، وإعطاء برقة لبطلميوس فسكون الملقب بأوفرجيطس الثاني وهو أصغر الأخوين ، وقد حدثت هذه القسمة بينهما في سنة ١٦٣ قبل الميلاد[٧].

وهذه الحادثة فيما يبدو لا تتعلق تاريخياً بمدينة برنيس التي نؤرخ لهـــا . ولكنها مع ذلك جديرة بأن نشير إليها لما يصحب هذا عادة من تغيير في نوع الحكم وأسلوبه ، ومـــا يحتمل حدوثه من تأثير مباشر على الإدارة المحلية في المدن ومن بينها بالطبع مدينة برنيس .

وثالث هذه الأحداث إشارة إلى ثورة عارمة حدثت في برقـــة ضد هذ الملك في سنة ١٦١ قبل الميلاد [٨] ، ويحدثنا هذا البطلميوس نفسه عن وجوده على رأس جيشه عند مدينة برنيس[٩] ، الأمر الذي يوحي بأن مدينة برنيس ذاتها كانت ثائرة عليه ، والذي يبدو من أحداث التاريخ العامة هو أنه قد تمكن بالفعل من اخماد هذه الثورة ، غير أن المؤامرات التي كانت تحاك ضده للتخلص من حكمه كانت كثيرة ومحكمة وخطيرة ، إلى الحـــد الذي أخافه فدفعه لكتابة وصية حاول فيها تفويت الفرصة على خصومه ومناوئيه وذلك بأن جعل البلاد تؤول في حالة اغتياله ومن غير أن يرزق بوريث إلى حـــكم الرومان . وقد عثر على هذه الوصية في نقش رخامي بـــين آثار قورينة [١٠] وقد أرّخت بالسنة الخامسة عشرة من سني حكمه ؛ ولمـــا كانت فترة حكمه كملك على مصر قد بدأت سنة ١٧٠ قبـــل الميلاد ، فقد أرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى سنة ١٥٥ قبل الميـــلاد ، وهي فترة لا يزال فيها ملكاً على برقة وحدها ، غير أن بعض المؤرخين المحدثين يشك في دقة هذا التاريخ ويعيدها إلى سنة ١٦٤ قبل الميلاد باعتبار أن السنة التي بدىء بهـــا في التأريخ هي التي امتلك فيها الحق بصفته وريثـــاً شرعياً لأبيه أي ابتداء من سني حكم أخيه بطلميوس السادس ، وهذا يجعل الوثيقة متعلقة بمصر وليس ببرقـــة وحدها الأمر الذي لا يفسر وجودها كنص منقوش على الرخام في قورينة بالذات .

ونحن لا نعـــلم بالدور الذي قامت به مدينة برنيس في ثورة ١٦١ قبل

الميلاد على حكم بطلميوس ِفسكون وإن كنا نعلم باشتراكها فيهـــا وبصورة فعلية ؛ كما لا نعلم بالمدى الذي شارك فيه أبناء برنيس في تلك المؤامرات التي تهددت شخص وسلطان بطلميوس هذا وذلك لأن التاريخ يصمت فلا يحدثنا عن شيء من دور هذه المدينة في الموضوع ولا يقدم لنا من أحداثها التالية ما يمكن أن يساعدنا على استجلاء هذا الدور بالاستقراء .

ولا نعلم بعد هذا من حوادث العهد البطلمي أية حادثة تتعلق بمدينـــة برنيس إلا خبر تعرضها لوباء الطاعون سنة ١٢٥ قبل الميلاد ، ولكننا لا نعلم المدى الذي انتشر فيه هذا الوباء ولا المناطق التي عمها غير مدينة برنيس .

بعد هذه الإشارة لا نعثر على أي ذكر لمدينة برنيس حتى نهاية العهـــد البطلمي ، وقد انتهى كما هو معلوم في التاريخ بوصية بطلميوس أبيون Apion التي انتقلت السيادة بموجبها من بعد وفاته إلى الرومان في سنة ٩٦ قبل الميلاد.

٦ – سكان مدينة برنيس في العهد البطلمي :

أشرنا في السابق إلى تشريع بطلميوس الأول الذي وضعه لبرقة فيما بين كتاباثموس وأتومالاكس منذ بداية هذا العهـــد ، وجاء فيه بمفاهيم جديدة للمواطنة غيَّرت الوضع الاجتماعي السياسي الإقتصادي في البلاد من جذوره ؛ وذكرنا عن سكان مدينة يوهسبيريدس في العهد الباطي وقلنا إنهم كانوا مزيجاً من الليبيين واليونانيين وبعض الجاليات الراجعة إلى شعوب مناطق حوض البحر المتوسط الأخرى ؛ وليس من المستبعد أن يكون الوضع قد استمر على ما هو عليه حتى آخر العهـــد الجمهوري ، مع تغير مستمر في أعداد هذه العناصر الثلاثة كثرة وقلة بحسب الظروف التاريخية الملائمة أو المعاكسة لأي منهـــا .

ومن المظنون أن الوضـــع لم يتغير كثيراً في العصر البطلمي

اللهم إلا من حيث إدخالهم للعنصر اليهودي والإكثار منه في سائر المدن البرقية والمصرية وخاصة الإسكندرية وبرنيس[11] وإلا من حيث التحيز السافر للعنصر اليوناني وتغليبه على بقية العناصر من سكان المدينة (وهذه الظاهرة من أبرز مظاهر الحكم البطلمي في التاريخ)[12] وما أدت إليه من ابتعاد العنصر الليبي الصميم عن المدينة التي حرم من التمتع بحقوقه المدنية فيها في وقت اتساع مدلول المواطنة إلى حد شموله لسائر الاقليم ، أو عاش فيها منعزلاً عن الأحداث شأنه شأن بقية الجاليات الأخرى وكل همه أن يعيش .

ومن أحداث تاريخ العصرين الجمهوري والبطلمي ندرك أن منطقة نفوذ المدينة لم تعد مقتصرة على المدينة نفسها وضواحيها وإنما امتدت لتشمل منطقة واسعة جداً تمتد من آخر مناطق النفوذ اليوناني في برقة غرباً والمحددة عند البطالمة ببلدة أو قرية أو مرفإ أتومالا Automala (الى الغرب قليلاً من العقيلة) وفي العصر الجمهوري بمذبح الاخوين فيلني (القوس) وحتى تلتقي بالحدود المشتركة بينها وبين برقة وتيوكيرا من الشمال والشمال الشرقي ، أما من الجنوب والشرق فعند المنطقة التي يسيطر عليها الليبيون سيطرة تامة . وهذا يعني أن سكان مدينة برنيس ذاتها في العصر البطلمي كانوا يتألفون بحسب أهميتهم فيها من :

العنصر اليوناني ، العنصر اليهودي[13] ، العنصر الليبي ، والجاليات . أما في منطقة نفوذها الخارجية فإن الترتيب بحسب الأهمية يصبح : الليبيون ، اليونانيون ، اليهود والجاليات ، وهذا العنصر الأخير قد يكون من الندرة بحيث يقارب العدم .

ونجد من الأمانة العلمية أن نذكر هنا أن ما أوردناه في هذه الفقرة والمماثلة لها من الفصل السابق إنما هي استنتاجات ذاتية ـ كما سبق القول ـ لما حواه

تاريخ الفترة من أحداث وروايات تدور حول الموضوع ولا تتناوله مباشرة وبالتفصيل .

٧ – حق المواطنة وتشريع بطلميوس:

لا يمكننا إدراك مدى التغييرات الجذرية التي أدخلها دستور بطلميوس التي سبقت الإشارة إليه إلا اذا تكونت لدينا فكرة واضحة عن حق المواطنة التي مسها هذا الدستور في نظام دولة المدينة أو في عبارة أدق « المدينة الدولة City State » الذي لم يعرف الإغريق سواه ، لما في هذا النظام الاجتماعي – السياسي – الاقتصادي، الذي اختفى كلية من عالمنا الحديث ، من اختلاف كبير عما نفهمه من عبارات الوطن والمواطن وحق المواطنة في العصر الحديث .

وقد وجدت من الأوفق هنا الإكتفاء بفقرات مختارة من كتاب « المدينة العتيقة » للعلامة فوستل دي كولانج[١٤] لما احتوته من صور واضحة موجزة عن هذا النظام المندثر قد تغنينا عن البحث المطول فيه .

وأول هذه الفقرات عن مفهوم الوطن في العالم اليوناني – الروماني القديم : « كلمة الوطن عند القدماء معناها أرض الآباء (Terra Patria) فوطن كل رجل هو الجزء من الأرض الذي قدسته ديانته المنزلية أو القومية ، الأرض التي أودعت عظام أسلافه فيها وتشغلها أرواحهم . والوطن الصغير هو قطعة الأرض التي للأسرة بقبرها وموقدها ؛ والوطن الكبير هو المدينة ببيت نارها وأبطالها ، بسورها المقدس ، ومنطقتها التي حددتها الديانة ... ... فإن هذه الأرض كانت مقدسة للإنسان حقاً إذ كانت تسكن فيها آلهته . فالدولة والمدينة والوطن لم تكن معنويات كما هي عند المحدثين ، بل كانت تمثل في

الواقع مجموعة كاملة من المعبودات المحلية مع عبادة يومية وعقائد مسيطرة على الروح » (ص ٢٧١) ، ولا غرو في هذا فقد : « كانت الديانة هي النبع الذي تنساب منه الحقوق المدنية والسياسية » (ص ٢٧٣) .

وأما هذه الفقرة فهي ترسم لنا مفهوم « المدينة الدولة » في تلك العصور : « كان من المحتم على كل مدينة بحكم ديانتها نفسها أن تكون مستقلة تماماً . وكان من المحتم أن تكون لكل واحدة مجموعة قوانينها الخاصة ما دام لكل واحدة ديانتها ، ومن الديانة كان يصدر القانون . كان من المحتم أن يكون لكل واحدة سيادتها القضائية ، ولا يمكن أن تكون هناك سلطة قضائية أعلى من سلطة المدينة . كان لكل منها أعيادها الدينية وتقويمها ، ولا يمكن أن تكون الشهور والسنة واحدة في بلدتين ما دامت مجموعة الأعمال الدينية مختلفة . وكان لكل منها عملتها الخاصة ، والتي كانت في الأصل تحمل عادة رمزها الديني . وكان لكل مدينة أوزانها ومقاييسها . لم يكونوا يسمحون بوجود شيء مشترك بين مدينتين . كان الخط الفاصل بين بلدين مختلفين من العمق بحيث عسر عليهم أن يتصوروا أن الزواج مسموح به بين سكان هاتين البلدتين . ومثل هذا الإقتران كان يبدو غريباً على الدوام ، وظل زمناً طويلاً يعتبر غير مشروع ... ... وفي كل مكان تقريباً كانوا يخلطون بين الأطفال المولودين من مثل هذا الزواج وبين النغال [من أب يوناني وأم أجنبية] ويحرمونهم من حقوق المواطن. [و] لكي يكون الزواج مشروعاً بين أهالي بلدتين كان لا بد أن يكون بينهما اتفاق خاص (Jus Connubii) » (ص ٢٧٦ و ٢٧٧) .

ومن هذه الفترة ندرك مفهوم الوطن في واقع المواطن وتفكيره : « مثل هذا الوطن لا يكون مجرد سكن للإنسان . فليترك المرء أسواره المقدسة ،

وليتخطَّ الحدود المقدسة للمنطقة ،إنه لن يجد لنفسه ديانة ولا رابطة اجتماعية من أي نوع كان . فهو في كل مكان عدا وطنه ، منبوذ من الحياة المنتظمة ومن الحق . وهو في كل مكان آخر لا إله له ، ومنبوذ من الحياة المعنوية . فهناك فقط له كرامة الإنسان وواجباته ،إنه لا يستطيع أن يكون إنساناً إلا هناك» (ص ٢٧١) .

إن مواطن «المدينة الدولة » اذا هاجر من مدينته ُعدَّ في غيرها أجنبياً، والفقرة التالية تصور واقع الأجنبي : « لم يكن في استطاعة الأجنبي أن يكون مالكاً في روما أو في أثينا [أو غيرهما] لم يكن في استطاعته أن يتزوج ، أو على الأقــل لم يكن معترفاً بزواجه ؛ والأطفال المولودون من قران مواطن بأجنبية كانوا يعتبرونه نغالاً ، ولم يكن يستطيع أن يتعاقد مع مواطن ، أو على الأقل لم يكن القانون يعترف بقيمة ما لمثل هذا العقد ، وفي الأصل لم يكن له حق المتاجرة ، وكان القانون الروماني يحرم عليه أن يرث مواطناً ، بل يحرم على المواطن أن يرث منه . وقد توغلوا في هذا المبدإ الى حد أنه اذا حصل غريب على حق المدنية الرومانية دون أن يحصل ابنه الذي ولد قبل تلك الفترة على نفس الحظوة ، فإن الإبن يصبح غريباً عن الوالد ولا يستطيع أن يرث منه ، فإن الفاصل بين المواطن والأجنبي كان أقوى مــــن الرابط الطبيعي بين الأب والإبن » (ص ٢٦٧ و٢٦٨) .

ولكن الأجنبي أهون حالاً من ذاك الذي تنفيه مدينته عقاباً له على جريمة ارتكبها في حقها، فالمنفي في هذه الفقرة يفقد حقوقه السياسية والمدنية ... لم يعد له حق الملك ، فقد كانت أرضه وأملاكه تصادر لمنفعة الآلهة أو لمنفعة الدولة ، وحيث أنه لم تعد له عبادة فإنه لم تبق له أسرة ، وكفَّ عن أن يكون زوجاً وأباً ، لم يعد أبناؤه في سلطته ، وزوجته لم تعـــد زوجته

وتستطيع أن تتخذ زوجــاً آخر على الفور ... ... واذا مات لا يمكن دفنه في ثرى المدينة ولا في قبر أسلافه فقد أصبح أجنبياً » (ص ٢٧٣ و٢٧٤ و٢٧٥) .

هذه هي المفاهيم اليونانية عموماً ، والتي كانت سائدة فيما يبدو بين المدن البرقيةوان كان البعض لا يرىهذا الرأي في الانفصال ولكن اليونانيين بالتأكيد لم يعرفوا نظاماً سواه حتى حدثت الثورات الاجتماعية الكبرى والتي لا يعرف لها التاريخ بدايات معينة ولكن نتائجها قــد أدت في النهاية الى القضاء على هذا النظام .

وقد كان تشريـع بطلميوس في جوهره تقويضاً كاملاً لهذه المفاهيم كما سبق القول ، دعت إليه ظروف سياسية ، وشجع عليه تطور مفهـوم الدولة بعـد عهد الاسكندر المقدوني وفتوحاته وما ترتب عليها من حقوق دينية وسياسية وقانونية للمنتصرين على المغلوبين . صحيح أن هناك بين المؤرخين الباحثين من يرى أن التشريـع الذي وضعه بطلميوس إنما هو خاص بمدينة قورينة وحدها ودون بقية المدن البرقية الأخرى ، غير أن هذا الرأي لا يجد قبولاً من معظم من تعرض لهذا النص بالدراسة والتعليق فهؤلاء يميلون إلى تغليب الرأي القائل بأن التشريـع البطلمي قد وضع لتنظيم سائر الإقليم ولم يقصر على مدينةقورينة وحدها ، وما ذلك إلا لأن قورينة Cirene كانت تعني المدينة كما تعني الإقليم تماماً مثلما عنت برقة المدينة والاقليم في معظم العصر الإسلامي وكما تعني اليوم تونس والجزائر كلاً من العاصمة والإقليم .

ويتكون هذا التشريـع من خمس عشرة مادة خصت المادة الأولى منه بحق المواطنة في الإقليم وقد فرضت فيها حالات مستحدثة تعد كفراً في نظـــام الاغريق الاجتماعي ـ الديني اذ منحت بموجب هذه المـــادة للفئات الخمس التالية [١٥]:

أولاً : أولئك الذين ولدوا لأب وأم من الاغريق القورينيين (أي البرقيين) وهؤلاء فيما يبدو هم وحدهم الذين كانوا يتمتعون أصلاً بحق المواطنة في أي من المدن القائمة آنذاك ولها كيانها المستقل . لأن الفئات الأربع التالية قد أدخلت في عداد المواطنين كما ورد في النص : « ويدخل في عداد المواطنين أيضاً ...».

ثانياً : أولئك الذين ولدوا من أم ليبية وأب قوريني (أي برقي يتمتع بحق المواطنة الأصلي) وهذا النص قد أخرج من ولد لهم من غير الليبيات، ويبدو أنه قليل لا شأن له إن وجد ؛ وأخرج باشتراطه اغريقية الأب احتمال أن يكون لليبيين حق المواطنة في السابق ، كما أخرج احتمال أن يكون بين الفئة الأولى ليبيون في جميع مدن برقة الواقعة فيما بين كتاباثموس وأوتومالاكس (السلوم ـ العقيلة) .

ثالثاً : المنفيون أي الذين حرموا في السابق من حقوق المواطنة في أي من المدن البرقية قبل صدور التشريع نتيجة لخروجهم على السلطة في المدينة مما يعد خيانة عظمى أو ممن ارتكبوا ذنباً يتوجب قانوناً هذا العقاب.

رابعاً : جنود الحاميات الذين استأجرتهم حكومات المدن لحماية مناطق نفوذها وأنزلتهم على تخوم أراضيها .

خامساً : جنود الحامية البطلمية الذين سيستقدمهم بطلميوس شريطة أن يغدق عليهم بطلميوس هذا الحق مستقبلاً .

ومن مقارنة هذا بما تقدم ، نستطيع أن نتصور مدى التغير الاجتماعي الهائل الذي أحدثه تشريع بطلميوس في وضع الإغريق الاجتماعي ، ويمكننا أن نصف هذا التشريع بأنه « ثورة اجتماعية » خطيرة في البلاد ، وذلك أنها :
أولاً : جعلت حق المواطنة في يد بطلميوس وقد كان قبله من أخص

خصوصيات مجلس المدينة العام (البوليتوما Polituma) .

ثانياً : أسبغت حق المواطنة على فئات من الشعب كان حرمانها منه أبدياً بحكم التشريع اليوناني المعتاد في جميع أنحاء بلاد اليونان .

ثالثاً : أوجدت مبدأ جديداً فيه بأن جعلت المواطن في أية مدينة من برقة مواطناً في جميع المدن الأخرى من البلاد في نفس الوقت .

وبهذه الأمور الثلاثة قوّض وإلى الأبد نظام « المدينة الدولة» الذي شكل الوجود اليوناني في برقة حتى ذلك التاريخ بما أنهى من وجود للطبقة الممتازة من السكان والتي لها وحدها حق المواطنة ، وبما أدخله من طبقات كانت محرومة أبدياً من التمتع بهذا الحق ، ثم بما أنهى من وجود ذاتي مستقل للمدن البرقية عن بعضها ودمج لجميعها في وحدة إقليمية يعجز عن فهمها الفكر اليوناني المتبلور في مجتمع دولة المدينة .

وتبقى لنا بعد هذا ملحوظة خاصة حول هذا الحق في تشريع بطلميوس تلك هي صفة الليبي : لم يعتبر هذا التشريع من ولد لأبوين ليبيين مواطناً في منطقة النفوذ البطلمي ، واستبعد معهم من ولد لأم يونانية من أب ليبي،واعتبر هذا كذلك لأنه من الواضح أن العصر كان يدين بأبوة الأسرة وليس بأمومتها ومن الطبيعي أن يعامل الإبن حينئذ معاملة أبيه . وفي المادة السادسة نجد النص يتحدث صراحة عن الليبيين كأجانب بل وكأعداء: « وفي حالة الحرب مع غير الليبيين ... » وهذا إنما يعني أن الليبيين كانوا مستقلين ادارياً واجتماعياً وسياسياً عن الإغريق بمناطق نفوذهم التي لا سيادة لغيرهم عليها . غير أن هذا لا ينفي في نفس الوقت أن يكون هناك ليبيون في المدن وفي مناطق نفوذها يعيشون بين الإغريق فيها عيشة الأجنبي ، كما لا ينفي كذلك أن يكون هناك بين من يتمتعون بحق المواطنة القديم عناصر ليبية اكتسبت

هذا الحق وإن كان من المعروف تاريخيــاً أن من يكتسب حق المواطنة يفقد بمــا اكتسب كل صلة له بماضيه وعرقه ويعد من المواطنين أي إغريقياً بحق المواطنة لا العرق وإن أُلحق به .

بعد هذا يمكننا تصور الوضع الاجتماعي ـ السياسي لمدينة برنيس في العهد البطلمي ، لقد فقدت هذه المدينة سيادتها ، وذاتيتها المستقلة ، واكتسب حق المواطنة فيها كل إغريقي يمكن أن يدمج في أي من الفئات الخمس التي عيّنها التشريع ، وفي ذات الوقت أصبح لكل فرد فيها صفة المواطنة في برقة أو قورينة أو تيوكيرا أو في أي مكان من الأقلــيم ، ولم يعد من يسكنهــا من مواطني المدن الأخرى أجنبياً كما كان فاندمجت بهذا في وحدة اجتماعية كاملة مع بقية الإقليم ، واستفادت من هذا ولا شك فقد اجتذبت خبراتهــا العديد من مواطني المدن الأخرى واتسعت دائرة نشاطها ولم يعد الإغريقي يتحاشى مصاهرة الليبيين ما دام أبناؤه من الليبية سيكونون من المواطنــين . ولذلك نحتمل أن تكون حالة المدينة قد ازدهرت كثيراً نتيجة لهذا ونتيجة للاستقرار والهدوء الذي سادها معظم العهد البطلمي ؛ وهو نمو وازدهار مكنها من الحياة المستمرة لفترة من التاريخ امتدت لأكثر من ثمانمائة عام .

٨ – وضع برنيس السياسي والاقتصادي :

ليست لدينا أية معلومات تاريخيــة مفصلة عن الوضع السياسي الإداري الخاص لمدينة برنيس خلال العهد البطلمي ، فإن اندماجها التام بموجب تشريع بطلميوس مع بقية المدن البرقية الأخرى في وحدة أو اتحاد شمل الإقليم جميعه قد حجب عنا ذاتيتها التي كانت لها قبل ذلك. كما نجهل الوضع الإداري المحلي الذي سارت عليه هذه المدينة في تنظيمهــا ، وإن كانت الفكرة السائدة بين

محدثي المؤرخين أنه قد كان لها مجالسها التقليديـة الثلاثة : « هيئة المواطنين Politeuma » و « مجلس الشيوخ Gerousia »، و «مجلس الشورى (البولي)»، ونحن لا نستبعد أن تكون لها هـذه الهيئات وإن كنا نقف عن تحديد عدد أفراد كل منها لافتقارنا إلى النص الصريح في هذا بالنسبة إليها هي بالذات .

ونحن لا نعرف بالدقة متى أطلق على الإقليم اسم اتحـاد المدن الخمس «البنتابوليس» ذلك أن هذا الاصطلاح لم يبرز في التاريخ الا في القرن الميلادي الأول، ولكن هذا لا يعني أن تكون البلاد لم تحمله منذ عهد هذا التشريـع الذي وضعه بطلميوس الأول للبلاد على الرغم من عدم وروده في نص التشريـع، فمن الجائز أن تكون التسمية قد جاءت كنتيجة للأخذ بهذا التشريـع لتفسير عملية الدمج التي هدف إليها بطلميوس . ومن الجـائز كذلك أن تكون قد عرفت به في زمن لاحق من هذا العهد وفي فترة من فترات استقلالها عن مصر كلية في عهد أوفلاس أو ماجاس أو بطلميوس السابع فسكون .

ومهما يكن من أمر هذه المدينة خلال العهد البطلمي فإنه مما لا شك فيه أنه كان لها قائدها ورئيس كهنتها ومجلس ادارتها المحلية وقضاؤها المحلي كما ان لها ممثليها الرسميين في مجالس الاتحـاد الثلاثة ، ولهـا حاميتهـا من الجند وموظفوها المحليون ، وقد تكشف لنا الآثار مستقبلاً عن نصوص فيها أو في غيرها من المدن توضح كل أو بعض هذه الأمور .

ولا نعرف لهذه المدينة في العصر البطلمي نقوداً خاصة بها فان ما عثر عليه من نقـود ترجـع للعهد البطلمي قد حملت اسم « برقة البطلميـة » أو حتى « برقة الشعب » مما يثبت أن الوحدة النقدية قد تحققت الى جانب ما تم من وحدة في بقية الميادين .

أما عن تجارة برنيس في العهد البطلمي فإن المعلومات التاريخية أقل غموضاً

ذلك أن اشارات عابرة في التاريخ قد دلت على أنهـــا كانت تعتمد على البحر تجارة وصيداً وعلى البر فلاحة ومواشي وتجارة مع دواخل الإقلـــيم . وقد مكنها موقعها الممتاز كمدخل وحيد صالح يربط بين شعوب البحر وسكان أواسط الإقليم من الحياة ومن الازدهار لعدة قرون متصلة في التاريخ.

٩ – عقائد ومعبودات المدينة في العهد البطلمي :

كانت لليبيين معبوداتهم الخاصة التي ارتبطت كثيراً ببعض معبـــودات المصريين وبصورة واضحة مع المعبودات الفينيقية في قرطاجنة وخاصة تانيت أو نيت واذا كنا لا نعرف أسماءها المحلية الأصيلة فإن اليونانيين قد قدموا لنا منهـــا بعضها بأسماء ما يشابهها من معبودات الإغريق مثل أثينا وتريتون وابوريبلوس وبوسيدون وأمون الكبش وليبيا وقورينة وغير هذه المعبودات .

وجاء اليونانيون من بلادهم بعدة معبودات أعطوا بعضها أهمية خاصة في هذا الإقليم وخاصة أبولون وديمترا وزيوس ، والى جانب هـــذا فإنهم قد عبدوا بعض المعبودات الليبية التي عرفوها ، ونشط أدباؤهم وفنانوهم وكهنة معابدهم في اختلاق الصلات التي تربط أسطورياً بين آلهة الليبيين وآلهة الإغريق ، على الشكل الذي قدمنا بعضه في الفصل الثالث من هـــذه الدراسة لاتصاله بمدينة برنيس .

وجاء اليهود بالإسرائيلية يوم أقحموا على البـــلاد في عهد البطالمة ، فكانت الديانة المسيحية الوحيدة بين وثنيتين يونانية وليبية ، وبدأ بدخولها صراع مرير بين عقائد وثنية وديانة سماوية ، وانعكس هذا الصراع على العلاقة بين اليهود والإغريق وإن كان لم يتسم بطابـع العنف الدموي إلا في العهد الروماني.

وقد ضمت مدينة برنيس كما تقدم العناصر الثلاثة وعرفت من العقائـــد

الوثنية ما عبده الليبيون والإغريق من معبودات واقتصرت الديانة اليهودية على العنصر الإسرائيلي الذي استطاع أن يستقل بمعابده ومساكنه وأوضاعه الإجتماعية الخاصة في برنيس كما في غيرها من المدن .

وبالرغم من انعدام الحفريات الأثرية في هذه المدينة ، وبالرغم من ندرة ما كشف عنه من آثارها فإن الأرض والتاريخ قد جـادا علينا معاً بما بدد الظلام قليلاً في هذا الميدان من ماضي الإنسان في عهوده الوثنية .

فقد جاء ذكر الجزيرة الصغيرة التي كانت تتوسط بحيرة تريتونيس عند بعض قدماء التاريخ ، وذكر المعبـد الصغير لفينوس Venus أو أوفروديت Afrodite [١٦]، وقد عثر على تماثيل صغيرة رديئـة الصنع لتلك المعبـودة فينوس .

وفي سنة ١٩١٥ عثر في منطقة الصابري على تمثال أو على الأصح لوحـة حجرية تضمنت نقشاً بارزاً لأربعة أو خمسة أشخاص (لم يبق من الأخير غير جزء صغير جـداً يبدو أنه شريط أو جزء من رداء) وقد انتهى الاستاذ أوليفيريو Oliverio في دراستها إلى أنها تمثل المعبودات بوسيدون ، ايوفيموس Eufemo ، ايوريبلوس Euripilo ، وقورينة Cirene [١٧].

وقد حملت النقود التي عثر عليها وأرجعت إلى مدينـة يوهسبيريدس في العهـدين الباطي والجمهوري صور ليثون Lethon مجسداً في شكل انسان ، وجوبتير أمون Giove Ammone ، والسمك المقدس عند بوسيدون (حوت الدلفين Delfino) ، والقرش Tridents المقدس عند تريتون .

وقد سبق في الفصل الثالث أن أشرنا إلى أسطورة حديقـة الهسبيريدس اليونانية والتي يُظن أنها في الأصل ليبية وذات علاقة بالعقائد المصرية القديمة.

وهذه جميعها لم تكف بعد لتكوين صورة واضحة جلية عن العقائد الوثنية التي انتشرت عبادتها ومعبوداتها في هذه المدينة ويجدر بنا انتظار المزيد من الاكتشافات الأثرية قبل محاولة القيام بتكوين رأي صريح واضح في هذا الموضوع .

١٠ – مدينة برنيس في أول العهد الروماني :

انتقلت برقة من أيدي البطالمة إلى أيدي الرومان بموجب وصية آخر ملوكها بطلميوس أبيون Apion سنة ٩٦ قبل الميلاد[١٨] أو أنها انتقلت تطبيقاً لوصية والده بطلميوس السابع فسكون التي سبقت الإشارة إليها، وبعد موت ابنه وخليفته أبيون دون أن يترك وريثاً من صلبه على عرش برقة[١٩] فالتاريخ في هذه النقطة تتضارب رواياته وينقصها الوضوح[٢٠]. ومن الطبيعي أن تتبع مدينة برنيس التي نؤرخ لها بهذه الدراسة نفس المصير ، فتخضع بدورها لحكم الرومان ما دامت سلطة البطالمة قد شملتها طوال هذا العهد كإحدى المدن البرقية الخمس المكونة لاتحاد « بنتابوليس » .

ولا نعرف على وجه الدقة شيئاً من تاريخ هذه المدينة خلال أحداث السنوات التالية المضطربة المليئة بالتطاحن والصراع وفي الفترة التي توسطت ما بين وفاة أبيون ومباشرة روما لسلطانها الفعلي على برقة في سنة ٧٤ قبل الميلاد[٢١] وإن كان المظنون أنها قد تعرضت هي أيضاً لفوضى وفتن تلك السنوات . فقد جاء فيما كتبه بلوتارخوس Plutarco عن ترجمة حياة لوكولوس Lucullo (٢،٥) إشارة إلى أن سيلا Silla أثناء انشغاله بحصار أثينا في شتاء سنة ٨٧ – ٨٦ قبل الميلاد قد أوفد لوكولوس – حينما وجد نفسه عاجزاً عن مقاتلة أعدائه بحراً لعدم كفاية أسطوله – إلى حلفاء روما في كل من مصر

وبرقة لإمداده بالسفن وبالرجال . ويقول بيترو رومانيلي هنا إن من كان يستطيع نجدته من المدن الليبية إنما هي المدن الساحلية الأربع : أبولونيا ، بطلميوسة ، تيوكيرا ، برنيس ، إذ ان لكل من هذه المدن أسطولها الخاص الذي ربما كان تجارياً أكثر منه حربياً وإن كانت جميعها محتاجة إلى الأسطول الحربي لحماية تجارتها البحرية من غارات القراصنة(٢٢).

وإذا نحن أخذنا بهذا القول – وليس مـــا يمنع من التسليم بصحة ما جاء فيه – ودرسنا الموقع الجغرافي لهذه المدن الأربع ، أمكننا أن نضيف إليه أن مدينة برنيس بالذات من بين هذه المدن لا بد وأن يكون لهـــا أقوى الأساطيل الحربية في الإقليم لوقوع هذه عند نهاية الإقليم في الغرب ، مما يجعلها قاعدة عسكرية هامة يعتمد عليها البطالمة في حماية منطقة نفوذهم الغربية حيث حدودهم المشتركة مع قرطاجنة القوية ثم مع الرومان .

وبحسب رواية لسترابون حفظـــها لنا يوسف فلافيوس Giuseppe Flavio (Ant. jud. XIV, 722) فإن سيلا لم يوفد لوكولوس إلى برقة إلا للقضاء على فتنة أذكى أوارها اليهود . غير أن هذه الرواية يتردد بعض المؤرخين المعاصرين في قبولها لما أورده بلوتارخوس في هذا الموضوع مؤيداً فيه من أبيانوس Apiano (Bell. Mithr. 33) من اقتصار أمر سيلا على معالجـة فتنة اليهود في كل من مصر وسوريا ودون الاشارة إلى برقة ، ويرون أن من غير المحتمل أن يعنى هذا القائد العظيم بالشؤون الداخلية لبرقة في تلك الفترة بالذات .

ولا نرى من جانبنا ما يمنع تاريخياً من قبول رواية سترابون هذه لما نعلمه من كثرة عدد الطائفة اليهودية في مدن برقة ، ومن تعدد اصطداماتها معوثنية اليونان في كل شأن من شؤون الحياة ؛ وإغفال بلوتارخوس وأبيانوس لذكر

برقة إلى جانب مصر وسوريا قد يفهم على أنــــه كان بسبب اعتبارهما لبرقة جزءاً من المملكة البطلمية حتى ذلك العهد ، ولا سيا اذا لاحظنا أن فترة خروج برقة من أيدي البطالمة لا يتعدى بضع سنوات ، بل وان سيطرة روما عليها في تلك الأثناء لم تحدث بصورة فعلية بعد ، إذ من الثابت تاريخياً أنها لم تباشرها إلا بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات .

واذا كانت مدن برقة قد زخرت باليهود في العهـــد البطلمي فإن مدينة برنيس من بين هذه المدن قد منيت بالنصيب الأوفر من هذا المكروب البشري وقد كان لهم بين سكانهـــا حظوة وامتياز – كما سيأتي – وليس من المستبعد أن تكون مدينة برنيس قد تعرضت للقلاقل بسبب فتنة اليهـــود التي يشير إليها سترابون .

وللتوفيق بين الروايتين أرى أنه من الجائز جداً أن تكون الفتنة اليهودية قد اشتدت في نفس الوقت الذي كان سيلا يفكر فيه في الاستنجاد باساطيل حلفائه في مصر وبرقة ، ومن الطبيعي أن يسند إلى ذات الشخص القيـــام بالمهمتين معاً ما دام لوكولوس من قادته المبرزين .

وفي حروب قيصر Cesare مع بومبيوس Pompeo تحزبت المدن البرقية لهذا الأخير الذي استطاع أن ينتزع إعجابهم ببطولاته ويحوز تقديرهم له بمـا حققه أسطوله من انتصارات بحرية مكنته من القضاء على نشاط القراصنة في البحر الليبي . وكانت برقـــة بالنسبة إلى بومبيوس قاعدة من أهم القواعد العسكرية التي اعتمد عليها في الرجال ، وفي التزود بالمؤنة والعتاد . ولكنه فقَد جميع هذا حينما هزم في معركة فارسالوس Farsalo سنة ٤٨ قبل الميلاد وتحولت الجماهير عنه باعجابها إلى الخصم ، ولا غرو في هـذا فالبطولة في حد ذاتها هي ما يستهوي عامة الجماهير في الأبطـال ، وفي كل زمان ومكان .

ويبدو هذا التحول واضحاً وجلياً في المعاملة التي لاقاها كاتون Catone واسطوله ، حينما أراد أن يلوذ ببرقة حتى يستجمع قواته ويستعيد قواه على ما هو مدون في التاريخ[٢٣] .

وليس من شأننا متابعة هذه الأحداث ، فما يهمنا منها هو ما يتصل بتاريخ مدينة برنيس وحدها ، وليس هذا بالكثير إذ لا يتعدى لجوء كاتون باسطوله حينما فشل في اجتياز خليج سرت إلى مرفإ برنيس ، وتركه لهذا الأسطول في بحيرة تريتونيس ، ثم مواصلته السير بجيشه براً عبر تلك المنطقة الرملية الجرداء ذات العواصف الهوجاء والزاخرة بالأفاعي السامة والدواب . وذلك بعد أن (استولى) على ما أمكنه من الحمير التي حمّلها بحاجيات حملته من الماء والغذاء[٢٤] .

ويحدثنا التاريخ أن قيصر قد انتقم من البرقيين حينما دانت له البلاد بأن فرض على أهل البلاد إتاوة قاسية قوامها ألف وخمسمائة رطل من محصول نبات السلفيوم . وقد كان هذا يباع بوزنه فضة على ما يؤكده المؤرخون[٢٥] والجدير بالذكر أن هذه ليست المظلمة الوحيدة التي يلحقها الحكم الروماني بأهل هذه البلاد،فالتاريخ مليء بالمظالم والجور حتى أن البلاد التي كانت في مقدمة أقاليم حوض البحر المتوسط ثروة وحضارة يوم دخولهم إليها قد أصبحت في نهاية الحكم الروماني من الفقر بحيث عجزت عن دفع الجزية إلى العرب الفاتحين .

وانتقلت برقة وسائر بلدان المشرق إلى يد أنطونيوس Antonio وقدمها هذا في سنة ٣٦ قبل الميلاد هدية منه إلى حليفته وزوجته كليوباترا الشهيرة ، ثم منحت منها ثانية سنة ٣٤ قبل الميلاد إلى ابنته منها كليوباترا سيلين(زوجة الملك يوبا الثاني ملك نوميديا) وكانت اذ ذاك في السادسة من عمرها ، ويروي

التاريخ أن انطونيوس قد رغب في تخليد ذكرى ابنته هذه فأطلق اسمها على مدينة أرسينوي التي كانت تعرف قبل ذلك باسم تيوكيرا وأن هذه المدينة قد عرفت باسم كليوباتريس Cleopatris (٢٦).

وهكذا عادت البلاد ولفترة قصيرة جداً إلى الارتباط بمصر للمرة الثانية في عهد بطالمة مصر غير أن هذا المنح فيما يبدو كان شكلياً وحسب ذلك أننا نجد أنطونيوس في حربه ضد أوكتافيوس Ottaviano قد ترك في برقة اسطولاً حربياً وأربع فرق Legioni من الجند تحت قيادة بيناريوس سكاربوس L. Pinario Scarpo، كما نجده هو نفسه يلجأ بفلول أسطوله بعد معركة أنزيو Anzio في سنة ٣١ قبل الميلاد إلى ميناء برنيس حيث بحيرة تريتونيس، غير أن بقاءه لم يطل بهذه المدينة إذ ان انقلاب قائده سكاربوس عليه قد اضطره إلى المسارعة إلى مصر لمحاولة معالجة الأمر الخطير (٢٧).

ولم تنته الحروب الرومانية الأهلية إلا وقد استنزفت ثروات البلاد وخيراتها وقضت على الكثير من رجالها (٢٨) وجاء حكام الرومان إليها خلال هذه الفترة وبعدها ليحيلوا أمنها خوفاً واستقرارها فوضى واضطراباً فقد كان أوائل من استقر بهذه المدن من الرومان يلجأ إلى أحط الوسائل وأرذل المؤامرات يدبرونها لسلب الأموال من الأفراد، تحت سمع الحاكم وبصره بل وبتدبير منه وتشجيع، ولم يعد للحقوق الفردية أي احترام في واقع الأمور وكانت أبرز طرق الابتزاز والاستيلاء أن يلجأ الروماني إلى التهديد بالوشاية فإن فشل في اغتصاب المال أو الأرض أو أي شيء ثمين آخر نفذ تهديده وادعى زوراً وبهتاناً على صاحب المال بأنه قاتل أو خائن أو أية تهمة أخرى عقوبتها المصادرة أو الإعدام، فيلاقي هذا المسكين سواء كان ليبياً أو يونانياً أو يهودياً أو غير ذلك حتفه على يدي هيئة المحلفين من الرومان المتواطئين مع

المدعي وهو لا يكون الا من المتمتعين بالمواطنة الرومانية من الرومان . قضاة ومحلفون وحكام مات فيهم الضمير وتنكروا لكل ما هو إنساني[٢٩] وتحولت حياة السكان الوطنيين إلى جحيم وعذاب ولم يتغير هذا الوضع بعض الشيء إلا بعد أن شعر الامبراطور أوغسطس نفسه بوحشية الحكم الروماني وتلقى شكاوى ضحاياه ، فأصدر تشريعه الخاص الذي سنه لبرقة في سنوات ٦ و ٢ قبل الميلاد وحرم فيه على الروماني إقامة الدعوى على غيره إلا اذا كان القتيل أحد أفراد عائلته ، ومنح فيه سكان البلد ضماناً للعدالة من طريق اشتراطه أن يكون أكثر من نصف هيئة المحلفين من الاغريق (أي الوطنيين) إذا كان المتهم يونانياً (عدد الهيئة ٤٥ محلفاً = ٢٣ يونانياً و ٢٢ رومانياً) ونفس الحماية إن كان المتهم من الرومان (٢٣ رومانياً و ٢٢ يونانياً)[٣٠].

١١ – مدينة برنيس وثورة اليهود :

وتمضي فترة طويلة من الزمن قبل أن نعثر على حادثة تاريخية لمدينة برنيس فيها دور يمكن أن نشير اليه بل إن هذه الحالة تكاد تنطبق على جميع الإقليم ككل ،وذلك لأن اندماج برقة في الدائرة الرومانية الواسعة قد جعل المؤرخين القدماء يغضون النظر عنها لأنها لم تعد مسرحاً رئيسياً للأحداث الكبرى التي تستقطب اهتمامهم في حياة وسياسة وأوضاع العصر . ومن الطبيعي أن تكون فرصة ذكر مدينة برنيس بالذات أقل من الاقليم بكثير ، وهكذا يكاد القرن الأول الميلادي بكامله ينقضي دون أن نعثر لهذه المدينة على ذكر في التاريخ المدون ، وليس معنى هذا أنها قد اندثرت أو انتهى أمرها أو قلّ شأنها عما كانت عليه قبل ذلك بل إنه على العكس من هذا فإن المظنون أنها كانت أحسن حظاً خلال القرن الأول للميلاد من فترة الحروب الرومانية الأهلية .

وحتى الآثار فإنها لا تجود علينا بالكثير ، ربما لأن المدينة الحديثة قامت بمبانيها حائلاً مستمراً حال دون اجراء حفريات منظمة في أي مكان من المدينة حتى الآن . وما كشف عنه من آثارها وهو قليل فإنما يعود لعامل الصدفة وحده ، ويتمثل في بعض التماثيل والنقوش والفسيفساء والمقابر بجهازها الجنائزي وبعض النقود .

ومن بين آثارها الراجعة إلى هذه الفترة من تاريخها تمثال نصفي للأمبراطور تيبريوس Tiberius (١٤ — ٣٧ للميلاد) عثر عليه أثناء حفر أساسات مبنى البلدية في بنغازي . وقد رأى بعض المؤرخين في هذا التمثال دليلاً على تكريم أهل المدينة أو سلطاتها لهذا الإمبراطور ، وانتهى من هذا إلى أنه لا بد وأن يكون تيبريوس قد قام بعمل اصلاحي ما في هذه المدينة استوجب عليه ذلك التقدير [٣١].

ومن آثارها الراجعة إلى نفس الفترة التاريخية نقشان أعيد أحدهما إلى سنة ٢٤ ــ ٢٥ ، وأعيد الآخر إلى سنة ٥٦ م . ويتعلقان في موضوعها بيهود هذه المدينة خلال القرن الأول من الميلاد من حيث علاقتهم بحكام الرومان ومكانتهم الخاصة بين السكان ، وقد ألقت هذه النصوص بعض الضوء على وضعهم فيها خلال القرن الأول للميلاد وحتى الثورة المدمرة التي قام بها هؤلاء سنة ١١٥ بعد الميلاد .

وقد شهدت البلاد ثورتين لليهود ، كانت الأولى نتيجة لدعوة قام بها داعية يهودي عرف في التاريخ بإسم يوناث Gionata (في اليونانية Iωνάθης ، وهو يونس في العربية) في حدود سنة ٧٥ للميلاد ، وانتهت بالقضاء عليها قبل أن يستفحل أمرها باعدام يوناث أو يونس ، وكانت الثانية سنة ١١٥–١١٦ للميلاد ، وقد اندلعت في مدن برقة لتمتد منها إلى مصر وغيرها من بلدان الشرق.

وقد ارتكب اليهود في هذه الثورة الأخيرة من فظائع أعمال العنف وضروب القسوة والوحشية ما لم يحدث له مثيل في التاريخ مطلقاً ، فقد هدمت المعابد والقصور والدور وأضرمت في المدن النيران حتى تحولت إلى ركام ، وأحرقت المزارع والحقول وأفني الحيوان ، وقضي على سائر مصادر الثروة في البلاد . أما عدد القتلى من الوطنيين ومن الإغريق والرومان فقد تجاوز المائتين والعشرين ألفاً ، وكان اليهود فيما يرويه Dione Cassio يمثّلون بالأجداث ويقطّعون الأوصال ويبقرون البطون ، وليس هذا فقط بل إنهم كانوا يقيمون احتفالات للنصر طعام مآدبها لحوم البشر والشراب المقدم فيها دماء بني الانسان (٣٢).

وما من شك في أن مدينة برنيس ، وقد كانت الجالية أو الطائفة اليهودية فيها قبلها كثيرة العدد متمتعة بالنفوذ الواسع وبالثراء العريض ، من بين أوائل المدن الصريعة في هذه الثورة الدامية الوحشية ، وأنها لاقت نفس المصير بعد أن تعرضت لما سبق وصفه من ضروب الوحشية وفظائع من لا يستحق الانتماء لبني الإنسان ، وأنها خلت من الناس وفقدت ما كان لها من عمران وازدهار ، وشهرة بالثراء .

وبنفس العنف وفي قسوة أشد قضى الجيش الروماني الذي سيّره الإمبراطور تراجان Trajan لمصر فبرقة سنة ١١٦ — ١١٧ للميلاد على الثورة ، وأتى على جلّ العنصر اليهودي في الإقليم (٣٣).

وكانت برقة ، وكان سكانها الوطنيون من ليبيين ومن إغريق هم الضحية الكبرى في هذا الصراع فقد أفناهم في الثورة اليهود ولم يبق على من أفلت منهم الرومان في إخمادهم للثورة فبدت برقة بعد ذلك في التاريخ ، ولفترة طويلة من الزمن منطقة شبه خالية من السكان ، فقيرة جداً في الموارد وفي

الإمكانات ولم تجدِ في إصلاحها وتعميرها بالسكان محاولات من خلف تراجان من أباطرة الرومان ، وفقدت وإلى آخر العهد الروماني ذلك الوجه الحضاري الذي اشتهرت به قبل تلك الثورة في التاريخ [٣٤].

١٢ – مدينة برنيس حتى آخر العهد الروماني :

ليس في تاريخ المدينة بعد هذه الثورة المدمرة العاتية ، ما يشرّف العهد الروماني في التاريخ ، فنحن لا نجد في أحداث السياسة التالية ذكراً لمدينة برنيس في أية حادثة من أحداثـه حتى عصر سينزيوس Sinesius أو حتى مطلع القرن الخامس للميلاد ، ولعل هذا الإغفال لها راجع أولاً ، وقبل كل شيء إلى نـكبة برنيس في ثورة اليهود ، وإلى الحد الذي جعلها بلدة صغيرة متهاوية البنيان وغير ذات شأن مرموق في سياسة البلاد التي لا تمثل بدورها مكان الصدارة في ممالك الرومان الواسعة بعد ذلك التاريخ .

ويمكننا أن نجد في إقدام الإمبراطور هدريان على تأسيس مدينة حديثة عرفت باسمه « هدريانوبوليس » (دريانـة) في منتصف المسافة بين تيوكيرا وبرنيس بعد الثورة مباشرة (حكم هدريان من سنة ١١٧ إلى ١٣٨ للميلاد) يمكننا أن نجد في هذا دليلاً على حالة التدهور التي انتهت إليها كل من هاتين المدينتين ، فلعله قصد من هذا أن يجتذب نحوها ما تبقى من متشردي سكانها معاً ، غير أن محاولته هذه لم تنجح فقد ظلت هدريانوبوليس مدينة مغمورة وفي نفس الوقت استمر وجود المدينتين في التاريخ . أمـا انه اختار الجانب الغربي من الإقليم بالذات فيمكن أن يتخذ دليلاً آخر على أن الدمار والفنـاء كانا في هذه المنطقة ، من بين سائر الإقليم ، أشد وضوحاً وأدعى بالتالي للعلاج ، ذلك أن التاريخ يحدثنا عن محاولة هذا الإمبراطور في إعادة تعمير البلاد

بالسكان الذين استقدمهم إليها بعد الثورة من الرومان الايطاليين ومن جميع الولايات الرومانية الأخرى . غير أن محاولات هدريان قد فشلت في إعادة الإقليم إلى سابق حضارته ومجده وازدهاره ، كما فشلت محاولات الأباطرة الرومان من بعده في تحقيق ذلك لسوء الإدارة ولفساد ضمائر الحكام ولتسلط الجند وإعاثتهم للفساد في ربوعها الدامية واستيلائهم على الأموال والثروات بكل وسيلة ومن أي طريق [٣٥].

ورغم فداحة الخطب وهول الكارثة وشدة الواقعة فإن هذه المدينة لم تتلاش كلية في التاريخ ذلك أنها ظلت باقية وإن كنا لا نعلم كيف ، حتى إلى ما بعد عهد جستنيان ، فقد ذكرت في العقد الأول من القرن الخامس للميلاد (٤١٠ ؟) على أنها الموطن الأصلي لحاكم الولاية الروماني اندرونيكوس Andronico الذي يحدثنا عنه سينزيوس[٣٦] فيقول بأنه كان ابن صياد وضيع من أهل مدينة برنيس غير أنه استطاع بدهائه وبالرشوة أن يرتقي إلى أرفع المناصب في البلاد .

وذكرت مرة أخرى في الربع الثاني من القرن السادس للميلاد في عهد الإمبراطور جستنيان ، فقد ذكر لنا مؤرخه بروكوبيوس Procopio[٣٧] أن هذا الامبراطور قد أعاد بناء أسوارها من الأساس ، وأنه بنى بها حمامات عامة للسكان ، غير أن محاولته تلك لم تفد في إصلاح ما فسد من أوضاع وتدهور من أحوال ، فقد انتهى دور برنيس في ذلك الوقت كمدينة ذات شأن في تاريخ الإقليم . ولما جاء العرب إلى شمال افريقيا ودخلت جيوش الاسلام الفاتحة برقة لم تكن هذه مدينة تذكر مما جعلها تغفل في الفتوح .

١٣ – المسيحية في برقة وفي برنيس :

كان المفروض أن تسبق هذه الفقرة الفقرتين الأخيرتين قبلها بحسب التتابع الزمني، غير أنني فضلت أن أتأخر بها إلى ما بعدها حتى تأتي بموضوعها وحدة ذات ترابط موضوعي تمكّن القارىء من متابعة الأحداث بصورة أكثر سهولة، ولو اتبعت قانون التتابع الزمني كما فعلت مع التاريخ السياسي لجاءت المعلومات مفككة متباعدة متناثرة بين مختلف الأحداث ، ولتعذّر إعطاء القاريء تلك الفكرة الواضحة عن هذا الموضوع الخطير ولو في إيجاز .

وصلة برقة بالمسيحية تعود الى حين نشأتها والى تبشير السيد المسيح برسالته السماوية فقد ذكر في الانجيل أن سمعان القوريني (٣٨) قد حمل الصليب عن السيد المسيح ، حينما كان هذا يؤخذ للصلب (٣٩). وذكرت أعمال الرسل عدداً من القورينيين الآخرين(٤٠) وحتى مرقس نفسه صاحب الإنجيل فإنه ينسب إلى المنطقة (من برقة الإقليم) (٤١)، ويقال إنه هو الذي أسس أول كنيسة للمسيحية بها حتى قبل أن يؤسس كنيسة الإسكندرية (٤٢) كما يقال إن أول أسقف لهذه البلاد كان سمعان الكنعاني (٤٣) ويقال أيضاً إنه لوقيوس القيرواني (القوريني) الذي ذكر في أعمال الرسل (٤٤).

وسواء صحت بعض هذه الأقوال أو رفضت من بعض المؤرخين فإن من الثابت صلة برقة بالمسيحية منذ نشأتها الأولى ، وكانت الصلة المباشرة بين هذه البلاد وبيت المقدس يهود برقة الذين كانوا على صلة دينية وثيقة بموطنهم الأصلي وكثيري الزيارة له(٤٥).

ولكننا مع هذا لا نجد في التاريخ إشارة أكيدة إلى كنائس مسيحية قبل القرن الثالث للميلاد ، غير أن وجودها آنذاك لا يقترن بفكرة نشأتها خلاله

فقد كان الحديث عنها بمناسبة نشوء المذهبين السابلياني[٤٦] والآرياني[٤٧] نسبة إلى سابليوس وآريوس من مواليدها وأساقفتها المشهورين جـــداً في التاريخ المسيحي .

ويعدد التاريخ بين شهداء المسيحية عدداً من الليبيين[٤٨] وتشير الآثار إلى انتشار المسيحية في سائر مدن وقرى هذه البلاد انتشاراً واسعاً توغـّل حتى واحة أوجلة وسط الصحراء وإن حدث هـــذا في عهد متأخر جداً (عهد الامبراطور جستنيان)[٤٩] ، ويعتبر سينزيوس أشهر أساقفة المسيحيـــة في مطلع القرن الخامس للميلاد علاوة على كونه من أشهر أدباء اليونان لذلك العهـــد[٥٠].

ولم يخلُ التاريخ المسيحي من إشارات إلى بعض الأساقفة الذين أداروا كنيسة برنيس فيما بين النصف الثاني للقرن الثالث وآخر القرن الرابع الميلادي مما يثبت أن المسيحية قد كانت لها كنائس في هذه المدينـــة تتبع أسقفية بطلميوسة حيث عاصمة الرومان السياسية التي تتبع بدورها الكنيسة الشرقية بالإسكندرية .

وأول هذه الإشارات نصّ عند يوسيبيوس عن أمون أو أموناس أسقف برنيس الذي أرسل إليه البابا ديونيسيوس سنة ٢٦٠ للميلاد رسالة يحذره فيها من هرطقة سابليوس Sabellio[٥١] ، ويدل الإسم على أنه ليبي وليس ليهودي ولا ليوناني وإن كانت فكرة التمايز في الأسماء بين العناصر الأربعة التي تسكن البلاد قد فقدت قوتها ومفعولهـا في ذلك الزمن وأصبحت حقاً مشاعاً بينهم جميعاً ، وليس منها من هو وقف على عنصر بذاته من بينها كما كانت في السابق[٥٢].

وثاني أسقف لهذه المدينـة ذكر في التاريخ هو داثس Daths وقد حضر

مؤتمر Nicea سنة ٣٢٥ كممثل لبرقة لمناقشة مذهب آريوس والذي حكم عليه فيه بالهرطقة .

وثالث أسقف سمي لهـــذه المدينة في التاريخ هو الأسقف بروبيزيوس Probezio الذي حضر مؤتمر القسطنطينية سنة ٣٩٤ للميلاد كممثـل لبرقة ، وفي هذا المؤتمر صدر الحكم النهائي ضد الأريانية ، وبين هذين الإجتماعـين حدثت في مصر وبرقة والشرق عدة مجادلات فكرية وعقائدية تطورت إلى مصادمات بين أنصار المذهبين الأرياني والكاثوليكي شرّد فيها ونفي هؤلاء حيناً وأولئك حيناً آخر .وما من شك في أن مدينة برنيس قد كانت مسرحاً لهذا الصراع المذهبي العنيف الذي امتد لأطول من قرن من الزمان (٥٣).

وما من شك أيضاً في أن المسيحية قـد اصطدمت منذ أول أمرها بالوثنيات الليبية – اليونانية – الرومانية كما اصطدمت بالديانة الإسرائيلية . ولا نعلم الكثير من أمر هذا الصراع الذي نشب بين هـذه العقائد المتباينة في برقة وإن كنا نعلم أن الامبراطور جستنيان قد طارد الاسرائيلية في البـلاد فعمل على تحويل كنيسة إسرائيلية قديمة في بلدة بوريون أو بوريوم Borium (٥٤) إلى كنيسة مسيحية بعد أن أجبر اليهود فيها على اعتناق المسيحية . كما نجده يطارد الوثنية في أوجلة ، تلك الواحة المنعزلة النائيـة في وسط الصحراء ، حيث مكنتها هذه العزلة والإنزواء من الإستمرار في المحافظة على معبوداتهـا الوثنية ومعابدها أمون والإسكندر وغيرهما من المعبودات الليبية – اليونانية فيعمل على إجبار سكانهـا على اعتناق المسيحية ، ويبني كنيسة للسيدة مريم العذراء ويطعّم العنصر الوطني فيها بمسيحيين من سكان سواحل الإقليم . هذه الأمور من الإمبراطور جستنيان ، وفي تلك الأطراف النائية تجعلنا نحتمل أن بقية البلاد قد طهّرت تماماً من أي أثر للعبادات الوثنية الليبية – اليونانية –

الرومانية وحوّلت معابدهـــا إلى كنائس وأديرة للمسيحيين ، كما طورد الإسرائيليون وفرضت عليهم المسيحية ، وأصبحت دور العبادة عندهم كنائس مسيحية أو هدمت . وبمعنى آخر كانت جميع البلاد في آخر العهد الروماني مسيحية .

ويصدق هذا الوضع على مدينة برنيس أيضاً وقبل عهد جستنيان بكثير بل ربما ان المسيحية في هذه المدينة قد أصبحت هي الديانة الوحيدة لسائر سكانها منذ مطلع القرن الخامس للميلاد أو حتى قبل هذا التاريخ .

واذا كانت الآثار في هذه المدينة لم يكشف عنها حتى الآن ، فإن هـذا لا يمنع من احتمال أن تكون جميع المعابد الوثنية والكنائس الإسرائيلية قد هدمت أو حوّلت إلى كنائس للمسيحيين وقد تسعفنا الصدفة مستقبلاً بالكشف عن كنيسة أو أكثر في هذه المدينة كما كشفت عن كنائس غيرها في عدد من المدن والقرى البرقية الأخرى .

وبما أن الآثار قد كشفت لنا عن عدة كنائس أرجعت إلى العهد البيزنطي وخاصة عهد جستنيان بالذات فليس من المستبعد أن يكون هذا الإمبراطور أو زوجته ثيودورا قد عمل على إقامة كنيسة في هذه المدينة التي أقام بها ، إلى جانب الأسوار ، حمامات عامة للسكان .

١٤ — سكان مدينة برنيس والمواطنة الرومانية :

كنا قد أشرنا إلى أن سكان مدينة برنيس في العهد البطلمي كانوا يتكونون من العناصر الثلاثة : الاغريق — اليهود — الليبيين . وقد دخل مع امتداد النفوذ الروماني عنصر رابع هو العنصر الروماني من إيطاليا ومن غيرها من سائر البلاد التي كانت تخضع للرومان ويتمتع أفرادها بحقوق المواطنة في الدولة

الرومانية الواسعة المترامية الأطراف ، وفيما يلي سنحاول الحديث عن كل عنصر من هذه العناصر الأربعة باختصار ولكن بعد أن نشرح في إيجاز حقوق المواطنة الرومانية في هذه البلاد .

لا تختلف فكرة المواطنة عند الروماني قديماً عنها عند اليونان ، فهي قائمة على فكرة « المدينة الدولة » وبذات المفاهيم ، غير أن الثورات السياسية ـ الاجتماعية ـ الإقتصادية التي حدثت في اليونان وفي غيرها من بلاد حوض البحر المتوسط منذ القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل قد أدت إلى تغيير مفاهيم حق المواطنة عند الروماني واليوناني على السواء . كما أدى إمتداد النفوذ وتوسعه وانتشاره الى التخلص من المفهوم الضيق المحدود بحدود المدينة أو حتى بحدود الإقليم وهكذا منح حق المواطنة الرومانية لأفراد من سائر الشعوب التي خضعت للسيادة الرومانية وإن مقابل خدمات أدوها للدولة أو أعمال قاموا بها . وكانت الجندية أوسع الأبواب التي دخل منها هؤلاء إلى فلك المواطن الروماني . وجاءت المسيحية بفكرة الأخوة الدينية لتوسع من هذا المفهوم ، بعد أن كانت الثقافة والحضارة اليونية ـ الرومانية هي العامل الأهم في التقارب بين مختلف الشعوب .

وهكذا كنا نجد في برقة أناساً يتمتعون بحقوق المواطنة الرومانية المرتبطة بالمدينة في مبدإ الأمر من الليبيين المتأغرقين ومن الاغريق ومن اليهود . وفي تشريع أوغسطس الراجع الى أواخر القرن الأول قبل الميلاد نجد فيه إشارة صريحة الى أن عدداً من الإغريق قد تمتعوا بحقوق المواطن الروماني وأعفوا من إلتزامهم المالي تجاه مدينتهم بموجب هذا الحق . وفي فترات لاحقة نجد عدداً من الرومانيين الذين كانوا في أصلهم من اليهود من أمثال يوسيفوس المؤرخ اليهودي الشهير ومؤلف كتب المكابيين وتاريخ اليهود الذي ترك برقة

موطنه الأصلي ، واستقر بروما وعرف باسم Giuseppe Flavio .

وليست لدينا أية روايات تاريخية صريحة عن وضع العنصر الروماني في هذه المدينة بالذات طوال العصر الروماني ولذلك فليس أمامنا إلا تلك المعلومات العامة بالنسبة الى الإقليم في مجموعه ، والتي تنطبق بالضرورة على برنيس كذلك باعتبارها واحدة من المدن الرئيسية في الإقليم . ومن هذهندرك أن عدد الرومان كان قليلاً حتى ثورة اليهود سنة ١١٦ للميلاد ، وهو يتكون من أولئك الضباط والجند الذين وجدوا فيها ما يغريهم على التوطن والاستقرار إلى جانب بعض الرومان المدنيين الذين اجتذبهم بريق الذهب ودفعهم الى سكناها الأمل في سرعة الإثراء . ويمكننا أن نحصر أهم دوافع الإستقرار في عاملين : الأول عامل احتكار التجارة والسيطرة على الأسواق ومصادر الثروة ؛ والثاني عامل الأفضلية التي يتمتع بها المواطن الروماني على بقية السكان ، أفضلية مكنه سوء استغلالها من سلب ثروات العناصر الأخرى واغتصاب الأراضي والممتلكات وحتى بقوة رجال القانون الذين يدوسون معه نصوصه وأحكامه . ويدخل في عداد الرومان بالطبع أناس من شعوب أخرى غير الإيطاليين اكتسبوا حق المواطنة الروماني . كما يدخل في عدادهم أيضاً أولئك الذين أسبغ عليهم هذا الحق من أهل البلاد السابقين وخاصة من الإغريق . أما بعد تلك الثورة المدمرة فإن من استقدمهم الامبراطور هدريان ومن جاءوا بعده إلى جانب من اكتسب حق المواطنة الروماني قد كوّنوا ولا شك غالبية السكان الذين أفنتهم الثورة وأبعدهم عنها ظلم الحكام وسوء الإدارة وتسلط الجند والمدنيين في غير ما خوف ولا وجل من السلطان.

أما عدد الإغريق فقد استمر كما هو لا يؤثر فيه غير عمليات التزحزح العادية من الهجرة اليها أو النزوح عنها ، وهذه الفئة التي شكلت الغالبية طوال العهد

البطلمي قد استمرت فيما يبدو متمتعة بهذه الأغلبية حتى ثورة سنة ١١٦ للميلاد وكان ما فقدوه نتيجة تحول السلطة من أيدي اليونانيين إلى الرومان ليس بالشيء الكثير اذا ما أخذنا بعين الإعتبار أنهم يلون الرومان مكانة في الاحترام والتقدير ، وأن أباطرة الرومان كانوا يحمون مصالحهم بالتشريعات ويستمعون إليهم في الشكوى والتظلم من سوء الوضع إلى حد أن عدداً كبيراً من الحكام قد حوكموا وعزلوا وعوقبوا لما ثبت من ارتكابهم من مظالم في حق اليونانيين، أما بعد ثورة ١١٦ فإن وضعهم قد اختلف كثيراً إذ ان من فقد الحياة منهم كان كبيراً وأدى تزايد عدد الرومان من جانب وحرمانهم من مصادر العيش بالمزاحمة غير الشريفة وضياع ممتلكاتهم فيها إلى جانب حالة الفقر الذي حاق بالبلاد من جانب آخر قد أدى إلى تناقص عددهم وفقدانهم لمكانتهم وثروتهم مع الزمن وتلاشيهم إما في الرومان أو في العنصر الوطني آخر الأمر .

وأما اليهود فإن عددهم قد أخذ يتزايد في سرعة بعد سيطرة روما على البلاد ويبدو هذا واضحاً وجلياً من أحداث ثورتي ٧٠ و ١١٦ للميلاد اللتين قاموا بها في برقة . ويبدو أن مما شجع اليهود على الهجرة إلى مدن برقة هي تلك المعاملة الممتازة التي عوملوا بها في هذا الإقليم وخاصة في مدينة برنيس حيث كشفت الصدفة عن ثلاثة نصوص ترجع إلى القرن الأول للميلاد وتفصح جميعها عن وضع هؤلاء في مدينة برنيس :

والنص الأول قد أرجع إلى سنة ٢٤ — ٢٥ للميلاد [٥٥] وينص على « أن الجالية اليهودية ، وأراكنتها التسعة [٥٦] قرروا ثناء منهم على ماركوس تيتوس سيكستوس Marcus Titius Sextus الذي بذل كل ما في وسعه منذ وصوله إلى المدينة لإدارتها إدارة حازمة خيرة ، ومعاملة مواطنيها معاملة طيبة ، أن يلقي خطاباً يمتدح فيه هذا الحاكم ، وأن يكلل اسمه بأكاليل من

ورق الزيتون في كل اجتماع عـــام ، وعند أول كل قمر جديد ، وأن ينقش القرار على لوح من المرمر يوضع في مكان بارز من المسرح الدائري»[٥٧].

والنص الثاني ويقولون عنه إنهأقدم عهداً من النص الأول، ولكنه راجع الى العهد الروماني بالتأكيد[٥٨]، يتضمن قراراً أصدره أراكنة جالية اليهود بالمدينة (وعددهم سبعة) والجالية بتكريم ديكسيموس فاليريوس ديونيسيوس Decimus Valerius Dionisius لأنه «لم يتوان في إظهار أنه شخص يستحق التكريم ، ولأنه قام بكسوة أرضية المسرح الدائري وتزيين حوائطه . وقرر الأراكنة والجالية إعفاءه من كل الالتزامات العامة المفروضة عليه قبل الجامعة، وأن يقلد تاجاً من ورق الزيتون في كل اجتماع عام وأن ينقش هذا القرار على لوح من رخام باروس Paros ، وأن يوضع اللوح في مكان ظاهر من المسرح الدائري»[٥٩].

والنص الثالث أرجع الى سنة ٥٦ للميلاد[٦٠] ويفهم منه أن «طائفة من يهود المدينة قدّموا في تلك السنة هبات مالية للإسهام في ترميم بيعة اليهود بالمدينة، وتضم قائمة المتبرعين أسماء ستة عشر رجلاً وسيدتين ، ويحمل العشرة الأوائل لقب أركون ، والحادي عشر لقب حبر ثم أسماء لثلاثة رجال لا يحملون لقباً ، ولكن يبدو أنهم كانوا على درجة من الثراء تفوق ثراء الأراكنة»[٦١].

وتفصح لنـــا هذه النقوش عن أشياء كثيرة تتعلق بالوضع الخاص لليهود كجالية ذات مكانة جعلتها تتمتع بمجلس خاص يمكنه أن يتخذ الى جانب قراراته في الشؤون الدينية والاجتماعية قرارات ذات طابع سياسي الى حد ما، وأمور أخرى ليس من غايتنـا هنا دراستها وتحليلها ، ولكن هذه النصوص تكشف لنـــا فوق ذلك جميعه عن الحظوة التي يتمتع بها اليهود لدى بعض الحـــكام الرومانيين الذين نجحوا في استمالتهم الى صفهم والدفاع عنهم وحماية

مصالحهم بتلك الأساليب الخاصة المعروفة في القديم وفي الحديث على السواء .

ومهما يكن فقد أمكن اليهود أن يتكاثروا في هذه البلاد بسرعة مذهلة ، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار توسع الخمريات في كل من قورينة وبطلميوسة وتيوكيرا وانعدامها كلية في مدينة برنيس ، وراعينا توفُّر ثلاثة نصوص في هذه وعدم العثور على واحد فقط في تلك رغم وفرة ما عثر عليه أللهم سوى عدد من الأسماء المسجلة على المقابر ،أمكننا القول في شبه ثقة بأن اليهود قد ركزوا ثقل جاليتهم في مدينة برنيس وما حولها على الخصوص ، ولأسباب ليست واضحة لدينا حتى الآن ، وإنهم كانوا في مطلع القرن الثاني للميلاد يكوّنون عدداً هائلاً ، ربما كان في مثل عدد اليونانيين أو قريباً من ذلك بالإضافة الى انتشارهم في القرى الصغيرة المنتشرة حول وفي منطقة المدينة .

أما بعد الثورة التي قاموا بها سنة ١١٦ للميلاد، فقد قضي على هذا العنصر قضاء مبرماً حتى انعدم وجوده فيما يبدو من البلاد أو كاد ينعدم ، ذلك أننا لم نعد نعثر على أخبار أو آثار لهم في هذا الإقليم حتى عصر جستنيان ، إذا استثنينا تلك الأسماء التي عثر عليها في مقابر تيوكيرا وبطلميوسة ، والتي لا يمكن تحديد عصرها إلا تكهناً وافتراضاً في معظم الحالات .

وأما العنصر الليبي وهو العنصر الوطني الأصيل فقد حرم من حق المواطنة في معظمه ولفترة طويلة من العهد الروماني لا لشيء إلا لأنه كان لا يتمتع بهذا الحق في العهد البطلمي ، وهذا لا يعني أنه لا يوجد من حصل على حق المواطنة من الليبيين إطلاقاً غير أن انتشار الديانة المسيحية بينه بالتدريج غيَّرت من نظرة الروماني إليه ، ولا سيما بعد أن أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة وكذلك فإن طول العهد الروماني وتغلغل الحضارة الرومانية كبديلة لليونانية قد خففا من نظرة الرومان إلى الليبيين الذين سكنوا المناطق الخاضعة لسلطانهم

الفعلي ولذلك فإنه من المحتمل أن تكون قد تمتعت بهذا الحق مجموعة غير قليلة من الليبيين في القرنين الأخيرين من العهد الروماني على الرغم من أن مؤرخيهم استمروا في اطلاق اسم المور والبربر على الليبيين تمييزاً لهم عن العناصر الثلاثة الأخرى السابقة . كما ان أعدادهم في المدن البرقية قد تزايد ولا شك لتساويهم مع الإغريقي واليهودي والأجنبي في عدم التمتع بحقوق المواطنة الرومانية مما يسهّل عليهم الحياة بعض الشيء .

وخلاصة القول في سكان مدينة برنيس أنهم كانوا قبـــل ثورة سنة ١١٦ يتكونون من : اليهود – الإغريق – الليبيين – الرومان ،ثم اصبحوا بعدها وحتى آخر هذا العهد من: الرومان –الليبيين–اليونانيين ومن الجائزمن قلة من اليهود الذين نجوا من الثورة أو نزحوا إلى البلاد بعدهـــا بزمن سعياً وراء الكسب والتجارة وإن كانوا فيما يبدو قد لجأوا إلى سكنى الضواحي والقرى والأرياف كما هي الحال في يهود بلدة بريون في عهد جستنيان هروباً من تسلط الكنيسة واضطهاد الرومان وكراهية الإغريق .

١٥ – الفنون والثقافة والعمران في برنيس :

لم تقدم لنا كتب التاريخ أيـــة معلومات يمكن أن تفيدنا في التعرف على وضع المدينة الفني – الأدبي – العمراني خلال العهـــد الروماني الطويل إذا استثنينا تلك الإشارة العابرة المتعلقة بمعبد أفروديت الذي أشار إليه المؤرخ والجغرافي سترابون ، وعناية الإمبراطور جستنيان بتجديد أسوارها وانشاء حمامات عامة بها للسكان . وهذه إشارات عابرة وعامة ، وبالتـــالي فإنه لا يمكننا الاستعانة بها في التحسس لمعرفة الطريق وسط هذا الصمت التاريخي العنيد .

ولم تجر في مدينة برنيس أيـة حفريات واسعة لا على أسس علمية ، ولا حتى بالطرق غير العلمية حتى تكشف لنا هذه الحفريات عن مخلفات ذلـك العصر ، ولولا تلك الصدف التي أسعفتنا بالعثور على بعض النقوش والتماثيل الصغيرة والفسيفساء وأثاث القبور الجنائزي لما بقي لنــا من دليل مرشد حتى ولا للتعرف على مكانها بدقة من المنطقة غير تلك الروايات التي قدمهـا لنا قدماء الجغرافيين وما كان يرويه رحالة ورواد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من مشاهداتهم لآثارها الباقية وسط مباني مدينة بنغازي الناشئة آنذاك.

والأشياء القليلة التي عثر عليها صدفة لا تقدم لنا من المـــادة ما يكفي لتكوين فكرة ولو غامضة عن ظروف وأوضاع المدينـــة في مجالات الفن والأدب والعمران ، وكل الذي توصلنا إليه حتى الآن من التاريخ ومن الآثار معاً لا يتعدى بضع معلومات نوردها فيما يلي :

أولاً : معبد أفروديت أو فينوس الصغير الذي أشار اليه المؤرخ سترابون وحدده بأنه يوجد فوق جزيرة صغيرة تتوسط بحيرة تريتونيس .

ثانياً : المسرح الدائري Anfiteatro الذي ورد ذكره في نصين من النقوش الثلاثة الراجعة إلى يهود المدينة وقد ذكر بأنه قـد كسيت أرضيته وزينت جدرانه بالنقوش .

ثالثاً : بيعة اليهود التي ورد ذكر إصلاحها في أحد النصوص اليهودية الثلاثة .

رابعاً : حمامات الشعب العامة التي قال المؤرخ بروكوبيوس إن جتسنيان قد بناها بهذه المدينة .

خامساً : سور المدينة الذي أعاد بناءه الامبراطور جستنيان والذي لم يبق منه ما يرشد الباحث إليه .

سادساً : فسيفساء عثر عليها أثناء حفر الأساسات لتشييد عمارة التوفير والتي يشغلها البنك العقاري الصناعي في الوقت الحاضر .

سابعاً : تمثال نصفي للامبراطور تيبريوس عثر عليه أثنـــاء حفر الأساسات لتجديد مبنى بلدية بنغازي في العهد الإيطالي .

ثامناً : نصوص ثلاثة لقرارات أصدرها أراكنة يهود بنغازي خلال القرن الأول للميلاد .

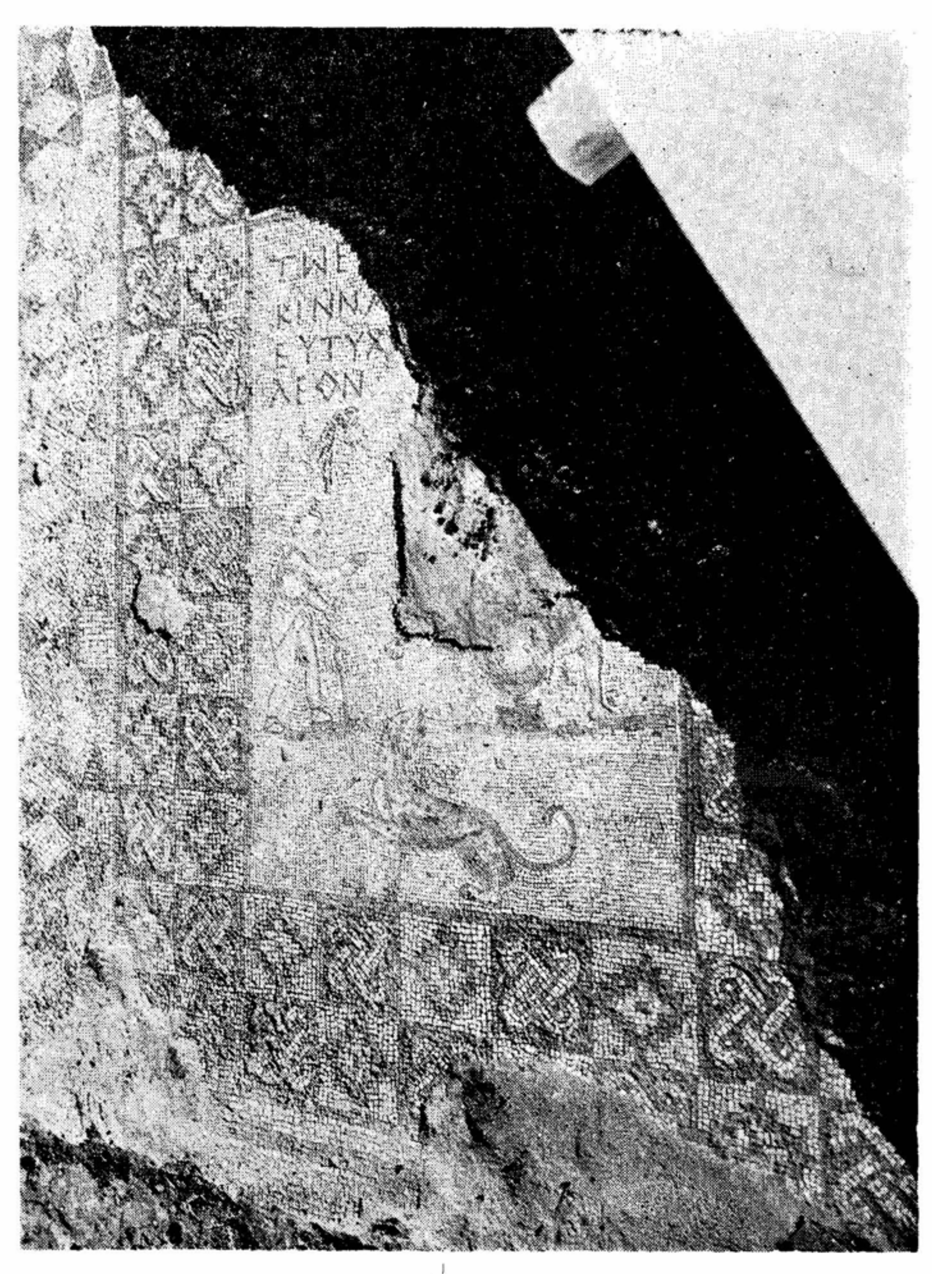
تاسعاً : لوح عقائدي يمثل أربعـــة أشخاص وجزء من خامس عثر عليه إلى الشمال الشرقي من السور الايطالي للمدينة (الصابري) .

عاشراً : تمثال رخامي لفينوس عثر عليه سنة ١٩٠٢ في عين السلماني [٦٢] .

وهذه الأشياء والمعلومات كما ترى ليست بالأدلة الكافية على تكوين فكرة ما عن وضع المدينـــة خلال العصر الروماني اللهم إلا أنها لم تكن خالية من الذوق الفني ولا من النشاط الأدبي ولا من العمران على الرغم من قلة الاكتشافات الأثرية ولكن يجب أن لا نيأس بل علينـــا ترقّب اكتشافات جديدة للمزيد من الآثار في المستقبل [٦٣] .

١٦ — مدينة برنيق في العهد الاسلامي :

ومع أننا نجد عند قودشايلد في بحثه الأثري عن مدينة « بنغازي ، قصة مدينة » [٦٤] أن برنيق قد عاشت كمدينة ، ولو مهجورة في معظمهـا حتى السنة الألف للميلاد تقريباً . إلا أن المصادر العربية القديمة لا تذكر أي شيء من هذا ، والمصادر الإفرنجية القديمة العهـــد تصمت عنها هي الأخرى بعد بروكوبيوس (النصف الأول من القرن السادس للميلاد) ولم يشر هـــذا الباحث الأثري نفسه ولا ذكر غيره نبأ العثور ولو على أثر واحد فقط يمكن



فسيفساء عثر عليها تحت مبنى البنك الصناعي العقاري (شارع عمر المختار)



آثار برنيس : أرضية مبنى البنك الصناعي العقاري (شارع عمر المختار)

فسيفساء عثر عليها في مقبرة السيد خريبش حديثاً

إرجاعه – ولو شكاً – إلى هذا العهد مما يجعلنا نرجح احتمال هجرانها الكامل كمدينة منذ أواخر العهد البيزنطي ، وحتى زمن نشأتها كمدينة حديثة باسم جديد .

ويقوم احتمالنا هذا استناداً إلى عدم ذكرها في الفتوح الإسلامية ، وإلى حيرة الإسم أو على الأصح حيرة من ذكرنا من المؤرخين العرب في تعيين مكان له من برقة ، حتى أنهم أسبغوه على منطقة واسعة امتدت حتى شملت ما بين مدينتي برقة واجدابية عند بعض المؤرخين .

وحتى البكري الذي وصف مدن برقة ، وتعرض في شيء من الإسهاب لمدينتي برقة واجدابية نجده يلتزم الصمت المطبق فلا يذكر عن مدينة برنيق أي شيء .

أما ما أورده ياقوت الحموي عن هذه المدينة وعن غيرها من مدن وقرى البلاد ، فتبدو فيه الترجمة عن كتب الأقدمين ولا سيما الإغريق في غاية الوضوح ؛ والأمر الوحيد الذي يستوقف نظر الباحث هو نسبة البعض من الأدباء والعلماء إليها كعلي البرنيقي الذي ذكره ياقوت ، وكأبي بكر بن برنيق الذي ورد ذكر اسمه في نادرة أدبية وقعت في طرابلس الغرب . ولكن ، وبما أن برنيق استمرت دلالتها على منطقة معينة من البلاد ، فليس من المستبعد أن يكون هؤلاء وأمثالهم من المنسوبين للمنطقة لا للمدينة ذاتها وهذا ليس بالأمر الغريب ولا يزال الناس يلجأون إليه في تسمية الأفراد ، أو ربما كانت هناك مجموعة أو قبيلة عرفت بانتسابها إلى المدينة أو إلى المنطقة وعاش الاسم فيها يتوارثه الأبناء عن الآباء ، ولا يزال هناك في قبيلة المجابرة التي تسكن واحة جالوبيت يعرف بالبرانقة وواضح أنه منسوب إلى برنيق وإن كان هذا البيت الآن قد انصهر في بيت الهويدات منها ولم يعد يذكر البرانقة في الهويدات غير المسنين من القبيلة .

وليس قودشايلد وحده هو الذي يطيل في عمر مدينة برنيق وبقية المدن البرقية الى آخر القرن العاشر للميلاد ، فقد جرت عادة غالبية كتَّاب الغرب من الافرنج على هذا ومن غير أن يكون لهم أي سند تاريخي يعتمدون عليه ، أو بعبارة أدق لم يهتموا بدراسة وتحقيق ما ورد في بعض كتب الجغرافيا العربية من نصوص حول مدينة برنيق كنص اليعقوبي في البلدان والذي سبقت الاشارة إليه وقبلوها كما وردت عند هؤلاء وعلى أنها موجودة حقيقة ، ربما لكي يبعدوا عن آخر العهد الروماني وصمة إلحاق الخراب والدمار بهذه البلاد ليلصقوها بالعرب والاسلام تحيزاً منهم وتعصباً للتاريخ الروماني، إذ من المعلوم أن نزوح قبائل بني هلال وسليم الى الشمال الافريقي قد حدث في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، وقد نسب الى هؤلاء حتى من غير الأوروبيين خراب هذه الأقاليم تجنياً عليهم من صاحب هذه الدعوة الأول (الشريف الادريسي) ذلك العربي الذي تنصَّر على يدي البابا ليون العاشر ، فتنكر لقوميته وعروبته ووصف العرب في كتابه بما لا يجرؤ عليه سواه ، ناسباً إليهم خراب كل مكان وجدت به آثار من الأمم التي سبقتهم في استيطان الشمال الافريقي ؛ ثم شعوبية فيما يرى البعض من صاحبها الثاني (ابن خلدون) التي اشتهرت به ونسبت خطأ إليه على أنه القائل بها قبل سواه .

ونخلص من هذا كله الى أن مدينة برنيق في العهد الاسلامي كانت عبارة عن منطقة أثرية مهجورة تسكن حولها مجموعات من الناس تنتسب في جلها الى قبيلتي هيب ورواحة من بني سليم ، وأن الفترة التي يبدو أنها قد دمرت فيها تقع ما بين آخر عهد جستنيان وسنة الفتح الاسلامي ٦٤٣ للميلاد أي خلال فترة المائة سنة الأخيرة من حكم الرومان وبسبب الإهمال الكامل الذي تعرضت له بعد جستنيان .

الفصل الخامس

الهوامش والتعليقات

١ – دكتور مصطفى كمال عبدالعليم : – « دراسات في تاريخ ليبيا القديم » ص ١٢٨ ، وما بعدها . Pietro Romanelli في كتابه Cirenaica Romana ص ٣٢/٣٣ وآخرون؛ومن أهم من درسه Gaspare Oliverio في .Riv. Filol المجموعة الجديدة ، السنة السادسة (١٩٢٨) ص١٨٣ وما بعدها . وقد اختلف دارسو هذا التشريع في شخص بطلميوس المنسوب اليه ، وأرجح الآراء أنه بطلميوس الأول ، وليس الثالث وقد سنّه لبرقة بعد استيلاء أوفلاس عليها (سنة ٣٢١ ق.م.) وليس لبطلميوس الثالث ، ولا بمناسبة زواجه من برنيس ، ولا هو بتشريع المشرعين اليونانيين اللذين قدما في عهد هذا الملك . وبهذا الرأي الأرجح أخذنا في هذه الدراسة .

٢ – يختلف العلماء في تحديد الفترة الزمنية التي حملت برقة فيها اسم بنتابوليس أو اتحاد المدن الخمس ، فهناك من يرجعه الى العهد الجمهوري (٤٥٠ – ٣٢٢ ق.م.) وهناك من يرجعه الى عهد البطالمة (٣٢٢ – ٩٦ ق.م.)ويوجد من يرجع به الى بعد هذا الزمن باعتبار أن هذه التسمية لم ترد إلا في نص متأخر يعود الى القرن الميلادي الأول وليس من غاية

بحثنا تحقيق ذلك ولا تقديم حجج كل فريق ، وإن كنا نميل الى واحد منها فإننّا أميل الى الأخــذ بإعادته الى العهد البطلمي لرجاحة ما قال به ذووه .

٣ – من المعلوم أن الإغريق كانوا لا يعترفون باغريقية من لم تكن أمه إغريقية كأبيه ، وقد رفضوا أن يعترفوا بهذا الحق حتى لابن الاسكندر المقدوني نفسه من الفارسية (أنظر حول هذا الموضوع ما كتبه دكتور مصطفى كمال عبدالعليم في : « الأوضاع الدراسية في برقـة من : « دراسات في تاريخ ليبيا القديم » ص ١٤٢ و ١٤٣) .

٤ – كانت المدن الرئيسية في العهد اليوناني الباطي – الجمهوري أربعة هي : قورينة ، وتتزعم الإقليم جميعه باعتبارها أكبر وأقوى هذه المدن، ويتبعها ميناؤها الذي عرف فيما بعد باسم أبولونيا ؛ وبرقة وهي تأتي بعد قورينة في الترتيب ، وتعد أخطر منافسة لقورينة على زعامـة الإقليم ، ويتبعها ميناؤها الذي عرف فيما بعد ببطلميوسة ، ثم يوهسبيريدس ، وهي شبه معترفة بزعامة أي من المدينتين الأخريين ، وإن كانت تقف دائمـــاً الى صف برقة كلما نشأ صراع بين المدينتين ، ولكنها فيما يبدو لا تهتم كثيراً باثبات زعامتها على الإقليم ربما لوقوعها الى الغرب حيث يمتد السهل لأكثر من مائة كيلو متر حتى يلتقي بالصحراء في الجنوب ، وأخيراً مدينـــة تبوكيرا ذات المساحة والإمكانات المحدودة لوقوعها محصورة بين منطقتي نفوذ مدينتي برقة ويوهسبيريدس ، وهي بالتالي ليست لذلك بذات أهمية في أحداث ذلك العصر .

٥ – وقد ذكرت برقة من سترابون على أنهـــا احدى المدن الخمس بينما لم يعدّ بطلميوسة من بينها ، ولكنه قال في موضع آخر حينما كان يصف ساحل الإقليم عن بطلميوسة إنها « كانت قديماً تسمى برقة » ، وهذا معناه أن مدينة برقة قد جدّدت في بطلميوسة وحملت الاسم معها حتى تركته الى

الاسم الجديد كما حدث في يوهسبيريدس وفي نفس الفترة ولذات السبب والمناسبة .

٦ – ذلك أننا نجد إسمي برنيس وبطلميوسة قد استمرتا تطلقان على المدينتين طوال التاريخ حتى انتهت المدينة ذاتهـــا وهجرت بالنسبة الى أولاهما واستمرت حتى يومنا هذا بالنسبة الى طلميثة، بينما لا نجد اسم أرسينوي يثبت بل غيّر اسمها الى كليوباتيريس، ثم نجد التسمية القديمة قد ظلت حية مع ذلك حتى الآن على أنها توكره مما يحمل على الاعتقاد بأن الشعب لم يقبل بأي من التسميتين الرسميتين أبداً وانما استمر يستخدم الاسم القديم ذاته ، تاركاً للسلطة وحدها تطلق عليهـــا ما شاءت من الأسماء التي لم يحفظها لنا غير النصوص المكتوبة في التاريخ من معاصري هذه الفترات.

٧ – دكتور ابراهيم نصحي : تاريخ البطالمة في مصر، الجزء الأول ص ١٩٨، Polibio في Le storie (١٠/٣١) ، Oliverio في Doc. Ant. Afr. Ital. (المجلد الأول – القسم الأول) وآخرون .

٨ – Pietro Romanelli : - Cirenaica Romana, Pag. 15. Gas. Oliverio : - Precc.

٩ – Ben. Bonacelli : - Il Fiume Lethon O Lete Dell' Antica Cirenaica.

١٠ – راجع Oliverio المصدر السابق ، فإن معظم هذا القسم لا يناقش غير هذه الوثيقة في نصها اليوناني الذي عثر عليــه وتصويباته للأخطاء التي وقع غيره فيها في دراسته للنص اليوناني وتحقيقه التفصيلي للملابسات والظروف التاريخية حول موضوعه ، فهذا أهم مرجع على الاطلاق .

١١ – راجع دكتور ابراهيم نصحي : تاريخ البطالمة في مصر . الجزء الأول (عدة مواضع منه) ودكتور مصطفى كمال عبد العليم في البحث الثالث

من دراسات في تاريخ ليبيا القديم المتعلق بتاريخ اليهود في برقة ، فهما من أهم المراجع في العربية .

١٢ – دكتور ابراهيم نصحي : تاريخ البطالمة في مصر ، الجزء الأول – عدة مواضع منه .

١٣ – من بين مشاهير اليهود الذين نسبوا الى برقة في هذا العهد جاسون القوريني (القرن الثاني قبل الميلاد) الذي ألف كتاباً في تاريخ اليهود حفظ لنا ملخصاً له سفر المكابيين الثاني من أسفار الكتاب المقدس (التوراة) . راجع ص ٢٦٣ من الجزء الأول من تاريخ الكنيسة (في الايطالية) وراجع كذلك الكتاب المقدس مقدمة سفري المكابيين من الطبعة العربية .

١٤ – Fustel De Coulange : - La Cité Antique وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية الاستاذ عباس بيومي وراجعه دكتور عبد الرحمن الدواخلي ونشرته إدارة الثقافة والترجمة في وزارة المعارف العمومية بمصر ونشر سنة ١٩٥٠ . وقد أقام كاتبه (من علماء القرن الماضي) نظريته فيه على أساس أن الديانات والعقائد الوثنية كانت العامل الأول والمهم في تشكيل مجتمع الدولة المدينة لدى كل من اليونانيين والرومان . وهي النظرية التي عاد باحثو القرن الحالي الى الأخذ بها من جديد .

١٥ – وقد كتب عن هذا النص الذي عثر عليه في شحات كثيرون ، غير أن مصطفى كمال عبد العليم في دراسته عن النظم الدستورية في برقة المكونة للبحث الثاني من كتابه دراسات في تاريخ ليبيا القديم قد أوجز هذه الكتابات ، وقدم ترجمة عربية للنص اليوناني ، وعليها اعتمدنا في بحثنا هذا .

١٦ – أفروديت آلهة الحب والشهوة ولدت من بين الأمواج فوق صدفة من

المحار، من كبريات المعبودات الإغريقية وقد عرفها الرومان باسم فينوس وعرفت من العرب باسم الزهرة في عـلم الفلك وهي تمثل الربيع في الفصول ، ولها عدة تماثيل آية في جمـال الفن من أشهرها تمثـال Yenere Anadiomene الذي عثر عليه بقورينة وقد عثر على أكثر من تمثال صغير الحجم لها في بنغازي كذلك على ما سيأتي في موضعه .

١٧ – التجسيد الميثولوجي لمدينة قورينة تقول الأسطـورة عنها إن أبولون قد رآها وهي ترعى في الغابة وتصارع الوحوش فأغرم بهـا واختطفها بواسطة المارد قيرون Kirone وأخفاها في حدائق زيوس بليبيا حيث قامت المدينة التي حملت اسمها فيما بعد . وقد صورت في النقوش وهي تصارع الأسد بينما وقفت ليبيا تتوجها باكليل النصر (اللوحـة لها صورة بالجبس في متحف شحات) .

١٨ – Piet. Romanelli : - Cirenaica Romana p. 13 وقد ناقش كثيرون روايات الأقدمين حول هـذه الوصية فقبلها بعضهم ورفضهـا البعض الآخر . ومن أهم من ناقشهـا Thrige في Res Cirenensium ص٢٦٣و Oliverio في Doc. Ant. Afr. Ital. المجلد الأول، القسم الأول، ص ٧٥ – ٧٨ .

١٩ – Gas. Oliverio : - Doc. Ant. Afr. Ital. Vol II. Fasc. II. p. 146. وحول استمرار قوة التشريع بعد عهد فسكون هذا قام جدل فقهي (قانوني) ليس من الأمور التي تهم قارىء التاريخ عموماً ، وهـذه الدراسة منه على الخصوص . ولذلك نضرب صفحاً هنا حتى عن الاشارة الى خطوطها العامة .

٢٠ – أشار الى هذا التضارب بالتفصيل مع مقارنة النصوص التاريخية القديمة Gas. Oliverio في Doc. Ant. Afr. Ital. ، الجزء الأول ، القسم الأول

ص ٧٦ و ٧٧ . كما أشار إليه في إيجـــاز Piet. Romanelli في Cir. Rom. ص ١٣ .

٢١ — Francesco Valori :- Storia Della Cirenaica, pag. 36. Piet. Romanelli : - Ciren. Rom. p. 67. Gas. Oliverio : - Doc. Ant. Afr. Ital. Vol. II, Fasc. II, pag. 147.

٢٢ — Pietro Romanelli : - Cirenaica Romana. pag. 44.

٢٣ — Pietro Romanelli : - Cirenaica Romana. pag. 61-62. P. Francesco Rovere : - La Missione Francescana in Cirenaica. pag. 33 وآخرون .

٢٤ — Lucano في Farsaglia وهي ملحمة شعرية تصف حروب قيصر ضد بومبيوس ، ولكن الخيال لم يحجب فيها حقيقة الأحداث فــيما يراه المؤرخون حولها .

٢٥ — Thrige : - Res Cirenensium. pag. 356 e segg.

٢٦ — P. Fran. Rovere : - Miss. Franc. Ciren. pag. 7. Piet. Romanelli : - Cirenaica Romana. pag. 57, 63. Gas. Oliverio : - Doc. Ant. Afr. Ital. vol. II Fasc. II pag. 165. Mommsen : - Res Gestes Divi Augusti pag. 118.

٢٧ — P. Franc. Rovere :- Miss. Franc. Ciren. p. 7. Piet. Romanelli: Cirenaica Romana p. 63-4.

٢٨ — Piet. Romanelli :- La Cirenaica Romana pag. 64,65.

٢٩ — Tacitus :- Annali, Lib. III 38,70. Lib. XIII, 30. Lib. XIV, 18.

٣٠ — Piet. Romanelli : - La Cirenaica Romana pag. 82-66. Franc. Valori - Storia Della Cirenaica. pag. 47.

٣١ — Piet. Romanelli : - La Cirenaica Romana pag. 103,104.

٣٢ — Piet. Romanelli : - La Cirenaica Romana pag. 116.

٣٣ — Piet. Romanelli : - La Cirenaica Romana pag. 115.

٣٤ — كانت برقة يونانية اللغة ، والثقافة ، والحضارة ، كما كانت معظم مدنها يونانية العنصر . ولكنها بعد هذه الثورة فقدت هذا الوجه الحضاري لتكتسي طابع الحضارة الرومانية ثقافة ، وحضارة ، وعنصراً ، ولغة . غير أن هذا الوجه الجديد كان مهزوز الظلال غير محدد المعالم ولم تبلغ به المستوى الذي بلغته بالأولى في عصر الازدهار الذي يمكننا أن نحدده في العهود : الجمهوري —البطلمي— الروماني(السابق للثورة) ففيها أنجبت أرستبوس الفيلسوف، وكاليماخوس الشاعر ، وابراثوستنيس الجغرافي العالم ، وكارنيادس مجدد الافلاطونية وجاسون اليهودي (صاحب الأصل في سفر المكابيين الثاني من الكتاب المقدس) وغيرهم من المتألقين في عالم الفلسفة والأدب والعلوم واللاهوت والفنون ، بينما لا نكاد نجد أحداً يتألق نجمه ويسطع اسمه بين الخالدين في التاريخ إذا نحن استثنينا آريوس صاحب المذهب الارياني المسيحي وسينزيوس الأديب الذي اشتهر باسقف بطلميوسة ، واللذين شهرتها المسيحية كديانة ولكنهما كانا يونانيي الأصل والثقافة على ما يبدو في التاريخ .

٣٥ — ولسنا في حاجة الى إحالة القاريء على مرجع بذاته في هذا السبيل ، فجميع كتب التاريخ الروماني تقدم الأدلة العديدة على هذا ، وتكفي الاشارة — لا بقصد الحصر — الى كتابات الأسقف سينزيوس وهي عديدة ومترجمة الى عدة لغات عدا العربية ، والى التاريخ السري لبروكوبيوس مؤرخ جستنيان وحوليات روما لتاتشيتوس Tacitus وغيرها مما يعدُّ بالعشرات بل وربما بالمئات من المراجع إذا ما أخذنا بالحديثة والقديمة معاً .

٣٦ — Sinesius أسقف بطلميوسة الشهير ، وآخر النجوم المتألقة في الأدب

اليوناني القديم ولد في حدود سنة ٣٧٠ م. من أسرة اغريقية عريقة (دورية) وبالرغم من اعترافه بهذا إلا أنه كان يصر على ليبيته ويصف نفسه بالليبي. كان يوناني الثقافة واسع الاطلاع راجح العقل أوفد سنة ٤٠٠ م. الى القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ليصور المظالم التي تتعرض لها البلاد للامبراطور أركاديوس وكان قبل إيفاده قد خدم لمدة قصيرة في الجيش وتقلد عدة مناصب مدنية في بلاده ، وبعد أن بقي بها ثلاث سنوات خدم فيها بلاده وحقق لها مطالبها غادرها مسرعاً فراراً من هزة أرضية عنيفة أفزعته الى الاسكندرية حيث استقر سنتين (٤٠٢ — ٤٠٤ م.) وقد عاد إليها مرات وتزوج منها مسيحية فيما يظن وكان هو وثنياً حتى سنة ٤١٠ م . وفي هذه السنة مات أسقف بطلميوسة فتوجه مسيحيوها الى بطريرك الاسكندرية بالرجاء ليعينه أسقفاً فعمد سينيزيوس نزولاً منه عند رغبة زوجته ومن أجل أبنائه الثلاثة فخدم الكنيسة بعلمه وثقافته ومات سنة ٤١٥ م. حسبما يقدر البعض ، وترك عدة آثار أدبية جمعت وترجمت الى عدة لغات من بينها الانجليزية والفرنسية والألمانية وتعد رسائله من أهم المراجع في تاريخ الاقليم (برقة) عن تلك الفترة .

٣٧ — Procopio : - « Edifizii » Lib. VI cap. II Pag. 472 - 73.

٣٨ — هكذا في الترجمات الايطالية والانجليزية ،أما في الترجمة العربية المعتمدة فقد سمي سمعان القيرواني نسبة الى القيروان وهو خطأ فاحش يقع فيه الكثيرون من مؤرخي العرب ، فقد جاء عند ياقوت عند حديثه عن القيروان في معجم البلدان ما يلي بالنص : « قال الأزهري : القيروان معرب ، وهو بالفارسية كاروان ، وقد تكلمت به العرب قديماً . قال امرؤ القيس : « وغارة ذات قيروان .٠. كأن أسرابها الرعال » [القيروان القافلة] ، والقيروان في الإقليم الثالث طولها إحدى وثلاثون

درجة وعرضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وهذه مدينة عظيمة بافريقية غبرت دهراً وليس بالقرب مدينة أجل منهــا الى أن قدمت العرب افريقية وأخربت البلاد ، فانتقل أهلها عنها ، فليس بها اليوم إلا صعلوك لا يطمع فيه » . وما كتب ياقوت هنا عن القيروان الـتي بتونس والتي يقول عنها هو نفسه وفي ذات الصوت :« ... فجاءوا الى موضع القيروان وهي في طرف البر ، وهي أجمة عظيمة وغيضة لا تشقها الحيات لتشابك أشجارهــا ...... ثم [يقصد عقبة بن نافع] اختط دار الإمـــارة ، واختط الناس حوله .. الخ ». لا ينطبق على القيروان التونسية وانما هو بقورينة ألصق ، بل ان في الرواية التي نقلها الناصري السلاوي في الاستقصا عن بعض المؤرخين العرب ما يوضح هذا اللبس صراحـــة : « ... خشي [زهير بن قيس البلوي] على نفسه الفتنة ، وكان من العباد المجتهدين ، فترك (القيروان) آمن مـا كانت وارتحل الى المشرق ، وقال : إنما جئت للجهاد في سبيل الله تعالى ، وأخاف على نفسي أن تميل الى الدنيا ؛ فلما وصل الى (القيروان) وجد أسطول الروم على قتالها في جموع عظيمة من قبل قيصر وبأيديهم أسرى من المسلمين فاستغاثوا به وهو في خف من أصحابه فصمد إليهم فيمن معه ، وقاتل الروم حتى قتل وقتل معه جماعـــة من أشراف أصحابه ونجا الباقون ... الخ » . فاذا تدبرت هذا وسابقه ثم رجعت الى الترجمات غير العربية للكتاب المقدس اكتشفت جواب الكلمـــة ومبررات الإلتباس فيها .

٣٩ ـ الكتاب المقدس : انجيل متى : السابع والعشرين ٣٢ . لوقا : الثالث والعشرين ٢٦ . مرقس : الخامس عشر ٢١ . ولم يشر إليه يوحنا (التاسع عشر ١٧) .

٤٠ ـ أعمال الرسل : الثاني ١٠ . الثالث عشر ١ . السادس ٩ .

٤١ — P. Franc. Rovere : - Miss. Franc. Ciren. p. 15

٤٢ — P. Franc. Rovere : - Miss. Franc. Ciern. p. 15

٤٣ — P. Franc. Rovere : - Miss. Franc. Ciren. p. 15

٤٤ — الثالث عشر ، ١ .

٤٥ — يذكر بروكوبيوس أن يهود بوريون كانت لهم كنيسة يعيدونها أسطورياً الى عهد الملك سليمان (الكتاب السادس الفصل الثاني من كتـــابه Edifizii)وتؤكد كتب التاريخ الحديثة التأليف أن البطالمة ثم الرومان قد سمحوا ليهود برقة بتقديم الهدايا والهبات ودوام الصلة بمعابدهم في فلسطين ، وهذا واضح من كثرة من ذكروا بين المسيحيين في أول عهد هذه الديانة في الأناجيل وأعمال الرسل وتاريخ الكنيسة .

٤٦ — يدور خلاف حول أصـل سابيليوس Sabellio فيوسيبيوس في تاريخ الكنيسة ينسبه صراحة الى برقة وينفي هذا غيره من مؤرخي الكنيسة المسيحية الأحدث عهداً . والمذهب السابلياني كما لخصه الشهرستاني في الملل والنحل : « وزعم سباليوس أن القديم جوهر واحد : أقنوم واحد له ثلاث خواص ، واتحد بكليته بجسد عيسى بن مريم عليهـــا السلام» . (ص ٥٤٩ من تحقيق محمد بن فتح الله بدران، مطبعة الازهر، الطبعة الأولى) ، وعند Mons. L. Duchesne في كتـــابه المسمى Storia Della Chiesa Antica (الأول ص ٢٦٤) نجد هذا المذهب قد لخص منه كما يلي : « ... وفي الكنائس لم يعد يتحدث عن الفعل ابن الله المنفصل عن الآب . والثلاثية قضية ألفاظ ، وتحديدات الآب ، والابن ، والروح القدس ، ثلاث صفات متتابعـة للأقنوم القدسي في الخلق ، والخلاص ، والقدسية .... الخ » وهو ليس ببعيد مما نجده عند الشهرستاني . ونجـــد تحت صوت Sabellianesimo في دائرة

المعارف (.U.T.E.T) (المجلد التاسع ص ٩٣٩) ما خلاصته: « في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد خرج على الكنيسة المسيحية أحد قساوسة كنيسة طلميثة في ليبيا وهو سابليو فنادى بمذهب لا ثلاثي (توحيد ؟) نسب فيما بعد اليه السابيلياني . وقد بنى مذهبه على أن الآب والابن والروح القدس ليسوا ذواتاً كل منها قائم بذاته ـ كما هو المذهب الكاثوليكي ـ ولكنها أسماء لذات واحدة تعرف بإحداها مرة وبأخرى مرة أخرى أو كما يقول هو إنما هي أقنعة يتجلى الإله وراءها آناً كآب يخلق الكون ، وآناً كإبن يتجسد في المسيح ليصلب على الصليب [مخلصاً] وآناً كروح القدس ليشع نوره في قلوب الحواريين والرهبان . ويقارن هذا السابيليوس في مبدئه بين التثليث والشمس في في ضوئها وحرارتها وحجمها الذي تتجلى به لأعيننا » .

« وقد ثار على المذهب السابلياني أسقف الاسكندرية ديونيسيوس ثم قاومه في روما ترتوليانوس ويبوليتوس Ippolito والبابا زيفيرينوس والبابا كاليستوس وحكم على هذا المذهب بالفساد وأهله بالإلحاد في مؤتمر أساقفة أنطاكية سنة ٢٧٢ . ومن ذلك الوقت تلاشى أنصار وأتباع هذا المذهب ولكن شيئاً من أثره ظل يبدو في العصور الوسطى وفي عصر النهضة والإصلاح الديني . وحتى في الفلسفة الحديثة نجد لهذا المبدإ صدىً في آراء Soleiermacher إذ يرى أن الله هو الموجد لجميع الموجودات كآب خالق وكإبن في المسيح وكروح قدس في الكنيسة».

٤٧ ـ والأريانية نسبة الى آريوس وهو من مواليد بطلميوسة وقد وصفه لنا S. Epifanio كما يلي : «آريوس كان ليبياً تقدمت به السن ، طويل القامة ، مهيب الطلعة ، بسيط التصرف ، في ملامحه شحوب وجدية ، ساحر الصوت ،مقنع الحجة» ، وقد ذكر الشهرستاني في «الملل والنحل» (ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠) حوله ما يأتي : « وزعم آريوس أن الله واحد

سماه آباً ، وأن المسيح كلمة الله وابنه على طريق الإصطفاء ، وهو مخلوق قبل خلق العالم ، وهو خالق الأشياء . وزعم أن الله تعالى روح مخلوقة أكبر من سائر الأرواح ، وأنها واسطة بين الآب والإبن تؤدي اليه الوحي ، وزعم أن المسيح ابتدأ جوهراً لطيفاً روحانياً خالصاً غير مركب ، وغير ممزوج بشيء من الطبائع الأربع ؛ وإنما تدرّع بالطبائع الأربع ، عند الاتحاد بالجسم المأخوذ من مريم . وهذا آريوس قبل الفرق الثلاث ، فتبرأوا منه لمخالفتهم إياه في المذهب » .

وما كتب في عدد من كتب التاريخ المسيحي يتفق مع ما جاء عند الشهرستاني حوله الى حد ما ، ولتشعب الحديث حول هذا المذهب وتاريخه ودوره في الكنيسة وكثرة مادته نكتفي بما قدمنا حوله ونحيل القارىء الى المراجع العديدة في تاريخ الكنيسة القديم ونذكر منها للمثال : P. Franc. Rovere : La Missione Franceseana in Cirenaica. Mon. L. Duchesne :- Storia Della Chiesa Antica . vol, II Cap. IV page 78 e segg.

٤٨ – لم يحدث في برقة ضد المسيحية عنف بالدرجة التي حدثت في غيرها وكان عدد شهداء المسيحية قليلين نسبياً فقد ذكر في سنة ٣٠٢ : تيودور أسقف قورينة ، وبعده بقليل : تيودور آخر كان أسقفاً لبطلميوسة ،مع مساعده يرينيوس Ireneo واثنين من تلاميذه سيرابيون وأمونيوس ، وفي سنة ٣١٩ أسقف مدينة برقة ، وربما عدد آخر قليل . ويرى بعض المؤرخين أن كهوف الجبل الأخضر قد آوت عديداً من المسيحيين أثناء مطاردة المسيحيين في برقة غير أن الدليل ينقص هؤلاء لإثبات ما ذهبوا اليه راجع: Fr. Valori:- Storia D. Cir. p.57-8.

٤٩ – القرن السادس للميلاد (٥٢٧ – ٥٦٥) وقد سجل جانبي هذا العهد لنا مؤرخه الشهير بروكوبيوس Procopio في ثلاثة كتب مستقلة

خصص الأول منها لحروب جستنيان الفارسية، والفندالية، والقوطية. وخصص الثاني للانشاءات والأعمال الإصلاحية التي قام بها هذا الإمبراطور في مختلف أنحاء الامبراطورية الواسعة. وهذا وسابقه أحد جانبي صورة هذا العهد، أما الجانب الآخر وهو المظلم المليء بالشرور والآثام والموبقات والوحشية فقد حواه الكتاب الثالث والذي عرف بالتاريخ السري لحياة جستنيان. وهذا الأخير بالذات يعكس صورة حكم هذا الامبراطور الحقيقية في وحشيتها وقسوتها ومباذلها وكم من المفيد ترجمته الى العربية.

٥٠ — وتعود شهرة سينزيوس الى مخلفاته الأدبية العديدة التي وصلت إلينا أكثر مما تعود إلى أعماله كأسقف، راجع هامش ٣٤ من هذا الفصل.

٥١ — راجع هامش ٤٤ من هذا الفصل.

٥٢ — دكتور مصطفى كمال عبد العليم: دراسات في تاريخ ليبيا القديم ص١٩٠ — ١٩٢. وقد أورد نماذج لستة أنواع من أسماء اليهود: يهودية، يدخل في تركيبها اسم الرب، يدخل في تركيبها اسم معبود وثني، اغريقية، رومانية، وثنية. واذا صح هذا بالنسبة لاصحاب الكتاب فكيف بالوثني المتأغرق؟

٥٣ — P. Franc. Rovere :- Miss. Frances. Cir. pp. 17 - 22.

٥٤ — Procopio :- Edifizii Lib. II Cap. II.

٥٥ — Piet. Romanelli :- Cir. Romana pag. 88 ، وقد أرخ هذا النقش بالسنة الخامسة والخمسين، وذكر رومانيلي في هامش حول التاريخ أنه يرجع الى عهدها كولاية رومانية وليس كما اعتقد بعض الباحثين بتاريخ خاص بمدينه برنيس، ولم يقدم غير هذا شيئاً ما حال بيننا ومناقشته فيما رجح وإلا فإن هذا التاريخ يضعنا في حدود سنة ٣٠

قبل الميلاد كبداية ، وهي تاريـــخ معركة انزيو Anzio الفاصلة في تاريخ الرومان .

٥٦ – تسمية يونانية لقادة المدينة في دولة المدينة اليونانية . وبما أن هـــؤلاء من اليهود فان الرأي الأرجح قد اتجه الى اعتبارهم رؤساء الطائفة في المدينة وهذا دليل على تميز الطائفة اليهودية فيها ،وعلى المدى الذي بلغته في نفوذها، مكانة وعدداً واستقلالاً .

٥٧ – دكتور مصطفى كمال عبد العليم : – دراسات في تاريخ ليبيـــا القديم ص ١٨٩ .

٥٨ – Piet. Romanelli : - Cir. Romana Pag. 182

٥٩ – دكتور مصطفى كمال عبد العليم :– دراسات في تاريخ ليبيا القديم ص ١٨٨.

٦٠ – اي العام الثاني من حكم نيرون ، وقد عثر عليه سنة ١٩٣٩ أثناء حفر أساسات عمارة Ganzini الواقعة في شارع عمر المختار ملاصقة لسوق الخضروات البلدي .

٦١ – دكتور مصطفى كمال عبدالعليم : دراسات في تاريخ ليبيا القديم ص ١٩٠

٦٢ – Ettore Ghislanzoni: - Notizie Archeologiche Sulla Cirenaica Pag. 7. ويقول هذا المصدر عن هذه الفينوس : « إنها الآن واسعة الشهرة » ، ويذكر أن شخصاً اسمه الدكتور بيرود Dr. Perrod قد اشتراها وأنها في حوزته الآن (سنة ١٩١٤) ويشير الى مصادره فيما قدم عنها فيحددها بمـــا يلي : Mon. Piot. XIII, 1906, p. 117 e segg. Tav, X:- Springer Ricci. Storia Dell' Arte 1r.fig 543a. Bull. d'Arte VIII, 1914 Pag. 180 e segg.

٦٣ – وقد أمكن بالفعل العثور على بعض الأشياء تحت مقبرة السيد خريبيش

في سنة ١٩٦٦ حينما بدىء في إزالتها ومن أهمها أرضية فسيفساء هندسية جميلة ولو لم يوقف العمل فيها لأسباب سياسية لأمكن كشف المزيد من هذه الآثار اليونانية الرومانية لمدينة برنيس .

٦٤ -- R. G, Goodchild : - Bengazi, The Story of a City, p. 13,

الفصل السادس

تاريخ مدينة بنغازي

- مدخل .
- الشيخ ابن غازي .
- نشأة المدينة للمرة الثالثة .
- تاريخ المدينة حتى الاحتلال العثماني الأول .
- تاريخ بنغازي في العهد العثماني الأول .
- مدينة بنغازي في العهد العثماني الأول .
- خضوع المدينة للقوات القرمانلية .
- حصار المدينة أو الحرب بين الجوازي والعلايا .
- مذبحة الجوازي في قصر الحكومة ببنغازي.
- العهد العثماني الثاني .
- مدينة بنغازي في العهد العثماني الثاني .
- الهوامش والتعليقات .

الفصل السادس

تاريخ مدينة بنغازي

١ – مدخل :

ذكر الكولونيل أنريكو دي أغستيني في كتابه عن سكان برقة [١] أن الرواية الشعبية التي توصل إليها (ولم يذكر الكيفية ولا المصدر) من تحرياته أو مراجعه تعيد مقدم أوائل سكانها في العصر الحديث الى حوالي ٤٥٠ سنة ماضية بالتقريب ، وبما أن هذا الباحث يقول لنا هذا في سنة ١٩٢١ ، فإن التاريخ الذي يعيد نشأة المدينة إليه هو سنة ١٤٧٠ تقريباً ، وهذا تاريخ يسبق فترة اشتهارها أو على الأقل ورودها في نص مدون على أنها « مرسى ابن غازي » بحوالي ١١٨ سنة من الزمان ، إذ ان أول مرة يرد فيها اسم مرسى ابن غازي في نص مكتوب كانت سنة ١٥٧٩ على ما تقدم في الفصل الأول من هذه الدراسة .

وابن غازي هذا الذي حملت المدينة اسمه وعرفت في عهدها الحديث به ، والذي نجد ضريحه بمقبرة السيد خريبيش بها ، لا يُعرف عنه ما ينير لنا

الطريق ؛ وقد حاولنا التعرف على هذه الشخصية ، ونعتقد أننا اهتدينا الى تحديدها والإحاطة بشيء من أخبارها في التاريخ .

ونجد أنفسنا في التاريخ وللمرة الثانية أمام مدينة يسبق وجودها تاريخياً بروز اسمها فجأة في التاريخ ، وأمام روايـــة شعبية غير محددة المصدر تعيد نشأتها الى أكثر من مائة سنة قبل اشتهارها باسم بنغازي في أول تركيب له ، كما نجد أنفسنا أمام روايات شعبية أخرى لأحداث غير محددة تاريخياً ،وعلينا أن ندرس إمكان تعيين تاريخ لهذه الأحداث .

وفي بداية هذا الفصل سنحاول دراسة هذه الأمور لنحدد مكانها المناسب من تاريخ هذه المدينة الحديث وعلى الرغم من خطورة وصعوبة مثل هـــذه الدراسات إلا أننا نأمل أن نوفق في هذا في حدود ما تسمح به لنا إمكانات نصوص التاريخ .

٢ – الشيخ ابن غازي :

في الفصل الأول أشرنا الى رواية دي أغستيني حول نسبة هـــذا الولي صاحب الضريح الى الصحابة وأبدينا رأينا في تعليلها بما نعتقده مقبولاً وأصبح لزاماً علينا أن نبحث عن هذه الشخصية في التاريخ ولمن عساها تكون ، والعصر الذي نحتمله لإرجـــاع استقرار أو وفاة هذا الرجل إليه محدداً إذا أمكن بالسنين .

ونبدأ بحثنا في كتب التاريخ عن شخصية أو أكثر من المغرب الأقصى أو الأوسط أو حتى الأدنى [٢] عرفت باسم « غازي » أو ابن « غـــازي » ، ويطول بنا البحث حتى نعثر على أخبار عــالم شهير من علماء مدينة مكناس بالمغرب الأقصى سمّي باسم الشيخ الإمام أبي عبد الله بن غازي في تاريخ :

الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، للشيخ أحمد بن خالد الناصري السلاوي فنحتمل أننا قد عثرنا فيه على ضالتنا المنشودة لأمور سنشرحها عند مناقشة الموضوع بعد أن نقدم فيما يلي النص الكامل لما عثرنا عليه :

« ..... في سنة ٨٩١ هـ ، استدعى السلطان محمد الشيخ الإمام أبا عبد الله بن غازي من مكناس الى فاس ، فولي الخطابة أولاً بالمسجد الجامع من فاس الجديدة ، ثم ولي الخطابة والإمامة ثانياً بمسجد القرويين من فاس ، وسار شيخ الجماعة بها ، واستوطنها الى أن مات سنة ٩١٩ هـ . رحمه الله » .

« قال صاحب الدوحة : حدثني الفقيه العدل ، ابو العباس أحمد الدغموري القصري ، قال : كان الشيخ أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي يقول : ما غزوت غزوة قط ، الا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ، ويخبرني بجميع ما يتفق لي ولأصحابي في تلك الغزوة » .

« وله رضي الله عنه في شأن الجهاد ، والرجولية ، حكاية ظريفة ، وهي: أنه غزا مرة غزوة الى الثغور القبطية ، ثم قدم منها مع أصحابه ، فوجد زوجته فلانة بنت الشيخ أبي زكريا يحيى بن بكار قد توفيت ، وصلى الناس عليها بجامع القرويين وإمامهم الشيخ غازي بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن غازي الإمام المشهور . فوصل الشيخ أبو عبد الله [البهلول] ووجد جنازتها على شفير القبر ، والناس يحاولون دفنها ، فقال لهم : مهلاً . ثم تقدم ، وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه الذين قدموا معه ، فبادر الناس إليه بالإنكار في تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين ؛ فقال لهم على البديهة : صلاتكم التي صليتم بها عليها فاسدة ، لكونها بغير إمام ! فقالوا له : كيف ذلك يا سيدي ؟ فقال : لأن من شرط الإمام الذكورية ، وهي مفقودة في صاحبكم لأن الذي لم يتقلد سيفاً في سبيل الله قط ، ولم يضرب به ، ولا عرف الحرب كما كان

نبينا صلى الله عليه وسلم ، ولم يتعبد بالسيرة النبوية ، فكيف يعد إماماً ذكراً ؟ بل إمامكم والله من جملة النساء »[٣] .

ويسكت الناصري السلاوي ربما لسكوت صاحب الدوحة الذي نقل عنه ، فنحن لم نراجع هذا المصدر لعدم وصولنا إليه ، يسكت عن أمور ذات أهمية بالغة بالنسبة إلينا ، فهما لا يذكران لنا :

أولا : متى كانت حادثة الصلاة ، في أية سنة ، وهل في عهد حياة الوالد أو بعد مماته ؟

وثانياً: لا يحدثاننا عن مبررات الهجوم الشخصي العنيف ، والتحامل الشديد القسوة على رجل فاضل ارتضته الجماعة إماماً وقدمته عليها في الصلاة ، ثم هو ابن شيخ الجماعة وإمامها وخطيبها بمسجد القرويين الكبير .

وثالثاً: يسكتان عن متابعة الحديث فلا يتمان لنا بقيته بذكر نتائجه بالنسبة إلى الشيخ غازي الذي أهين علناً وشبِّه بالنساء .

وهناك أمور أخرى في هذه الرواية تتعلق بعدم ذكر اسم الزوجة وبموقف الفقه من إعادة الصلاة وبمقاييس الذكورة التي حددت من القائد وأشياء أخرى مماثلة لا تهمنا دراستها ومناقشتها لعدم تعلقها بموضوع البحث ، غير أن هذه الرواية قدمت لنا تاريخين هما مقدم ووفاة الوالد ، وقدمت لنا أيضاً سبباً كافياً ـ مهما كانت الدوافع له ـ ليحمل الشيخ غازي على الهجرة وترك البلاد التي أهين فيها ما دام ليس ممن يحملون السلاح . وهذان عاملان في غاية الأهمية إذ من طريقهما سنحاول الوصول الى معرفة ما إذا كان الربط ممكناً بين شخصيتي الولي صاحب الضريح وهذا الشيخ المهان. ولنبدأ بتحديد

التاريخ المحتمل لحادثة الصلاة على الزوجة المتوفاة :

أمامنا احتمالان : فهي إما أن تكون قد حدثت في أثناء حياة الوالد ، وكانت إمامة الإبن بسبب عجز الوالد عن تقدم الناس وإمامتهم في الصلاة ، إما لكبر السن ، أو للمرض ، أو حتى بسبب تغيب الوالد عن البلد لشأن من شؤون الحياة ؛ وإما أن تكون قد حدثت بعد وفاة الوالد بزمن قليل وتولى الإبن الامامة مكان أبيه ؛ ولكل منهما مبرراته المنطقية المعقولة . ونستبعد أن يكون تاريخ حدوثها قد تأخر إلى ما بعد وفاة الوالد بسنوات كثيرة تمتد إلى أكثر من سنة أو سنتين من وفاة الوالد وتولي الابن مكان أبيه .

وهذا يجعلنا نحتمل حدوثها في أو قبل سنة ٩٢١ هـ . ما دام الوالد قد عيّنت وفاته بسنة ٩١٩ هـ . وهذه السنة تقابل ١٥١٤ للميلاد وهو تاريخ يسبق اشتهار المدينة باسم بنغازي في أول تركيب له بحوالي ٦٥ سنة من الزمان ، وهي مدة كافية ولا شك ، لإيجاد رابط زمني بين الشخصيتين أو على الأصح بين الشيخ غازي والتسمية التي اشتهرت المدينة بها . ولنكتف مؤقتاً بما وصلنا إليه على أن نعود إليه بعد بحث العامل الثاني والمتعلق بالإهانة التي ألحقت علناً بكرامة هذا الشيخ :

إن عبارات البهلول التالية : « ... لأن الذي لم يتقلد سيفاً في سبيل الله قط ، ولم يضرب به ، ولا عرف الحرب ... » تعكس لنا صورة إنسان مسالم غير مدرب ربما لأنه نشأ في بيئة التقوى والورع المفترضة في شخصية والده ، بل مما يكاد يبلغ حد اليقين أن تربيته كانت تربية علم وتحصيل ، فهو قد تهذب ورقت نفسه بالعلم ، مما أهّله لإمامة الجماعة في غياب أبيه أو عجزه أو من بعد وفاته على ما تقدم ، وهذا نوع من التربية لا يرضي ولا شك من لا يرى في غير حياة الحرب والجهاد وامتشاق الحسام والضرب رجولة ، بل

هي في نظره تربية تجعل من ينشأ عليها في عداد النساء وهذا أيضاً واضح في عبارات البهلول .

إذا تصورنا هذا وأدركنا الحالة النفسية التي يكون عليها مثل هذا العنيف في الحالات التي يظهر فيها جانب الضعف فيه كإنسان، وقدَّرنا الصراع النفسي في داخله أمكننا أن نتلمس الثورة الجامحة التي دفعته الى إظهار الحب الشديد للزوجة التي افتقد فجأة في شكل تقدمه لإمامة أصحابه في صلاة ثانية على الحبيبة المتوفاة ، ثم الى الإفصاح عن مدى احتقاره وازدرائه لذلك الذي ربيّ تربية هادئة وقورة قوامها العلم وتواضع العلماء، فانطلقت الكلمات من فيه « على البديهة » قذائف تصبّ جام الغضب على الشيخ غازي الذي كل ذنبه أنه سبقه فأمّ الجماعة في صلاة الجنازة على المتوفاة .

وليس ما قيل في حق الشيخ غازي بالذي يسكت عليه أي إنسان عادي في محفل عام كالذي حدث فيه فكيف بالرجل الذي هذبه العلم ورقّ إحساسه بما كان يطلع في الكتب عليه ؟ لا شك إذن في أن ما لحق بالشيخ غازي من إهانة قد هزّه هزة عنيفة وفرض عليه الإقدام على تصرف يعلن به غضبته على هذا الرجل الذي كال الإهانة إليه ، وقد عددت عبارات البهلول عجز الشيخ غازي عن اللجوء الى مقارعة الخصم بالسلاح فهو « لم يتقلد في حياته سيفاً ، ولم يضرب به». فما الذي يحدث في مثل هذه الحالة ؟ إن خروج الشيخ غازي من البلدة والإقليم مغاضباً له ليس من المستبعد وقوعه بل ربما كان أقرب الإحتمالات الى الصواب .

وخروج هذا الشيخ وهجره لبلده ، إذا قُبل ما قدمناه حوله من تعليل يدفعنا الى تعيين الإتجاه الذي سيسير فيه ، إن مدينة فاس واقعة في أقصى المغرب ، والأندلس قد سقطت آنذاك في يد الإسبان فليس أمامه إلا أن

يتجه الى الشرق أو الى الجنوب ، وليس في الجنوب ما يغري عالماً على الإتجاه إليه بينما في المشرق مكة وقبر الرسول والزيتونة والأزهر محط أنظار علماء العرب في تلك العصور ، وبالتالي فإن اتجاهه الى المشرق أقرب الى الإحتمال ، وما دام الأمر كذلك فإن احتمال مجيئه الى مدينة بنغازي ليس بعيد الاحتمال وإذا سلمنا به فقد أقمنا علاقة مكانية بين الشيخ غـــازي وصاحب الضريح تقوى معه وتتقوى بالعلاقة الزمنية التي سبق وصولنا إليها وتحديدنا لها .

ونعود الآن الى مناقشة العلاقة الزمنية من جديد ، فإن سفر المغاربة الى الحج في ذلك الزمن يستغرق قرابة العـام ، ومعنى هذا زحزحة التاريخ الى سنة ١٥١٥ للميلاد إذا قبلنا به . وسنحاول دراسة هذا الموضوع من جديـد مبتدئين هذه المرة من نقطة أخرى في بحثنا لدقة التحديد :

كان انتقال الشيخ أبي عبدالله بن غازي ، والده ، من مكناس الى فـاس قد حدث سنة ٨٩١ هـ (١٤٨٥ م) وهو قد جاء إليها ليولـّى الخطابة بالمسجد الجامع ، وهذا معناه ومع تقديرنا للمجتمع الاسلامي في تقاليده ونظرته الى أصحاب هذه المناصب ، أنه كان متزوجاً ، وربما كان له أولاد وقد يكون الشيخ غازي أكبرهم ، وقد يكون ابنه الوحيد ، ذلك أن فترة حياة الوالد في فاس لم تزد على ٢٨ سنة ، فإذا كان قد تزوج بعد مقدمه فإن هـذا سينزل بعمر الإبن الى ٢٥ سنة أو حوالي ذلـك وهي سن نستبعد أن تغري الجماعة بقبوله إماماً لهم من بعد أبيه .

وسواء كان الشيـخ غازي قد صاحب أباه طفلاً صغيراً أو ولد له بعـــد استقراره في فاس فإنه يوم وقوع الحادثة قـد كان لا بد صغيراً ولم يبلغ بعد سن الشيخوخة التي يُغتفر له فيها التقاعس عن حمل السلاح ، وإلا لما كان لحملة البهلول معنى في نظر الجمهور ؛ أي أنه كان أكبر من ٢٥ سنة وأقل مـــن

الأربعين على أوسع تقدير . وهي السن المناسبة عادة لحمل السلاح والاشتراك مع المجاهدين في الإغارة على الأعداء .

وإذا سلمنا بأن الشيخ غازي كان يصحب أباه حين انتقاله الى فاس ولو طفلاً صغيراً لا يتجاوز العامين فإن ذلك يجعله ابن ثلاثين يوم وفـــاة أبيه ، وهذا ما نميل اليه ، أو أننا قلنا بزواجه بعد مجيئه الى فاس وولادة غـازي له من هذا الزواج ، وهو ما نسلم به ولا نميل الى الأخذ به ، فإن ذلك يجعل غازي ابن ٢٥ سنة يوم توليه من بعد أبيه ، وكلتاهما سن مناسبة تغري بأن يوجه اليه مثل ذلك الـكلام وتجعل من المنتظر منه امتشاق الحسام والمساهمة مع الرجال في الجهـــاد . ومن الطبيعي أن لا يرضى البهلول أن يولى الإمامة بالمسجد من بعد أبيه ، وقد تكون هناك دوافع أخرى خفية تدفعه للحفيظة عليه في توليه للمنصب من بعد أبيه وكانت تلك فرصة ليعلن فيهـــا عن عدم رضـاه ، ولا محل لهذا أيضاً بعد السنوات الأولى أو ربما بعد السنة الأولى ذاتها ، وهكذا ننتهي من هذه الطريق أيضاً الى نفس الفترة بالتقريب .

وعلى أية حال فإن وقوع الحادث لا يمكن أن يسبق سنة ١٥١٠ ولا أن يتأخر عن سنة ١٥٢٠ وكلاهما تاريخ يترك فسحة من الزمن تكفي لأن نحتمل معها وثوق رابطـة الزمن بين الشيخ غازي بن أبي عبدالله محمد بن غـــازي وسيدي غازي صاحب الضريح الذي اشتهرت المدينة أو القرية باسمه .

أما كيف غلب اسمه على المكان فإنه بعد أن توفي في بنغازي وهو عـابر سبيل أو بعد استقراره فيها عدة سنوات قد دفن على رأس ربوة عالية ربمـا كانت أعلى منطقة في المدينة ، وشيِّد له ضريح تبركاً بعلمه واعترافاً بمكانته التي لا شك وأن رفاقه قد أعلنوا عنها لسكان البلدة ، وأصبـح هذا الضريح أول ما يبدو للقادم بحراً الى الميناء ، ومع الأيام غلب اسمه على المرسى فعرف به :

« مرسى ابن غازي » ، ونحن بعد كل هذا لا نجزم بصحة ما انتهينا اليه فقد قام على مجموعة من الإفتراضات تستند الى عامل المقارنة الزمني وقرب التاريخ بين حادثة غازي المغرب وبدء شهرة المدينة بهذا الاسم في النصوص المدونةمع أسبقية أكيدة لهذا الشخص ، وهذه وحدها ليست بالكافية فهي لا تزال في حاجة الى الدليل التاريخي الأكيد .

٣ — نشأة المدينة للمرة الثالثة :

وكما حار التاريخ في تعيين زمن نشأتها الأولى باسم يوهسبيريدس ، وفي تعيين زمن نشأتها الثانية باسم برنيس ، فإنه يحار للمرة الثالثة في تعيين زمن نشأتها للمرة الثالثة باسم بنغازي . وكما فعلنا في البحث عن تاريخ نشأتها الأولى ونشأتها الثانية من لجوئنا الى مناقشة واستقراء الروايات والأحداث التاريخية التي يمكن أن تساعدنا ولو قليلاً في إلقاء بصيص من النور يبدد حلكة الظلام فإننا سنلجأ في هذه المرة أيضاً الى استقراء ودراسة مختلف الروايات والأحداث محاولين الوصول الى تعيين التاريخ الأرجح لنشأتها الثالثة بالإسم الحديث .

ويمكننا تصنيف مجموعات التواريخ التي نحصل عليها من مؤرخي العرب والافرنج إلى مجموعتين : المجموعة الأولى تثبت وجود قرية أو مدينة مسكونة باسم برنيق ، والمجموعة الثانية لا تثبت هذا بل تتحدث عن وطا برنيق وصحارى برنيق أو بما يفهم منه أنها لم تكن معمورة آنذاك .

أ — المجموعة الأولى :

١ — رواية مجهولة المصدر تتحدث عن مدينة برنيق الساحلية الفقيرة

ذات البيوت البسيطة ، والتي تحيط بها منتجعات بدو المنطقة .
(١٢٠٠ م.)

٢ – رواية مدسوسة منتحلة تشير إلى ذكرها الاتفاقية المبرمة بين الامير أبو زكريا يحيى وجمهورية البندقية . (١٢٣٦ م.)

٣ – ياقوت الحموي : وقد ذكر مدينة برنيق على أنها بين الاسكندرية وبرقة . (١٢٢٩ م.)

٤ – اليعقوبي : وقد ذكر برنيق بمينائها الجميل . (٨٩٥ م.)

ب – المجموعة الثانية :

١ – البكري : وقد جزمت مصادرنا عنه بأنه لم يذكر برنيق فيما تحدث عنه من مدن برقة ومناطقها وقراها. (١٠٦٧ م.)

٢ – الإدريسي : وقد تحدث عن وطا برنيق أثناء كلامه عن ضواحي هذه المدينة . (١١٠٠ – ١١٦٨ م.)

٣ – ابن سعيد : ولم يتحدث عن برنيق وهو يتحدث عن المناطق إلى الغرب والشرق منها . (١٢٧٤ م.)

٤ – العبدري : وقد ورد ذكر برنيق عنده عرضاً وأثناء تحديده لمنازل إحدى القبائل القاطنة بالبلاد . (١٢٩٠ م.)

٥ – ابن خلدون : أشار في مقدمته وأتى في تاريخه باسم برنيق على أنها صحارى برنيق وأنها منطقة سكنى بعض البربر ولم يشر إلى أنها بلدة أو مدينة أو قرية . (١٣٩٦ م.)

واذا طرحنا رواية ياقوت الحموي في معجم البلدان من المجموعة الأولى

والتي سبق لنا استبعادها لاحتمال نقله عن مصادر يونانية ـ فارسية قديمة العهد من ناحية ، ولأنه كان راوية نقل وسمـاع إذ لم يزر الشمال الافريقي فيما نعلمه عنه من ناحية أخرى ، الأمر الذي يجعلنا نتردد كثيراً في قبول روايته هذه لوحدها كسند تاريخي لإثبات وجود مدينة برنيق التي يجعلها بين الاسكندرية وبرقة ، وهو خطأ جغرافي ضمن عديد من الأخطاء المماثلة في تحديده لأماكن البلدان الليبية في معجمه .

وإذا استبعدنا رواية اليعقوبي لذات السبب لاحتمالنا أنه ناقل لمادة تاريخية قديمة العهد وقد تكون مترجمة عن اليونانية أو غيرها ما دام من المؤكد عدم زيارته لهذه البـلاد ومن المستبعد معرفته بها سماعاً لضآلة شأن هذا الثغر لو وجد في عصره .

وإذا استثنينا تلك الرواية التاريخية المجهولة المصدر التي أشار إليها الأب فرانشيسكو روفيري P. Franc. Rovere وأرجعها إلى سنة ١٢٠٠ للميلاد(٤)، وقال عنها إنها وصفت برنيق بأنها بلدة ساحلية فقيرة جداً تتكون من مجموعة مباني بسيطة مشيدة بالحجارة والطين ، تنتشر حولهـا عدة منتجعات لبدو المنطقة، لعدم وضوح المصدر الأول لها من ناحية ، ولانفراد الأب فرانشيسكو وحده بالإشارة إليها بين جميع من تعرض لتاريخ المدينة بالحديث عنهـا حتى من الإيطاليين .

واذا استبعدنا تلك الرواية التي ترددها جميع كتب الأيطاليين ومن نقـل عنهم على أنها حقيقة تاريخية بينما لا يفيد نص الإتفاقية التجارية المشار إليها ، والمعقودة بين البلدين ، أي شيء من هـذا فقد رجعنا الى مقدمتها وبنودها الخمسة عشر ولم يذكر فيها لا صراحة ولا تلميحاً ما يفيد الإشارة الى برنيق أو برقة، وإنما هي عبارة غامضة في المقدمة تقول : في العاشر من يونيه ١٢٣٦

توصل الى اتفاق مع أبي زكريا يحيى أمير أفريقيا وهو الاسم الذي يطلق على الإقليم المتاخم لمصر من جهة الغرب الخ... والحديث فيها منصب على طرابلس وباجة ثم سائر الساحل من غير تحديد بالاسم لأي مكان ، وليس في هذا النص كما أكدنا من قبل ذكر صريح لمدينة أو ميناء أو موضع باسم برنيق .

أما المجموعة الثانية فإن كلاً من البكري والإدريسي وابن سعيد والعبدري وابن خلدون قد زار هذه البلاد، وتعرف الى مناطق فيها إما ماراً بها في أثناء رحلته أو ناقلاً عن أهل البلاد أنفسهم متى ما كانت في غير طريقه، ولم يشر واحد منهم الى وجود قرية أو بلدة أو مدينة باسم برنيق ، وإنما أشار الإدريسي وهو يتحدث عن قصر قافيز المجاور لها وعن البحيرة العذبة (دفع وادي القطارة) وعن العنابة المجاورة له (سدر الكيخيا) وعن الساحل المقابل لها (قريونس – جليانة) الى وطا برنيق [٥] ، وأشار ابن خلدون الى صحارى برنيق التي بها مجالات هيب ورواحة، وعدّد مدن برقة ولم يذكر من بينها برنيق [٦] ، وقد تحدث البكري عن مدن وقرى في برقة فلم يذكر من بينها برنيق .

وذكر ابن سعيد عدة مناطق من البلاد حينما مرّ بها سنة ٦٧٢ هـ. (؟) ولكنه لم يشر الى مكان اسمه برنيق بينها . وأشار العبدري اليها حينما مر بهذه المنطقة حاجاً سنة ٦٨٩ هـ . ولكن في عبارة ندرك منها مفهوم المنطقة أكثر مما نفهم منه الدلالة على المدينة .

واذا راجعنا التتابع الزمني لهؤلاء المؤرخين والرحالة من العرب والإفرنج معاً فإننا نجد ابن خلدون أقرب إلينا زمناً أي أنها أحدث الروايات التسع التي أشرنا إليها هنا، وهذا قد كتب مقدمته سنة ٧٩٩ هـ أو ١٣٩٦ للميلاد . وكتب تاريخه بعد ذلك ولم يشر فيه هو الآخر الى وجود مدينة باسم برنيق

وانما اشار الى برنيق كموطن لعديد من قبائل بربرية نقلاً عن المسعودي الذي سبقه، ولو كانت برنيق قائمة لذكر وجودها صراحة كما فعل في كثير غيرها . وتاريخ المقدمة لا يبعد بنـــا كثيراً عن الزمن الذي أرجعت إليه الرواية الشعبية التي قدمها لنا دي أغستيني ، إذ لا يسبقه إلا بخمس وستين سنة فقط (١٣٩٦ – ١٤٦١ م.) الأمر الذي يجعلنا لا نحتمل لاستقرار أول الجماعة بها تاريخاً يسبق التاريخ الذي حددته الرواية الشعبية له .

هذا من ناحية ، ومن أخرى فإن بعد استبعاد تلك الإشارة الواردة في مخطوطة فينا في تاريخ ابن الفرات للأسباب التي سبق تقديمها [٧] حول شكنا في سلامة النص من حيث نسبته للمؤلف ، ولأنه سابق تاريخاً لأكثر من نص أشرنا إليه ولم تذكر باسم هذه المدينة في أي واحد منها سواه ميناء أو مرسى بني أو ابن غازي الأمر الذي يدعم شكوكنا ويزيـــد منها ولا يضعفها بعد استبعاد نص ابن الفرات هذا ، فإن أبعد تاريخ أمكن تعيينه بدقـة لاشتهار المدينة باسم « مرسى ابن غازي » هو سنة ١٥٧٩ م [٨]. وكلمـــة « مرسى » تستخدم كلياً لا للدلالة على الميناء ، كما قد يبدو لأول وهلة ، وإنما على القرية أو المدينة ذات الميناء ، وهو ما كان يعبر عنه مؤرخو العرب بالثغر ، وإذا أدركنا هذا أمكننا القول بأن المدينة لم تنشأ في تلك السنة بالذات ، وانمـا كانت قائمة وموجودة قبل ذلك التاريخ . وليس هـــذا فقط بل إن الأتراك فيما يروى كانوا قد احتلوها لأول مرة في السنة السابقة أي في سنة ١٥٧٨م.[٩] وليس من المعقول أن يسيِّر الأتراك حملة عسكرية لاحتلال مكان غير مأهول، وهو دليل أكيد (اذا صحت سنة الإحتلال التركي الأول لها) على وجودها كبلدة ذات ميناء ، وأغلب الظن أن الشرفي الفاقسي قد سمع باسم «مرسى ابن غازي » بسبب هذه الحملة التركية لاحتلالها ومن طريقها ما دام الفارق بينهما سنة واحدة لا غير .

وغازي هذا الذي حملت المدينة اسمه ليس من أبناء البلاد الأصليين ،وإنما هو شخص عابر سبيل أدركته المنية في تلك البقعة من البلاد . ونظرة الى خريطة المدينة تجعلنا ندرك أنها ليست على الطريق العام الذي يسلكه عابر السبيل ، فهي عبارة عن لسان من اليابسة ممتد داخل البحر ، ومن خلفه ويفصله عن اليابسة مستنقع (سبخة) يفرض على قاصده الدوران حول المستنقع قبل الوصول إليه ، وهذا أمر لا يتجشمه المسافر عادة إلا إذا توفر لديه سبب ما يدعوه اليه . وهذا السبب ليس هو الماء بالتأكيد فإنه موجود وبكثرة في المناطق المحيطة بها من اليابسة .

وقد سبق لنا أن أشرنا في الفصل الأول الى اندثار اسم سابق لهذه المدينة كانت تعرف به قبل اشتهارها باسم « مرسى ابن غازي » ذلك هو « كوية الملح » أي : « قرية الملح الصغيرة » ، ومن المحتمل جداً أن يكون هذا هو اسمها المحلي يوم وصول الشيخ غازي إليها ، واستقراره بها حتى وفاته أو مرضه بها حتى وفاته ودفنه هناك .

وقد أرجعنا التاريخ المحتمل لوصول الشيخ غازي لهذه البلدة من فاس (اذا كان هو نفسه الذي تعرضنا له في الفقرة السابقة) الى الفترة المحصورة بين ١٥١٠ و ١٥٢٠ للميلاد وهذا معناه أن المنطقة كانت مسكونة من بعض الناس قبل ذلك التاريخ .

مما تقدم جميعه يمكننا أن نحتمل صدق التاريخ الذي حددته الرواية الشعبية كحد أقرب لاستقرار أول جماعة من السكان بها ، ذلك أنه لا يفصل بين هذا التاريخ والعهد الذي أرجعنا اليه وصول الشيخ غازي سوى ٥٠ ـ ٦٠ سنة فقط وهي أقل من التي قبلنا بها كحد أبعد ببضع سنوات ، إذن فإن القول بأن نشأة مدينة بنغازي للمرة الثالثة يعود الى أواسط القرن الخامس

عشر للميلاد حسبما تؤكده الرواية الشعبية التي يسندهـــا التاريـخ أمر يمكن قبوله والتسليم به مع عدم التقيد بالسنة المعينة أو أية سنة أخرى قبـــل توفر المعلومات الممكنة لنا من ذلك .

٤ – تاريخ المدينة حتى الاحتلال العثماني الأول :

نشأت هذه المدينة للمرة الثالثة في التاريخ في أواسط القرن الخامس عشر للميلاد ، وكانت نشأتها هذه المرة فيما نلمسه من الرواية الشعبية ، التي نقلهـا الينا دي أغستيني ، نشأة شعبية بسيطة ، كأية قرية بسيطة تبدأ باستقرار بعض الجماعة يلحق بهم بعض التجار الصغار الذين يجتذبهم الربـــح ورواج المعروضات . فأية تجارة تلك التي اجتذبت هذه الطائفة من التجار ؟ ومع مَن مِن الناس كانوا يتاجرون ؟ هل كانت تجارة في مواد الإستهلاك العادية ، ومع بعض البدو الضاربين بمنتجعاتهم في تلك المناطق ؟ أم إنها كانت تجارة من النوع الذي نعرفه اليوم بتجارة الترانزيت (استيراد وتصدير) ومع تجار يقدمون من البندقية ومن جنوا وغيرهما من البـــلاد الواقعة على الشواطىء الأخرى من حوض البحر المتوسط ؟ (١٠) ليس من السهل العثور على إجابات لهذه الأسئلة وما يشابهها ، مع ما نجد أنفسنا عليه من نقص في المعلومـــات التاريخية نقصاً يكاد يضعنا في مرتبة الجهـل المطبق بواقـــع العصر وظروفه وأحداثه ، إذ ليس لدينا غير التاريخ العام لصراع القوى الدوليـــة في البحر المتوسط على السيادة ، وما يمكن أن يؤدي اليه من اختلال في توازن القـوى ومن تحوّل في الأسواق والنشاط التجاري ، وهذه قد تساعدنا قليلاً ولكنها لا تقدم لنا كل شيء . أما المعلومات التاريخية للإقليم نفسه فهي من الندرة بحيث لا تكاد تقدم لنا أي شيء ذي بال .

إن موقع مدينة بنغازي وسط ملاحات كبرى (سبخة جليانة ، سبخة الكيش ، سبخة السلماني ، سبخة سيدي يونس) ، وحاجة الكثير من بلدان أوروبا وآسيا الى هذه المادة ، وقرب هذه الملاحات من الفُرضة الطبيعية الصالحة لرسو السفن ، قد اجتذبت بعض السفن ربما في البداية لشحن الملح من هذه المنطقة ، ولا بد أن بعض فقراء الوطنيين قد وجدوا في تجميع الملح صيفاً ، مورداً للرزق حملهم على الإستقرار بذويهم على مقربة من الميناء ،وكان هؤلاء ولا شك أول جماعة تستقر بالمكان بعد اندثار مدينة برنيق [١١].

واجتذبت هذه الجماعة المستقرة فيما يبدو بعض التجار الذين أشارت إليهم الرواية الشعبية ، فاستقروا مع هؤلاء مكوّنين أول مجتمع مستقر في ذلك المكان .

ولم يكن القادمون ولا أهل المنطقة يعرفون اسم برنيق القديم فإن هذا الإسم قد توسع مدلوله حتى شمل ما يعرف اليوم ببرقة الحمراء (سهل بنغازي فيما بين توكرة والمقرون) ، ولذلك حملت المدينة الاسم الذي احتملنا أنها قد عرفت به قبل أن تعرف باسم « مرسى ابن غازي » ، وقد استمد السكان اسمها الجديد فيما يبدو من طبيعة المنطقة التي وجدت بها ، ومن الحركة الاقتصادية التي قامت في الأصل عليها فسميت بـ « كوية الملح » وهو الإسم الذي عاش في أفواه أهلها حتى عهد قريب ، ولا يزال في جيلنا من سمع من آبائه به . غير أن هذه التسمية المحلية لم تجد طريقها إلى خارج الإقليم ، ولم تتعدّ نطاق الشيوع المحلي لأن ربابنة السفن كانوا يعرفونها من الخرائط الجغرافية القديمة التي بين أيديهم ، والراجعة إلى العهود السابقة ، باسم برنيق الذي حملته في الماضي .

ويبدو أن التجار الذين استقروا بها من تاجوراء ، ومن مسلاته ، ومن

زليتن ، قد وجدوا فيها ما شجعهم على الإستقرار والبقاء بصورة مستمرة ، ولا غرو ، فإن السفن التي كانت تأتي لشحن الملح في بدء الأمر قد أصبحت تمارس التجارة مع هؤلاء التجار ، وليس من المستبعد أن يستقر بعض تجارها في المنطقة ما دام هناك ما يشجع عليه لتصريف بضائع أوروبا ، وابتياع المنتجات المحلية من حبوب وحيوانات وجلود وأصواف[١٢] .

وتتحدث الرواية الشعبية عن شيخ للبلد من الطواهر (زليتن) في الفترة التي سبقت خروجهم من هذه البلدة[١٣]وهذا معناه أن السكان فيها قد نظموا حياتهم بطريقة ما خلال تلك الفترة المبكرة من تاريخ المدينة الحديث.

وفي خلال هذه الفترة كان مقدم الشيخ غازي على ما يبدو من الذي قدمناه حوله ، ووفاته ، بعد استقراره لفترة من الزمن لا نعرف مداها ، وكان ضريحه على رأس ربوة عالية خارج البلدة (آنذاك) هادياً للسفن ، فاشتهر المكان به ، وحل تدريجياً محل اسمها السابق « كوية الملح » كما حل بدلاً من اسمها التاريخي برنيق على الخرائط الجغرافية الحديثة[١٤].

ويقدم لنا دي أغستيني أيضاً (وهو المصدر الأول للمدوّن من الروايات الشعبية حول نشأة المدينة وأحداثها التاريخية في تلك الفترة ، وكل من كتب بعده إنما نقل عنه ورجع إليه) يقدم لنا رواية شعبية أخرى حول مقدم جماعة ثانية من طرابلس (مصراته) نزحت إليها بعد الجماعة الأولى ، واستمرّت بها كقوة ، وبالنظر لكثرتها فقد تمكنت من مزاحمة الأولى ومنازعتها حتى تم لها فرض زعامتها بطرد الأولى منها بعد معارك عنيفة دارت بين الفريقين[١٥].

وإذا صدقنا رواية دي أغستيني حول إعادة مبنى المسجد العتيق أو الجامع الكبير الى الأربعمائة سنة قبل عهد روايته لها ، أي الى سنة ١٥٢٠ على وجه

التقريب [١٦]، كان هذا دليلاً على أن استقرار جماعة مصراتـه الذين استولوا على المدينة بطرد الطواهر منها كان قبل هذا التاريخ ، غير أن مـا سنذكره يجعلنا نرجع الحادث الى وقت متأخر عن هــذا التاريخ . فالجماعة الأولى لم تأت فيما نعتقد غازية ، ولم تكن محتلة، ولم تكوّن دولة ولا جيشاً ، والجماعة الثانية هي الأخرى لم تأت كقوة ، ولم تستقر في المدينة عنوة ، فقد جاءت الأولى (الطواهر) كما جاءت الثانية (مصراته) أفراداً وعائلات ، واستغرق تجمُّعها فترة من الزمن غير قصيرة ، اجتذبها الربح ، وحملها على الاستقرار رواج السوق ، وقد نحتمل مجيء الجماعة الأولى ، أو مقـدم الجماعة الثانية ، أو مجيئهما معاً ، بسبب ظروف خاصة ، حتمت على إحدى المجموعتين ، أو كلتيهما ، النزوح عن المقر الأول لهما ، غير أن هذا الاحتمال يتطلب منا بحثاً ولو موجزاً في تاريخ المنطقة الغربية من ليبيــا (طرابلس) خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر بكامله علّنا نجد في أحداث التاريخ ما يساعدنا على تلمس الجواب .

ولا نعلم قبل سنة ١٥١٠ من الأسباب ما يحمل الناس على ترك أوطانهم ، والنزوح عنها الى غيرها ، إلا أن مــا حدث بعد ذلك من احتلال الإسبان لطرابلس ، واحتفاظهم بها حتى تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنــا سنة ١٥٣٠ ، واحتفاظ هؤلاء بالمدينة حتى أخرجوا منهــا بقوات الأتراك سنة ١٥٥١ ، ومحاولات هؤلاء في السيطرة على بقيــة البلاد في السنوات التالية ، جميعها أمور قـد تدفع سكان بعض المناطق الى الإبتعاد عن منطقة الصراع .

ولما كان استقرار الجماعة الأولى ، والمكونة من أناس من تاجوراء ومسلاته وزليتن ، وهم الذين عرفوا في مجموعهم بالطواهر ، يرجع الى تاريخ سابق لجميع هذه الأحداث بنصف قرن فإن احتمال هجرتهم نتيجة أي من تلك الأحداث

لا ينسجم مع المنطق التاريخي . وما دمنا نجهل وجود أسباب مبررة أخرى، فليس ما يمنع من استمرارنا في الاحتفاظ بالاحتمال السابق الذي انتهينا إليه والقائل بالعامل التجاري وحده في اجتذاب هؤلاء فعائلاتهم في «كوية الملح» التي سميت « بنغازي » فيما بعد .

أما الجماعة الثانية فإن مجيئها الى بنغازي ، إذا سلمنا بسلامة التعبير في تقديم الرواية الشعبية ، كان تالياً ، ويعني هذا احتمال نزوحهم إليها نتيجة لإحدى هذه الحوادث التي ذكرنا ولا سيما ما يرجع الى عهد محاولات العثمانيين بسط سيطرتهم على دواخل الإقليم أي الى ما بعد سنة ١٥٥١ م. بل إننا لو قبلنا برواية الأب كوستانزوبرنيا P. Costanzo Bergna لقلنا إن مجيئهم كان سنة ١٥٥٥ ، أي حينما قاد دارغوث باشا حملة عسكرية لإخضاع غريان وترهونة وبنوليد وانتهى الى تاورغا فمصراته ليعود مع الساحل الى طرابلس، فهذا الكاتب يشير الى أن أهل مصراته وقد بلغهم نبأ مسيره إليهم سارعوا بالفرار الى برقة هرباً منه ومن بطشه وتنكيله بالمواطنين[١٧]. وكان مجيء هذه الجماعة الثانية إذن فلولاً هاربة تبحث عن ملجأٍ تركن إليه ، وكانت « كوية الملح » المكان الذي لجأوا إليه، واستقروا فيه ؛ ولم يجدوا في الجماعة الأولى — في أغلب الظن — عدواً يصدهم عن البلدة أو يحرمهم من مزاولة أي نشاط ، غير أن أعدادهم الكبيرة بالنسبة الى الجماعة الأولى جعلتهم يتطلعون ولا شك الى تزعم المنطقة وفرض الإرادة على الآخرين مما أوجد توتراً تحول الى صراع ومصادمات دموية بين المجموعتين .

والتحول في العلاقات من الود والصداقة الى التوتر والتصادم بين الجماعتين قد استغرق فترة من الزمن حدث خلالها احتلال الاتراك للمدينة أول مرة فيما نحتمل .

٥ – مدينة بنغازي في العهد العثماني الأول :

احتل الأتراك مصر سنــــة ١٥١٧ ، وطردوا فرسان القديس يوحنا قوة الصليبيين الضاربـــة في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط من جزيرة رودس آخر معاقل هذه القوة وذلك سنة ١٥٢٣ ، ثم احتلوا مدينة طرابلس سنة ١٥٥١ وبهذا أصبحت قوات العثمانيين تسيطر على برقة من غير أن تدخلها بقواتها فاتحة أو محتلة .

وأخذوا في السنوات التالية في توطيد سلطانهم على بقية مــــدن ومناطق الإقليم الغربية ساحله والجبل ، وطاردوا مناوئي حركة بسط النفوذ العثماني من الليبيين . ويروي التاريخ نبأ الثورات المحلية الصغــــيرة التي قامت بها بعض المناطق الداخلية ، ويقص علينا طرق القمع القاسية التي لجأ إليهـــا الولاة الأتراك في إخمادها .

وفي سنة ١٥٧٨ احتلت قوات عثمانية ، مدينة « مرسى ابن غازي » لأول مرة فيما ترويه بعض المصادر الإيطالية الحديثة التي أغفلت مع الأسف الشديد تعيين المصدر الذي نقلت عنه ، مما جعلنا ننقل الخبر مع التحفظ الشديد حوله. ولا نعرف ما إذا كانت حملتهم التي سيَّروها لاحتلالها قد اتخذت طريق البر أو طريق البحر ، غير أن هذا الإحتلال كان فيما يبدو مؤقتاً (غزواً ؟) أو ربما كانت القوات العثمانية التي احتلت المدينة أضعف من أن تحافظ على هذا الكسب ، فهجرت أو أجليت عن المدينة ، ولا ندري بعد كم من الزمن ، فإن التاريخ يسكت عن هـذا كلية ليعود فيحدثنـا عن حملة جديدة للأتراك ضد بنغازي سيَّروها بعد أكثر من نصف قرن من الزمان .

ويبدو أنه كان لاستيلائهم عليها صداه في طرابلس وفي تونس وغيرهما من البلدان (وهذا طبيعي) ذلك أننـا نجد الـكاتب الجغرافي التونسي « علي بن

احمد الشرفي الفاقسي » يثبت في خريطته البحرية (الكمباص) اسم « مرسى ابن غازي » ليدل على نفس الثغر الذي حمل في الخرائط الأوربية المعاصرة والقديمة اسم برنيق وذلك في سنة ١٥٧٩ أي في السنة التالية مباشرة .

ويصعب اليوم الجزم بصحة ترتيب الحوادث التي تشير إليها الرواية الشعبية ترتيباً زمنياً متتابعاً ، إذ لا يمكن القول بأن الإحتلال العثماني الأول سنة ١٥٧٨ قد سبق إجلاء الطواهر عن مدينة بنغازي أو تلاه ، وكل ما يمكن قوله إن أحداث تلك الفترة كانت متقاربة زمناً ، وليس غير هذا في تأكيد ، إلا أننا نحتمل أنه فيما بين الإحتلال الأول سنة ١٥٧٨ والاحتلال الثاني سنة ١٦٣٨ قد نشب الصراع بين قوتي الطواهر ومصراته في مدينة بنغازي، وهو الصراع الذي نجهل مسبباته وأسبابه وإن كنا نسلم مبدئياً بعامل التنافس بين القوتين كحزبين على الزعامة في المدينة كما سبق وأن ذكرناه .

وتحدثنا الرواية الشعبية عن هذا الصراع الداخلي أو المحلي الناشب بين طائفتي سكانها آنذاك : التواجير ومسلاته والزليتيين وهو الصف المعروف بالطواهر ، وهو الصف الذي يكوّن سكانها الأوائل في العصر الحديث ، ومصراته ومن يحالفهم من قبائل أخرى طارئة ستبرز أسماؤها في الحوادث التالية ، في الصف المضاد .

ونظراً للتفوق العددي في مصراته ، فقد تمكنوا في النهاية من إجلاء الطواهر عن المدينة فتحولوا عنها الى منطقة أخرى شديدة الشبه بها هي « برسس » الواقعة على بعد حوالي أربعين كيلومتراً الى الشمال الشرقي من بنغازي، وهو أمر يدعونا الى احتمال أن يكون الصراع أصلاً من أجل تجارة الملح التي يحتكرها الطواهر منذ البداية ورغبة أهل البلدة من مصراته المشاركة في استغلال هذا المورد . ذلك أن في المنطقة التي انتقل الطواهر إليها

ملاحة كبرى ربما فكروا في استغلالها وتحويل حركة السفن التي يتعاملون معها منذ عشرات السنين الى المنطقة الجديدة التي أجبروا على التحول إليها بعد هزيمتهم في بنغازي .

وتشير الرواية الشعبية الى أن الطواهر لم يسلموا بالهزيمة ولم يتركوا أهل مصراته ينعمون بالحياة الهائئة في المدينة التي انفردوا بسكناها ، فقد بدأوا يشنون على جماعة مصراته غارات مفاجئة أقضت مضجعهم ، وحملتهم على تجهيز حملة مشتركة هاجمت الطواهر في برسس ، ونازلتهم في الميدان . وبعد صراع عنيف تمكنوا من إجلاء الطواهر عن هذا المكان أيضاً ، وهكذا تخلى الطواهر نهائياً عن مدينة بنغازي ، واستقروا بمدينة درنه حيث لا يزال أحفادهم يقيمون الى الآن ؛ وخلصت بنغازي منذ ذلك الزمن لمصراته ومن معها وشهرت بهم ، وحتى اليوم لا يزال الناس ينعتون سكان مدينة بنغازي بأنهم مصراته ، وهم يريدون من هذه التسمية القول بأنهم حضر تمييزاً لهم عن سكان البادية .

وكانت القوات العثمانية العاملة في ليبيا وفي غيرها من الأقاليم النائية عن بلاد الأتراك تصبح شبه معزولة طيلة فترة الشتاء ، لتعذر إمدادها بحراً بالنجدات أو بالأسلحة والعتاد . ولعل الى هذا السبب كانت ترجع عوامل الفشل في بسط النفوذ العثماني على سائر الأقاليم آنذاك . وسواء تخلى الاتراك عن مدينة بنغازي أو أجبروا على التخلي عنها بالقوة ، فإن التاريخ يسكت عن صلتهم بهذه المدينة حتى سنة ١٦٣٧ م. ففي أغسطس من هذه السنة حاولت جماعة من الأندلسيين قدمت في أربع سفن تونسية الإستقرار بهذه المدينة بناء على دعوة من سكانها(١٨)، وشرعت، كخطوة أولى، في تشييد حصن تلوذ به في حالة حدوث قلاقل تعرضها للخطر الذي يتهدد المدينة باستمرار

(لا أسوار لها ولا قلاع تحميها من هجوم بري أو بحري) . فلما سمع حاكم مدينة درنة بهذا ، وكانت المنافسة بين المدينتين مستمرة ، أرسل إليهم من أقنعهم سراً بعدم صواب الاستقرار في منطقة يتهددهـا الخطر باستمرار ، فتركوا الحصن قبل إتمامه ، وانتقلوا الى درنة حيث كان مواطنوهم قد سبقوهم إليها[١٩].

وكان محمد باشا الساقزلي منذ سنة ١٦٣١ حاكم طرابلس العسكري والمدني (الداي والباشا) ذا مقدرة وطموح وإقدام ، وقد لفتت محاولات قاسم باشا في برقة نظره الى هذه المنطقة ، يرقب الفرصة للتخلص من هذا الخطر الذي يتهدده في شرقي ولايته ، فلما ترك هؤلاء بنغازي ، وعادت السفن التونسية الى تلك الولاية ، رأى الفرصة سانحة فسارع بإعداد حملة عسكرية قوامها ثلاثمائة من الجنود وعدد من الأسرى الرقيق المسيحيين تحت قيادة رئيس جنده عصمان (عثمان) الساقزلي ، ويوسف باي الذي عيّن حاكماً للمدينة عند احتلالها وإعلان سيادة السلطان العثماني عليها ، فتم للحملة ذلك سنة ١٦٣٨ للميلاد ، وأصبح يوسف باي حاكماً لها من قبل محمد باشا الساقزلي وقام الأسرى الرقيق بإتمام بناء الحصن الذي بدأه الأندلسيون واتخذ قصراً ملحقاً به لسكنى الحاكم وحاميته العسكرية[٢٠] .

ويبدو أن حكومة أوجلة قد أقلقها احتلال الأتراك العثمانيين لبنغازي وخاف حاكمها « أحمد بن عبد الهادي » أن يمتد الخطر الى بلاده ، أو أنه قلق لهذا باعتبار تلك المدينة هي آخر الخط التجاري الذي تنتهي اليه طرق قوافل الواحة من السودان ، فاهتم بالأمر ، وأرسل أخاه ليتسقط أخبار الباشا ويتعرف على حقيقة نواياه ، وربما ليدرس إمكان القيام بحملة عسكرية غايتها طرد قوات الأتراك من بنغازي واستخلاصها من يدهم ، غير أن هذا

كشف أمره في طرابلس فقبض عليه جاسوساً وسجن ولم يطلق سراحه إلا مقابل فدية كبيرة من المال[٢١].

وسواء ألفتت هذه الحادثة نظر محمد باشا الساقزلي الى أهمية الواحة وثراء أهلها ، أم أنه حصل من أسيره على معلومات أكيدة حولها ، أم أنه خاف من صاحبها فأراد مبادرته بالهجوم عليه وإخضاعه لتأمين السيادة العثمانية على بنغازي ، وهذا الاحتمال الأخير أدعاها للترجيح ، يدلنا عليه السرعة التي أُعدت بها الحملة ، والضخامة التي كانت عليها القوات ، فقد أنزل أسطوله في ميناء بنغازي الفاً وخمسمائة جندي من الانكشارية Giannizzeri ، وستة مدافع ميدان، وألفين من الفرسان، و ٣٥٠٠ من الخيل ، و٢٥٠٠ من المجندين المحليين (غريان ، ورفلة ، ترهونة ، الزاوية ، الخ ...) وفي ربيع سنة ١٦٤١ بدأت حملته من بنغازي على أوجلة تحت قيادة عصمان (عثمان) الساقزلي الذي سبق له احتلال بنغازي قبل ثلاث سنوات [٢٢].

ولا تهمنا أخبار هذه الحملة ولا النتائج التي بلغتها ولا المغانم التي حققتها ، فقد عادت عليه علاوة على المغانم والأسلاب بحمولة اثني عشر جملاً من الليرات الذهبية السلطانية الى جانب إتاوة سنوية قوامها ٢٥ الفاً من الليرات خفضت فيما بعد الى ستة عشر الفاً فقط [٢٣]. وإنما يهمنا منها أنها رغم نجاحها وكثرة عددها وعدتها لم تحقق أغراضها العسكرية في ضمان السيادة العثمانية على هذا الإقليم ، ذلك أن حامية بنغازي وحاكمها حين شعروا بهلع سكان المدينة وضواحيها من ضخامة تلك الحملة والنتائج التي حققتها ، تنمروا وشرعوا يرتكبون من المظالم ما حمل السكان سنة ١٦٤٣ م. على التوجه الى طرابلس للشكوى من يوسف باي ومن رجال حاميته ، غير أنهم فقدوا الأذن الصاغية لهم ، فعادوا حاقدين لموفديهم الذين لم يجدوا مخرجاً مما هم فيه

غير الثورة على الحاكم العثماني فقاموا بثورتهم في أوائل سنة ١٦٤٤ م.

ولما كان عدد الحامية التركية قليلاً لا يتجاوز مائة وعشرة رجال فقد احتموا بالقصر والحصن وحوصروا فيه ، ومدت درنة يد المعونة لبنغازي فجاءت منها نجدة من أهل مصراته ، وطال أمد الحصار حتى جاوز الأربعة أشهر ، وكان يوسف باي قد حاول في بدايتها إيفاد رسول الى الباشا عن طريق البر غير أن هذا كشف أمره بوقوعه في يد الثوار وقضي عليه . فلما جاوزت المدة ما يكفي لوصول الخبر دون أن يحدث جديد أيقن يوسف باي بأن رسوله لم يبلغ طرابلس فأوفد رسولاً ثانياً بطريق البحر هذه المرة ، وتمكن الرسول من إبلاغ الباشا بحقيقة الأمر فسارع هذا بإيفاد سفينتين حربيتين، مهمتها العودة بالحامية والحاكم الى طرابلس بحراً،فنفذ الأمر ونسف الجنود القصر والحصن بالديناميت بعد انسحابهم منه[٢٤]. وهكذا نجحت الثورة وأمكن لأهل المدينة والبلاد التخلص من الحكم العثماني ولو لفترة قصيرة من الزمن .

غير أن عصمان (عثمان) الساقزلي ، وقد أصبح حاكماً لطرابلس (باشا وداي) من بعد محمد باشا الساقزلي سنة ١٦٤٩ م. ، أقدم على استعادة مدينة بنغازي واحتل مدينة درنة التي أعانتها في ثورتها على الأتراك وذلك سنة ١٦٤٩م. ، وكأول عمل عسكري يقوم وهو باشا به ، ربما لأنه كان يرى فيها جانباً من مجده المتألق، أو لأنه كان يدرك أهميتها الإقتصادية ـ الإستراتيجية أو لغير ذلك من الدوافع والأسباب ، ولكنه لم يترك فيها من بعد احتلالها وإصلاح القلعة سوى حامية صغيرة لا يزيد عدد أفرادها عن المائة جندي ، وأعطى الحاكم رتبة الباي ومنحه كامل السلطات المدنية والعسكرية ، وجعل قراراته نهائية ، وإن ظل من الناحية العسكرية تابعاً لقيادة الجيش في

طرابلس كما فرض على السكان إتاوات ورسوم تُحوَّل إلى الخزينة في طرابلس[٢٥].

ولا نعلم الى متى ظلت هذه الحامية تحكم المدينة وإن كنـــا نظن أنها قد بقيت حتى آخر عهد عصمان باشا الساقزلي (سنة ١٦٧١ م.) بل ربما استمرت سلطة الأتراك دونما انقطاع حتى آخر القرن السابع عشر ، فإن التاريخ يذكر لنا أنه كان لمحمد باشا الإمام الشهير بشايب العين عامل على برقـــة في حدود سنة ١٦٩٣ اسمه محمد بن محمود . وقد أورد ابن غلبون عنه في التذكار أن منصور بن خليفة الخارج على شايب العين قد توجه الى برقـة بمن معه فكتب هذا الى عامله يأمره بالوقوف في وجهه ، وتمكن هذا من تجنيد اثني عشر ألفاً من أهل بنغازي ودرنه ومن الجبارنة والبراغيث والبراعصة وأولاد علي ، قابله بهم فهزموا في البداية ثم هزموا منصوراً واستولوا على حريمه ولم ينج له ولمن معه غير قليل من الإبل (ذود واحد) [٢٦].

وبالرغم من أن التاريخ يسكت عن بقية الفترة التي امتـــد إليها حكمهم المباشر على ليبيا وهي غير مديدة (١٦٩٣ – ١٧١١) فليس من المعتقد أنهم فقدوا سيطرتهم كلية على البلاد وانمـا استمرت لهم تلك السيادة الإسمية الممثلة في عامل مستكين لحامية قليلة العـــدد غير مستقرة (–) لا تسيطر على غير المدينة التي تقيم فيها ، وما أكثر الأحيان التي يلجأ فيها العامل الى حكمة تفرضها عليه الظروف وقلة الجند وقوة الرعية . وقد أدى هذا الوضع الناشىء عن ضعف الولاة الأتراك في طرابلس ، وانشغـــالهم بالمؤامرات وبالدسائس وبالإنقلابات عن هذا الاقليم الى أن تترك البلاد لنفسها حتى نهايـة هذا العهد ، وربمـا الى أطول من ذلك ، فالتاريخ يسكت عن صلة هذه المدينة بالعثمانيين حتى نهاية عهدهم الأول الذي انتهى سنة ١٧١١ للميلاد .

وفي خلال هذه الفترة ظلت البلاد – على ما يبدو – تمارس نوعاً من الحكم

الذاتي القبلي Anarchia ، تتنازع السلطة فيه أحزاب المدينة من أهل مصراته ، فيستولي هذا حيناً وذاك آخر لعله أشبه ما يكون بما مارسته هذه المدينة في تاريخها الجمهوري البعيد ، وإن من غير بوليه وجيروسا وكهانة وكهان .

وخلال هذه الفترة تروى لنا ذكريات شعبية لأحداث محلية دارت حول الصراع الطويل الأمد والذي نشب بين الفئتين ، أو في تعبير حديث ، بين الحزبين اللذين انقسمت إليهما قبائل مصراته ، بعد أن أجلت الطواهر عن المدينة وانفردت هي وحدها بسكناها .

وقد عرف الحزبان في مبدإ الأمر بإسمي زعيميهما اللذين برزا كقائدين لهما في الصراع : « فكرون » و « دغيم » ، وقد ضم حزب « فكرون » جميع العائلات التي تنتمي إلى قبائل : « يدر »[٢٧] ، و « الكوافي »[٢٨] ، و « قزير »[٢٩] ، و «زمورة» ، و « قصر حمد » ، و «خدام الزروق»[٣٠]؛ وقد عرف هذا الحزب فيما بعد باسم « الحاشية » ثم أخيراً بـ « الأهالي » ، وضم حزب « دغيم » جميع العائلات المنتمية إلى قبائل : « بلالة »[٣١]، و « صور جابر »[٣٢] ، و « اليعاقيب »[٣٣] ، و « الشويخات »[٣٤] ، وانضم إليهم « الكراغلة » أو « القولاغلية » بعد تحيزهم كمجموعة أو كقبيلة خلال الحكم التركي ؛ وقد عرف هذا الحزب فيما بعد باسم « ذكيران » في مقابل الحاشية ، ثم أخيراً باسم « الحكومة » في مقابل الأهالي .

ويبدو أن شهرة الحزبين باسمي القائدين لم تدم طويلاً حتى حلت محلها تسمية « حاشية » و « ذكيران » كتسمية أعم وأشمل يتلاشى فيها الفرد ونفوذه ، ذلك أن هذه التسمية قد دامت حتى قوي نفوذ الحكومة في المدينة ربما في العهد القرمانلي .

وإذا كانت التسمية الأولى للحزبين محلية ، نشأت من اسمي الزعيمين اللذين

قاداهما في الصراع [٣٥] ، فإن التسمية الثانية (حاشية – ذكيران) وكذلك التسمية الثالثة (أهالي – حكومة) قد جاءتا من مصراته حيث كان انقسام السكان فيها مكوّناً على نفس الشكل تقريباً ، مع اختلاف في أسماء القبائل هناك عما هي عليه في بنغازي ، غير أن ما وجد منها في بنغازي نجده في مصراته منضماً الى ذات الكتلة إما أهالي وإما حكومة . وهذا قد يجعلنا نحتمل أن الصراع الناشب في بنغازي قد تكون أسبابه ومسبباته هناك في في مصراته وهذا لا يمنع أن تكون له أسباب أخرى محلية مجهولة لدينا ، غير أنها كانت بالتأكيد مستندة الى تلك الجذور النفسية الكامنة في الجماعة التي قدمت من هناك .

وتقول الرواية الشعبية إن الصراع الناشب بين الفريقين بعد انفراد مصراته بسكنى المدينة قد استمر طويلاً بين الفريقين سجالاً ينتصر فيه هذا مرة ويهزم أخرى دون أن يفوز بالنصر النهائي أي من الفريقين . ويوحي طول أمد هذا الصراع بأنه كان غير متصل وإلا لاستحال تصور استمراره وفي حيز ضيق لعشرات السنين ذلك أنه لم ينته إلا في أواخر العهد القرمانلي وبمجهود ولي صالح قدم من السودان على ما سيأتي .

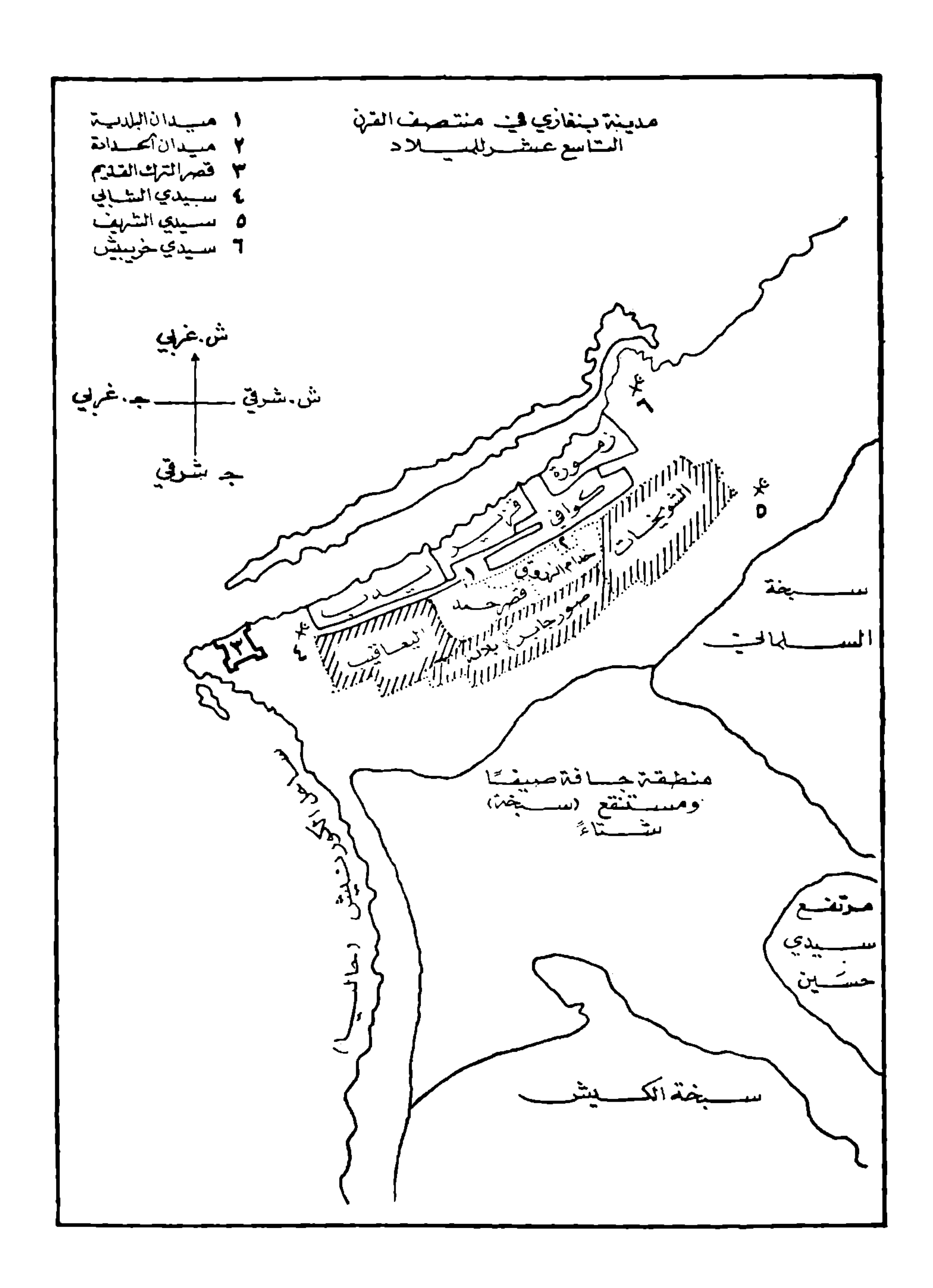
ويذكر دي أغستيني في كتابه أنمنزل فكرون كان لا يزال قائماًومعروفاً في عهده (سنة ١٩٢٢م.) بمحلة سيدي ين عيسى ، ويقول إن هذا المنزل كان الحد الفاصل بين منطقتي سكنى الفريقين . ولقد حاولنا من جانبنا التعرف على كيفية هذا التقسيم بالرجوع الى أسماء الشوارع التي تحمل في عصرنا أسماء بعض القبائل المذكورة لهذا الفريق أو ذاك ولكننا فشلنا لتداخلها علىالخريطة بشكل لا يعين على رسم أي خط للتقسيم فاحتملنا حدوث إعادة تقسيم للبلاد بين القبائل بعد انتهاء الصراع مما غيّر كثيراً في التوزيع السابق الذي كانت عليه البلاد قبل قرنين من الزمان .

ومع ذلك فقد حاولنا جهدنا بالرجوع الى أسماء الشوارع التي لا تزال تحمل أسماء هذه الوحدات كشارع العقيب ، وشارع قزير، وشارع الشويخات وما الى ذلك ، وبالرجوع الى تعيين أكثر المساكن القديمة المملوكة لأفراد الوحدة تجمعاً وتجاوراً ، والى بعض الإشارات التاريخية الواردة في بعض المصادر أو في الروايات الشعبية حول السكن والسكان . ونجحنا الى حد ما في رسم خريطة تقريبية لمناطق نفوذ هاتين الكتلتين أو المجموعتين نقدمها فيما يلي مع ابداء تحفظ في مدى دقة التقسيم رغم ما عانيناه في تحقيقه وحرصنا عليه من تحري الدقة عند وضعه .

٦ – مدينة بنغازي في العهد العثماني الأول :

ولم تكن في برقة حتى نهاية هذا العهد مدينة بذاتها تتمتع بمركز يؤهلها لأن تعتبر عاصمة حقيقية للإقليم ، فإن مدينة بنغازي كمدينة درنه وكواحة أوجلة النائية في الجنوب كانت خلال هذا العصر قائمة بذاتها مستقلة عن غيرها ، لا سلطان لها على ما يجاوز حدودها بضواحيها ، ولذلك فمن الخطإ تاريخياً أن نرى في بنغازي أو في غيرها خلال العهد العثماني الأول بكامله عاصمة حقيقية لبرقة ، وهو الخطأ الذي وقع فيه قبلنا كثيرون ممن كتبوا عن بنغازي في ذلك العصر وربما أوقعهم فيه ما أصبحت عليه في العهد القرمانلي والعهد الذي يليه ، وشجع على الوقوع فيه عدم وجود العاصمة في برقة آنذاك لعدم توفر الزعامة السياسية الموحدة في البلاد .

ولم يكن سكان مدينة بنغازي من أهل مصراته وحدهم فقد كان يشاطرهم سكناها بعض فقراء أهل المنطقة من الذين تركوا سكنى البادية واستقروا بها سعياً وراء العمل والكسب ، وقد توجد بها بعض العائلات الأندلسية التي



مدينة بنغازي في منتصف القرن
التاسع عشر للميلاد
١ ميدان البلدية
٢ ميدان الحدادة
٣ قصر الترك القديم
٤ سيدي الشابي
٥ سيدي الشريف
٦ سيدي خريبيش
ش. غربي
ش. شرقي
ج. غربي
ج. شرقي
زمورة
كواف
فرنسيس
البدو
الشويخات
خدام الزروق
قصر حمد
صور جابر
العواقيب
سبخة
السلماني
منطقة جافة صيفاً
ومستنقع (سبخة)
شتاءً
مرتفع
سيدي
حسين
سبخة الكيش

استقرت منذ حدوث المأساة في أواخر القرن الخامس عشر ، وإن كان هذا من غير المؤكد حدوثه لما تقدم حول هذا العنصر من حديث .

كما وجد بها ، ولاشك ، بعض اليهود إذا ما أخذنا بعين الإعتبار أنهم كانوا في آخر العهد القرمانلي يكوّنون ما يربو على ثلث سكانها، غير أنه من المستبعد أن يكون عددهم في البداية كبيراً ، كما قد يوجد بها بعض التجار الأجانب الذين يقبضون على زمام حركة التصدير والإستيراد في المدينة وإن كان من المستحيل علينا تعيين جنسياتهم أو التكهن بأعدادهم ، وإن كان من المؤكد أنهم قلة .

وقد قامت مدينة بنغازي منذ نشأتها على التجارة التي تركزت في ثلاثة ميادين : تجارة الملح ، تجارة الاستيراد والتصدير ، الزراعة وتربية الحيوان . أما الغزو البحري أو القرصنة فلم يكن لها أبداً نشاط فيه وإن تعرضت لويلاته وكانت الضحية لغارات القراصنة المسيحيين على ما سيأتي ، وربما ذلك لأن الأتراك لم يتخذوا منها ثغراً لعدم ملاءمة موقعها الجغرافي من حوض البحر المتوسط لهذا الغرض .

وكانت تجارة الملح هي العامل الرئيسي الذي قامت المدينة أصلاً عليها ، وكانت سبباً في وجودها ، واجتذاب السفن التجارية اليها ، وقد استمرت هذه التجارة قوية ورائجة وذات دخل كبير ليس طوال هذا العهد وحده وإنما حتى النصف الأول من القرن العشرين . ويوم احتلال الايطاليين لها كان الملح مجمعاً في شبه آكام ، ولا يزال بعض شيوخ المدينة يذكر حتى اليوم منطقة حديقة البلدية وسينما البرينيتشي وما حولها من المباني الاسم الذي كانت تعرف به وهو « عوام الملح » بل إن الايطاليين أنفسهم قد اطلقوا عليها اسم « ميدان الملح = Piazza Del Sale ». وقد كانت هناك مواسم لتجميعه

(يوليه ـ سبتمبر) أما تصديره فهو مستمر طوال العام وبكميات كبيرة ولا شك أن قدرة هذه الملاحات تربو على المليون طن سنوياً ، وقربه من الميناء يقلل كثيراً من تكاليف الشحن من غير شك .

وكانت التجارة التقليدية مع السودان قديمة العهد مستمرة وطرقها عبر الصحراء الكبرى محددة ومطروقة غير أنها عندما تنتهي الى الواحات الشمالية من فزان ومن برقة تتخذ الطريق الأكثر أمناً عما سواها ، فهي أحياناً تتعدى الحدود الى مصر أو تونس وذلك عندما تكون المنطقة الشمالية من ليبيا مضطربة وطرقها مهددة أو غير مضمونة ؛ وهي أحياناً تأخذ طريقها الى مدينة دون أخرى بحسب الظروف المسيطرة على هذه المدن . أما في برقة فقد أهملت هذه التجارة ولفترة طويلة من الزمن حتى إذا نشأت مدينة بنغازي من جديد عادت بعودتها هذه التجارة الى الحياة وأصبحت تنتهي عندها قوافل السودان القادمة عن طريق أوجلة وفزان معاً . ذلك أن احتلال الإسبان ففرسان القديس يوحنا لمدينة طرابلس وانشغال أهل الإقليم بالمقاومة وانعدام الأمن في بحارها بسبب نشاط الصراع البحري في نفس الوقت الذي نشأت فيه مدينة بنغازي نشأة تجارية ملائمة ، جميعها أمور قد حولت الى هذه المدينة جلّ النشاط التجاري مع أواسط القارة . وحتى بعد طرد الصليبيين من طرابلس واستتباب الأمر فيها للعثمانيين لم تعد هذه التجارة اليها كما كانت قبلاً لانعدام الأمن الغالب عليها بسبب الثورات الوطنية على الحكام الأتراك وقمع هؤلاء لهذه الثورات ، ولذا فقد استمرت الواحات الشرقية من فزان وواحات برقة تؤم سوق بنغازي لوفرة الأمن في ربوعها داخلياً وبحرها، ولقلة نفوذ الأتراك بها طوال العهد العثماني الأول على الأقل .

وكانت السهول المحيطة بالمدينة والممتدة الى عشرات الكيلو مترات عرضاً



منظر لأحد الشوارع في بنغازي القديمة سنة ١٩١١

ومئات الكيلو مترات طولاً زكية التربة وافرة المحصول من الحبوب واسعة المراعي كثيرة الحيوان من أغنام وإبل وأبقار ، مما جعل المدينة سوقاً رئيسية لتصدير المنتجات المحلية من حيوانات وحبوب .

وكانت السفن التي تأتي الى هذه الميناء لنقل البضائع المحليـة والمستوردةمن أواسط القارة تجلبمن البضائع ما السوق في حاجة اليه من منتجات البـلاد الأخرى ولعل أهمها المنسوجات القطنية والصوفية والمأكـولات التي لا تنتجها البـــلاد .

وكان هذا الاتجاه الذي سارت الحركة الاقتصادية فيه عامـلاً أساسياً في إعدادها لتكون عاصمة سياسية أيضاً في العهد القرمانلي والعهود التي تلته، فقد جعل منها هذا النشاط عاصمة اقتصادية للبلاد تؤمها جماعات السكان من سائر الإقليم لبيع منتجاتها وشراء حاجياتها من سوقها العامر بشتى المعروضات .

٧ — خضوع المدينة للقوات القرمانلية :

في سنة ١٧١١ للميلاد قام أحمد القرمانلي بحركته المحكمة التي انتهت به إلى كرسي الولاية فحوّله إلى إمارة وراثية شبه مستقلة عن الباب العالي ، وقـــد حاول في السنوات التالية فرض سيادته على سائر الإقليم بمـا في ذلك برقة ، وقد نجح في محاولاته تلك بصورة لم يسبق للبلاد أن عرفتها . ربما لأنه كانت في تصرفاته المستقلة عن الباب العـــالي حرية أكثر جعلته أسرع في إصدار القرارات وفي تنفيذها ممن سبقه من الولاة ، إلى جانب قوة في إخضاع الإقليم وشدة بطش خلصته من الخصوم والمناوئين[٣٦] .

وفي سنة١٧١٩للميلاد عقد أحمد القرمانلي لأخيه الحاج شعبان بك القرمانلي على برقة ، وأرسله إليها على رأس كتيبة من جند الإنكشارية بقيادة ابراهيم

التريا كي وعلي بن خليل الأدغم « لتمهيد تلك النواحي – فيما يقوله النائب – وتثقيف أطرافها ، وتطويع من كان مخالفاً بها من العربان ، وجبايتهم ،فارتحل بهم إلى ذلك السمت »(٣٧).

والمؤكد أنهم قد نجحوا في السيطرة عليها بسهولة ، ذلك أنهم بلغوا في حملتهم تلك إلى درنة ، وهذا معناه السيطرة على مدينة بنغازي وغيرها من البلاد دون درنة ، الأمر الذي حسَّن لإبراهيم التريا كي الخروج على القرمانلي « فقد كان جموحاً للرياسة – فيما يقوله النائب – » فخالف الحاج شعبان بك، ونقم عليه سوء السيرة ، وحدثته نفسه بالإستبداد ، ومد عنقه للولاية ، وأصغت آذان علي الأدغم وسائر الجنود لناعق فتنته، وكلما مروا بقبيلة دعوها لموافقتهم فأجابت طوعاً أو كرهاً ... »

ولم ينجح التريا كي في انقلابه فبعد أن نجح في الاستيلاء على البلاد حتى تاجوراء هُزم من قوات أحمد وتفرقت جماعاته وفر هو إلى الصحراء (؟) وعلي الأدغم إلى مصر ، واسترد أحمد القرمانلي سيطرته على سائر البلاد ، وإنما لفترة يسيرة إذ أن محمد رايس الملقب بجانم خوجه(٣٨) قدم على بنغازي وتمكن من إثارتها وبقية برقة ضد أحمد باشا القرمانلي في سنة ١١٣٣ هـ. (١٧٢١ م.)(٣٩) فاضطر هذا إلى تسيير حملة ضدهم استعاد بها سلطانه على البلاد(٤٠). ويبدو أن برقة ظلت جزءاً من مملكته أو إمارته بعد ذلك حتى آخر عهده ، يدلنا على هذا ذلك الخبر الذي أورده ابن غلبون في التذكار بما يفيد أن محمود باي بن أحمد القرمانلي نفسه كان حاكماً (مقيماً في بنغازي) على برقة باسم أبيه سنة ١١٣٧ هـ. (١٧٢٥ م.)(٤١).

وكان نجاح أحمد باشا القرمانلي في الإحتفاظ بسلطانه على برقة، الى جانب ظروف أخرى اقتصادية واجتماعية قد مكن لبقية هذه الأسرة من الاستمرار

بالسيطرة الإسمية عليها . وفي خلال هذه المدة كانت سيادتهم الإسمية وربما الفعلية واضحة على برقة جميعها ، وإن كنا لا نعلم بالدقة أحداث هذه المنطقة السياسية ولا أسماء الحكام القرمانليين على مدينة بنغازي التي نؤرخ لها حتى بداية العقد الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي . وكل ما نعلمه من الروايات الشعبية التي سجلها لنا دي أغستيني في كتابه هو أنه قبل هذا التاريخ بزمن يسير نجح رجل صالح يدعى سيدي مؤمن كان قد قدم من السودان إلى هذه المدينة في إيجاد نوع من التفاهم بين حزبي الحاشية وذكيران خفف من حدة التوتر بينهما ، وأدى إلى نوع من التعايش السلمي بين الفريقين المتصارعين[٤٢] مكنهما من الوقوف صفاً واحداً تجاه قوة الجوازي المحاصرة لمدينتهم بعد ذلك بزمن قليل .

٨ – حصار المدينة أو الحرب بين الجوازي والعلايا :

كانت الحياة القبلية في برقة عائقاً قوياً يعوق أية سلطة ضعيفة عن بسط نفوذها الفعلي على الإقليم ، فكانت حركات التمرد على الحكم المحلي ، وكانت الحروب القبلية طابع تلك الفترة من التاريخ ؛ فكم من قبيلة تزحزحت عن أراضيها ، وكم من قبيلة اضطرت الى النزوح نهائياً خارج البلاد بعد أن تكون قد هزمت أو غلبت على أمرها من قبل قوات الدولة أو من القبائل الأخرى المعادية لها . ومن بين القبائل التي نزحت بكاملها عن برقة الى الشرق : أولاد علي والفوايد والرماح والجوازي وبطني خضرة ومغيربية من البراعصة ،وتؤكد بعض الروايات الشعبية أن الهنادي وأولاد سلام (السلالمة) قد نزحت هي الأخرى عن برقة ، كما ان قبائل معدان والفرجان والقذاذفة والبكور والمرازيق وغيرها قد تركت هي أيضاً مناطق سكناها بتزحزحها نحو الغرب [٤٣] .

وقد وقع كثير من المؤرخين العرب في أخطاء تاريخية جسيمة ، عن غير قصد ، نتيجة تلك الأخطاء المتعمدة من بعض كتّاب ومؤرخي الغرب المغرضين ، وبسبب أخذهم بالروايات الواردة عند هؤلاء ودونما دراسة لها أو تحليل .

ومن بين هذه الأخطاء التاريخية ، ما يتعلق بهذه الحروب التي يرويها الناس في روايات شعبية ساذجة كحرب العبيدات والبراعصة ، وحرب الجوازي والعلايا ، وحرب زغبة ، وغيرها من الحروب القبلية التي تعرف محلياً بحروب الصف [٤٤] ، فقد جاءت هذه في كتب التاريخ الحديثة على أنها حروب قبلية ساذجة الأسباب والمسببات ، بينما هي في الواقع فتن سياسية لعب الدور الرئيسي فيها حكام البلد من الأتراك والقرمانليين الذين لم يكن يضيرهم أن يذهب الشعب ضحية لها ما داموا هم سيجنون ثمارها من مغانم وسلطان ، ولن تتقزز نفوسهم من المكاسب التي يحققونها على حساب تلك الأشلاء المضرجة بدمائها .

واذا كنا الآن بصدد الحديث عن تاريخ مدينة بنغازي وحدها فمن الطبيعي أن نقصر حديثنا على ما يتصل بهذه المدينة من تلك الحروب ؛ وهي حرب الجوازي والعلايا [٤٥] والتي وقعت أحداثها فيما بين سنتي ١٨٠٩ و ١٨١٧ للميلاد أي في منتصف عهد يوسف باشا القرمانلي .

أورد دي أغستيني معلومات على جانب كبير من الأهمية في كتابه عن سكان برقة [٤٦] تتعلق بمناطق سكنى قبائل برقة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر للميلاد (سنة ١٧٧٠ ؟) ، ومنه نجد أن مدينة بنغازي كانت تقع عند نقطة التقاء الحدود بين قبيلة المغاربة وقبيلة الجوازي ، فأراضي القبيلة

الأولى تقع الى الشمال الشرقي والى الشرق من المدينة ، وتمتد حتى منطقة أم شخنب ،بينما تمتد أراضي القبيلة الثانية من بنغازي الى الجنوب والجنوب الشرقي حتى الشليظيمة ، وسلوق ، والطيلمون ، ثم الى قمينس فالبحر(٤٧). وهذه التحديدات تختلف كثيراً عما نجدها اليوم عليه ، والسبب في هذا يرجع الى مجموعة أحداث تاريخيـــة متداخلة ، سببت تزحزح القبائل عن مناطقها التي كانت تسكنها منذ قرنين من الزمان .

وحتى سنة ١٨٠٩ نجـــد مواقع هذه القبائل لا تختلف عن تحديد دي أغستيني كثيراً ، بل لعلها كانت هي ذات المناطق ومن غير أي تعديل . وفي تلك السنة ، وافق يوسف باشا تحت إلحــاح الأمريكان ووساطة الانجليز على تعيين أخيه المخلوع أحمد باي القرمانلي عاملاً له على منطقة درنــة وحدها(٤٨) كما وافق قبل ذلك على أن تلحق بـــه زوجته(٤٩) خدوجة بنت السلاحدار عمورة القائد(٥٠) ابن الحاج محمود لملوم(٥١) ، فكانت هذه الموافقة بداية كارثة الجوازي التي سببت هجرتهم للبلاد فيما بعد . ذلك أن أحمد باي القرمانلي كان لا يزال يطمع في استعادة الحكم من أخيه على الرغم من فشله السابق، وخذلان الأمريكان له في النهاية . وقد وجـــد في هذه المرة الفرصة مؤاتية لتدبير مؤامرة قد تعيد سلطانه إليه إذا ما خلصت له برقة بانضمام بنغازي (المنطقة الغربية) الى درنة (المنطقة الشرقية) التي أسند حكمها باسم الباشا إليه(٥٢).

كانت المؤامرة فيما يبدو(٥٣) تستند الى عامل النسب الذي يربطــه بقبيلة الجوازي إحدى كبريات قبائل الجبارنة ، وأشدها بأساً(٥٤) أمـــا مخططها فيبدو من الأحداث التاريخية أنه قام على أساس دفع هذه القبيلة الى التمرد على الحاكم القرمانلي في بنغازي واحتلالها من قبلها فتصبح بهذا في حكم الخاضعة له . وقد استغرق منه الإعداد لهذه الفتنة فترة من الزمن ، إذ ان الثورة لم

تحدث إلا في أوائل سنة ١٨١١[٥٥].

وليس من السهل اليوم أن نصل الى معرفة الطريقة التي تم بها إشعال نار الفتنة التي عرفت بحرب الجوازي والعلايا . والرواية الشعبية لا تسعفنا كثيراً لأنها تقدم أسباباً ذاتية ساذجة لا تتصل بالحكم ولا بالحكام ، ولا تبرز لنا بجلاء تلك الخيوط الدقيقة التي حاكها أساتذة التآمر من أبناء القصر الحاذقين ، وقد روى محمد الطيب الأشهب تلك الرواية الشعبية في تفاصيلها في الصفحتين ١١١ و ١١٢ من كتابه : برقة العربية أمس واليوم ، ونلخصها عنه فيما يلي : « غزاة من الجوازي ، غنموا إبلاً لبعض المغاربة والعواقير ، وكان أمر استعادتها ، والأخذ بالثأر فيها هو السبب المباشر في نشوب الحرب بين الفريقين » . وليس هذا وما شابهه مما ذكره الطيب الأشهب قبله بالسبب الذي يجعل التمرد قائماً ضد الباشا وحكومته في بنغازي بالتأكيد ، بل لا بد وأن يوجد سبب حقيقي غيره يجعل التمرد موجهاً ضد حكم القرمانليين في المنطقة . ولكنه قد يلقي بصيصاً خافتاً من النور يرشدنا الى الأسلوب الذي اتبع في دفع هذه القبيلة الى التمرد على القرمانليين. فالطيب الأشهب يشير الى أن تصرف الجوازي تجاه قبائل العلايا قد تغير في الآونة الأخيرة بجنوحه الى الفظاظة والغلظة والتسلط والتعالي وقد كان في السابق على غير ذلك . ومع أنه يرجع هذا التحول الى عوامل أخرى (قبلية ساذجة أيضاً) إلا أننا نكاد نلمح فيه نوعاً من الاعتماد على صلة النسب التي لهم بالأسرة القرمانلية ، واعتداداً بها بلغ حد الصلف والإعتداء على أفراد قبائل العلايا وربما على سكان المدينة أيضاً، ثم على عامل يوسف باشا حينما حاول التدخل ورد المظالم والدفاع عن الرعية كما هو واجبه ولا شك .

ومهما يكن السبب الذي لجأ الجوازي اليه كذريعة للتمرد ، فإننا نجدهم

يقفون وجهاً لوجه ضد المغاربة والعواقير وأهل بنغازي (مصراته) في هذه الحرب سنة ١٨١١ م. ، كما نجدهم وقد انتصروا في بدايتها على خصومهم فيها حتى تمكنوا من محاصرتهم جملة في بنغازي ، وهو الحصـــار الذي عرف في الرواية الشعبية باسم « عقل خريبيش » [٥٦] وقد دام خمسة أشهر كاملة [٥٧] حدثت خلالها عدة معارك داخل المدينة وفي أطرافها ، ومن بين هذه المعارك معركة الزريريعية [٥٨] ومعركة المفلوقة [٥٩] وهمـا موضعان في بنغـــازي (القديمة) يسهل على من بداخلها الدفاع عنها ، ولا مدخل للمحاصر لها غيرهما، مما يبدو معه أنهما كانتا مركزي هجوم ورد هجوم عن المدينة المحاصرة،وتذكر الرواية الشعبية معركة فاصلة بسيدي الشريف [٦٠] كانت بدايـــة انهزام الجوازي الذين لا يزالون يتشاءمون منه في قولهم ،«هدك يوم ، يوم الشريف» ، والذي يبدو من موقع هذا المكان بالنسبة الى خريطة المدينة ـ آنذاك ـ هو أن الجوازي قد نجحوا في اختراق مناطق الدفاع حتى وصلوا أول المبـــاني حيث مقبرة سيدي الشريف ، وهناك تمكن المحاصرون من الإستماتة في الدفاع حتى ردوا المغيرين ودحروهم [٦١] إما لأن هزيمة المحاصرين داخل المدينة كانت تعني النهاية بالنسبة لهم ، وإما لوصول قوات القرمانليين التي يقودها محمد باي أكبر أبناء الباشا وزوج فاطمة بنت أحمد القرمانلي (عمه) من خدوجة التي سبق ذكرها .

ويروي لنا ميكاكي أن أحمد القرمانلي أخا يوسف باشا قد فرّ الى مصر على أثر وصول قوات الباشا أو علمه بمسيرها الأمر الذي يكاد يدفـــع هذا الباي الى التآمر مع المتمردين على سلطان القرمانلي[٦٢]والا فما الذي يحمله على الفرار الى مصر والتمرد وقد كان في غير منطقته ومن غير أتباعه وهو لم يشارك فيه شخصياً بقيادته أو بالإنضمام إليه ؟ ...

ويحدثنا ديلاشيلا في رحلته أن محمد باي بن يوسف باشا قد سحق المتمردين ولم يبقِ منهم على أحد قبل إيابه لطرابلس[٦٣] ، غير أننا نشك في أنه بلغ منهم هذا المبلغ ، ذلك أننا نجد الجوازي بعد سنة ١٨١٢ لا تزال منهم قوة كبيرة في برقة[٦٤] كما نجد محمد باي القرمانلي نفسه فيما بين سنتي ١٨١٥ و١٨١٦ يعتمد على هؤلاء في تمرده ببرقة على أبيه الذي أعاده الى الإقليم حاكماً باسمه ليتخلص منه بعد حادثة اعتدائه عليه . ونرى أن الجوازي وقد شعروا بخطورة الموقف الذي اصبحوا عليه في برقة قد بادروا بالانسحاب منها شرقاً الى مصر حتى يأمنوا جانب قوات الباشا المؤازرة للعلايا ولمصراته (سكان بنغازي) ، ولعل هذا كان بمشورة أحمد باي القرمانلي نفسه وقبيل فراره من البلاد ، وأن قوات محمد باي لم تصطدم معهم اصطداماً فعلياً وإنما اكتفت بمطاردتهم حتى خارج الحدود ، وأنهم عادوا بعد ذلك الى برقة فيما بين سنتي ١٨١٢ و ١٨١٥ والى مناطق سكناهم العليا (منطقة سلوق — الطيلمون) .

٩ — مذبحة الجوازي في قصر الحكومة ببنغازي :

ويصوّر لنا ديلاشيلا شراسة محمد باي بن يوسف باشا وقسوته في وحشيته الى حد « السادية » حينما يصف لنا كيفية تجريبه السم الزعاف لخدمه لا لشيء سوى تمتعه بمشاهدتهم يعانون آلام الإحتضار[٦٥] . ويذكر لنا هذا الطبيب الإيطالي أن محمد باي بعد أن عاد الى طرابلس من حملته على برقة فَقَدَ صفة طاعة الإبن لأوامر أبيه ولم يعد يحتمل الإنصياع لإرادته ، حتى بلغ به الصلف حداً جعله يعتدي على أبيه في ساعة غضب فيحاول طعنه بخنجره ، ولم ينقذ الأب الشيخ غير إقدام جارية من جواريه على تقبُّل الطعنة في جسدها دفاعاً عنه . ولم يقتصّ الباشا لنفسه ولا للجارية من الإبن ، وإنما اكتفى بإبعاده عنه

عاملاً له على بنغازي ودرنه (برقة) . ولم ينتبه يوسف باشا لهـــذا الخطأ السياسي الفادح إلا بعد فوات الوقت ، عندما علم بخروج محمد باي عن طاعته ومؤازرة قبيلة الجوازي التي كان قد أخضعها قبـل ذلك لسلطان أبيه له في تمرده على الباشا ، فسيَّر يوسف باشا ضد ابنه الخارج عليه حملة عسكرية ثانية بقيادة ابنه الثاني أحمد باي .

ويروي لنا الطبيب الإيطالي ديلاشيلا وهو شاهد العيان الذي رافق هذه الحملة الثانية بصفته طبيباً خاصاً للباي أحمد القرمانلي ، خبر هذه الحملة وخط سيرها ، وكيفية تكوينها وأسلحتها وتنظيمها الى جانب معلومات أخرى أركيولوجية وجغرافية بالغة الأهمية في كتاب وضع على شكل رسائل كان يبعث بها الى ايطاليا . وفي الرسالة الثامنة عشرة وقد كتبها من بنغازي نجد ما يتعلق بمذبحة الجوازي في مدينة بنغازي . وحرصاً على دقة الرواية ننقلها هنا بكاملها في ترجمة أمينة للنص الإيطالي :

« بينما كنت أرتاد المرتفعات الساحلية من برقة بحثاً عن النباتات الطبيعية وعن الآثار القديمة ، كان السلام مخيماً على مدينة بنغازي ، فالإحتفال برمضان يلبس المدينة مظهراً جديداً كل الجدة ، ويغيِّر كلية الأسلوب العـادي للحياة اليومية : فالصوم مراعىً بكل دقة وصرامة من قبل هؤلاء المسلمـين الذين يبقون من الصباح [الفجر] حتى المساء [غروب الشمس] بأفواه جافة ، غير أنهم ما ان يحل المساء حتى يقبلون على الطعام يبتلعون منه بأكثر ممـا يطيقون ، ثم يمضون ليلهم في الصخب والحركة مخدرين بالأكل والشرب يقضون كامل يومهم [التالي] في النوم ، وفي نومهم يصومون ؛ ولطول فترة صيامهم فإنهم عندما يحل المساء يقبلون على موائد الطعـام في شراهة تمتد حتى الصباح التالي . لذا أعرف اليوم لماذا تستقبل أيام الإستغفار هذه بشوق ولهفة

من المسلمين ، كما كنا نستقبل في شبابنا أيام الكارنفال . وليس شيء أكثر من هذا سآمة للأوروبي الذي لا يشارك في عبادتهم وهو لسوء طالعه مضطر للعمل معهم . ففي النهـــار هم نائمون ، والويل لمن يحاول انتزاعهم ليلاً من فوق موائد الطعام » .

هذه هي الصورة التي وصف بها ديلاشيلا احتفالات رمضان ، فهي عنده صورة مادية صرفة لا تخرج عن نوم وأكل وشرب وقلب لمظهر الحياة اليومية. وهو غير ملام في هذا فإن الإحساس بالجانب الروحي في الصيام ، يقتضي من الإنسان اعتناق العقيـــدة ، والإتصال الروحي الكامل الذي يعطي الشكل معنى القداسة في التعبد، وليس هو وحده الذي فعل هذا فإن سائر الكتّاب، ومن جميع الأجناس والشعوب في القديم والحديث، لم يمكنهم أن يقدموا وصفاً واقعياً لطقوس أية عبادة ولا أن يحسوا بالجانب الروحي فيهـا ما داموا غير معتنقين للعقيدة ذاتها ، إذ ان أية طقوس في أية عبادة تفقد محتواها العقائدي لا يمكن استساغتها، ولو كتبت كمسلم عن مظهر من طقوس المسيحية لما أمكنني أن أحس بالجانب الروحي فيها ولاقتصر وصفي على المظهر السطحي والحركات الآلية التي لا تستساغ عادة ، لافتقاري الى الإحساس بالجانب الروحي الذي يكسبها معنى قدسياً مقبولاً .

بعد هذه الصورة المادية للحياة اليومية في رمضان والتي قدم بها للأحداث الرهيبة الدامية ، انتقل الكاتب في رسالته الى جوهر الموضوع فقال :

«في هذا الهدوء الشامل كانت خيوط مؤامرة دنيئة تنسج في الخفاء لتضع نهاية مخزية لهذه الحملة التي لم تلطخ حتى الآن بالدماء ، ذلك أن قبيلة الجوازي لم تقدم ضحايا تمردها وانضمامها الى صفوف الخارج على سلطان أبيه ، فهي قد انفصلت عنه قبل مجيئنا ، وهي بكامل حريتها قـــد أرسلت الى طرابلس

باثنتين وعشرين رهينة من أبنـــاء أعيانها كدليل على صدق توبتها وصادق ولائها ، وهي فوق ذلك قد استقبلت الباي أحمد وسائر جنده بحفاوة بالغة ؛ غير أن هذا جميعه لم يقنع الباشا بأن هذا الولاء لا يرجع الى عامل الخوف وحده ، ويبدو من النتائج أن تعليمات الباشا كانت تقضي بالتظاهر بتناسي الماضي مع تربص الفرصة بهذه القبيلة حتى تسنح لإنزال العقاب بهم والإنتقام منهم ، وقد أتقن الباي وحاشيته تنفيذ مخطط الباشا حتى أن الجوازي قد أصبحوا الفئة المقربة إليه بين الأتبـاع ، وحتى أنه لم يبق من حديث إلا عن صدق ولائهم وعن انخراطهم تحت رايـــة الباي ومشاركتهم له في طرد الباي محمد الخارج على أبيه . وما من يوم يمر دون أن يستدعى هذا أو ذاك من كبار شيوخهم فيقربه الباي منه ويتبسط في الحديث معه ثم ينصرف وقد أغرق بالحفاوة والإكرام البالغ . وتحت هذه المظاهر الودية كان المخطط الدنيء يرسم للقضاء عليهم ثم على سائر أفراد القبيلة بعد ذلك في سرعة ، غير أن الإقدام على هذا علناً وفي مواجهة صريحة كان أمراً محفوفاً بالمخـاطر الجمة اللهم إلا إذا أمكن الإيقاع بهم جمـــلة وعلى حين غفلة ، وأمكن في نفس الوقت مهاجمة القبيلة حين افتقادها هؤلاء وعلى غرَّة من محاربيهـا . وفي تلك الأثناء أخذت تروج إشاعة تقول بأن الباي قد حصل من أبيـــه الباشا على موافقة بتوزيع « البرانس الحمر » في احتفال فخم على المشايخ تقديراً للولاء الذي أبدته قبيلة الجوازي وتعلقها بالباي ، وفي نفس الوقت قدم من طرابلس بتعليمات سرية « شاوش » (جاويش) من أبناء هذه القبيلة كان ملتحقاً منذ أمد بعيد بخدمة الباشا وكانت له أياد بيضاء على قبيلته في عـــدة مناسبات سابقة مما جعل له بينهم مكانة مرموقة » .

« عقد هذا الشاوش بعد مقدمه عـــدة اجتماعات مع الباي ومع حاكم

مصراته (الآغــا) مستشار الباي المقرب وأبرع الناس في حبك المؤامرات الدنيئة . سافر الجاويش الجازوي في نهايتهــا إلى برقة [خارج بنغازي] حاملاً هو نفسه دعوة الباي إلى مشايخ القبيلة وسائر أفرادهــا للمشاركة في حفل توزيع « البرانس الحمر » على شيوخهم ، وقد أضاف من عنده مكاشفاً لأهله بأن الباشا قد رفض في البداية طلب الباي ، غير أنه هو قد سعى لدى الباشا ووسط إليه حتى رضخ الباشا في النهاية لمطلب الباي وحتى حصل هو على الإذن بأن يقدم هو ذاته ليزف البشرى إلى أهله وعشيرته » .

« ويقال إن بعض الحذرين من أفراد القبيلة شككوا في الأمر وبثــوا شكوكهم بين قومهم وحذروا من احتمال المخادعة للإيقاع بهم والإنتقام منهم على تمردهم على سلطان الباشا ، غير أن زمام الأمر قد أفلت من أيدي الجميع ، وأصبح عليهم إما أن يجابهوا بالعصيان ، وإما الامتثال للدعوة في ثقة عمياء ، وقد أدى كرم الباي وإغراء البرنوس الأحمر إلى تغليب فكرة الطاعــة في أفكار الشيوخ ، ولهذا تقررت الاستجابة للدعوة والقدوم بالقبيلة إلى بنغازي في اليوم المحدد ؛ وقد أحدث هذا النبأ في المدينــة الكثير من المرح والحبور ذلك أن سكان هذه المدينة قد رأوا في هذه المصالحة ما يطمئن الناس ويحقق الوئام وينهي حالة الحرب في حفل فخم للسلام » .

« وقبيل غروب اليوم المضروب لمجيئهم غطت السهول المحيطة بالمدينــة مضارب خيام القبيلة وخيولها ورجالها . غير أن الجوازي وقــد وجدوا أنفسهم عند المدينة التي شهدت منــذ فترة وجيزة تمردهم على الباشا والتي تضم مبانيها اليوم القوة التي حملتهم على الخضوع والإستسلام قد تيقظت ضمائرهم ، واغتنم الحذرون منهم والذين كانوا قد عارضوا فكرة الاستجابة للدعوة من قبل هذه الحيرة لإثارة التخوف في أنفس المتفائلين مشيرين إلى فداحة الجرم ،

ومنذرين بسوق عشرات الأمثلة من التاريخ المحلي عن خدع مماثلة وخيانات الحكام برؤساء القبائل وأخذهم لهم على غرة . ولم يمكنهم إلا أن يقنعوا القبيلة التي بدأ الخوف يدب الى نفوس أفرادها بالبقاء خارج المدينة في انتظار الشيوخ الذين سيدخلون بمفردهم لإستلام الخلعة من البرانس الحمر » .

« وفي اليوم التالي الخامس من سبتمبر دخل تعساء شيوخ الجوازي مدينة بنغازي في حفل بهيج وكان عددهم ٤٥ شيخاً واتجهوا تواً الى القصر حيث وجدوا الباي نفسه في استقبالهم بوجه بشوش ضاحك وهو يداعب في كلمات ضاحكة هذا أو ذاك منهم وأدخلوا القصر ، وما أن دخلوا حتى قدّمت لهم القهوة وتفضل الباي نفسه باحتسائها معهم مما أدى الى إطمئنانهم وتخليهم عن الحذر والحيطة وإقبالهم على المصالحة بقلوب مفتوحة ، وفجأة تدافع الى القاعة من الحجرات المجاورة مماليك الباي وحراسه بسيوفهم المشهورة فانقضوا على هؤلاء التعساء ، فقتل من شيوخ الجوازي في الحال من حاول الدفاع عن نفسه واقتيد الباقون الى حجرة مجاورة ومنها أخرجوا واحداً واحداً حيث كان كل منهم يقتل صبراً ، والقلائل الذين تمكنوا في فوضى الانقضاض من الإفلات والفرار قتلوا رمياً بالرصاص من بنادق الجند ، أما من فر منهم الى أعالي القصر ليرمي بنفسه من نوافذه وشرفاته فقد تلقته سيوف وخناجر الحرس المحيط بالقصر لتنهي حياته في وحشية وفظاعة » .

« وقد أعقب هذا المشهد حركة عشوائية بين الجند عمت سائر المدينة ، وما أن وقعت المذبحة حتى سارع حاكم مصراته (الآغا) ، يأمر الجند بالتجمع في سرعة للإنقضاض على منتجعات الجوازي خارج المدينة . وقد أحدث خبب خيول الفرسان وركضها في شوارع المدينة الضيقة فوضى وتخبط الرقيق والجند الذين لم يدركوا لهذا التغير المفاجيء في الوضع سبباً ،

فاندفعوا على غير هـدى يجوبون شوارع البلدة وينشرون الرعب بين سكان المدينة الذين كانوا أبداً ضحية الاعتداءات وضحايا مثل هذه الحالات . لقد كانت حالة من الاضطراب والرعب والفزع أعجز عن وصفها » .

« وفي وسط هذه الاضطرابات الشاملة لجأت أنا الى القصر باعتباره المكان الوحيد لحمايتي ، وإنني لأشعر حتى الآن بالتصلب ينتاب مفاصلي والرعب يتملكني أمام أولئك الذين يتخبطون في بركة الدماء التي نزفت من أجسامهم وجراحهم . وكان الباي ممتطياً صهوة جواده ومشهراً سلاحه وهو واقف عند مدخل القصر وسط مماليكه ، يصيح كالمجنون آمراً قوة الفرسان بالتجمع والعودة الى النظام . وقد مكن هذا التأخير في تنظيم قوات الحملة الجوازي الذين علموا بطريقة ما، ولا أعرف ما هي، بأمر المذبحة من الفرار الى البراري والتوزع وسط السهول تاركين المضارب والنساء والأطفال . وما أن جمعت قوات الحملة حتى اندفع الباي بجواده في مقدمتها مهاجماً مضارب القبيلة حيث النساء والاطفال والشيوخ أو أولئك الذين أبطأوا في الفرار فعمل فيهم السيف وداست سنابك الخيل النساء والأطفال وخيم الموت الرهيب على المنطقة، وبعد أن قتل الاطفال والرجال تركت الحرية للجند يعبث بشرف وعفاف النساء حسب المعتاد » .

« وقد درت هذه المعركة على الباي ٤٠٠٠ رأس من الإبل و ١٠٠٠٠ رأس من الغنم و٦٠٠٠ رأس من البقر ، وكثيراً من الرقيق الى جانب الأموال الطائلة والمتاع الذي ترك أسلاباً في أيدي رجال الحملة يتقاسمونه وفق نظم الجيش وتقاليده » .

« بعد أيام قليلة من وقوع الجوازي فريسة الباي وضحية لسذاجة ثقتهم فيه، سقط تحت ضربات جلادي الباي أولئك الرهائن الاثنتان والعشرون الذين

أعادهم الباشا الى بنغازي بطريق البحر موهماً إياهم بأنهم سيطلق سراحهم في نفس يوم الاحتفال بتوزيع « البرانس الحمر » ، غير أن الذي تحقق من هذه الوعود كان غير ذلك إذ انهم اقتيدوا واحداً فواحداً الى حافة السفينة حيث ضربت أعناقهم ورمي بجثثهم الى البحر ، وكان من بين هذه الرهائن طفلان صغيران واحد عمره خمس سنوات وعمر الثاني سبع سنوات . وقد طوّح البحر بجثثهم على الشاطىء بالقرب من المدينة ولم يجرؤ واحد على دفنها فبقيت ملقاة تنهشها الكلاب » .

« وفي يوم المأساة كان بعض أفراد قبيلة الجوازي قد تجرأ بدخول المدينة يدفعه الفضول في نفس الوقت الذي كان الشيوخ فيه بالقصر ، فلما حدثت المأساة وسادت الفوضى وعم الاضطراب ويئس هؤلاء من اللحاق بذويهم خارج المدينة اختبأوا في ضريح ولي يدعى « الوحيشي Oecia » [سيدي علي الوحيشي ، معروف حتى الآن] ولما علم الباي وجنده بلجئهم لم يجرؤ على انتهاك حرمة الولي فاكتفى بمحاصرتهم وأمر بأن لا يقدّم اليهم طعام أو شراب موقناً أن هذا التدبير كفيل بالقضاء عليهم جوعاً وعطشاً ، أو بسيوف حراسه متى غادروا المكان . وشاع الخبر فاهتم السكان بأمرهم يرقبونهم في صمت وإشفاق . وفي اليوم الثالث نبع من أرض الضريح الماء واكتست أرضية حجرة الضريح بالتمور ومواد أخرى وتدافعت جموع السكان تشهد الكرامة وتقدس الولي الى القمة في ذات الوقت الذي لحق فيه بالباي اليأس والخزي والقنوط » .

« وعدنا بعد أيام من هذا الحادث الى طرابلس أنا حزين ومنفعل من تلك المأساة الدامية التي كنت لها شاهد عيان والباي غير راض لعدم تمكنه من إفناء القبيلة بكاملها وإن سرّى عنه ما حصل عليه من غنائم وأموال » .

وهذه القصة الأخيرة قصة الكرامة سمعتها طفلاً من بعض العجائز المسنات كما سمعتها من بعض الشيوخ وإن بتعديل طفيف هو أن الماء لم يتفجر وإنما كان هناك إناء كبير « زيد » امتلأ على حين غفلة بالماء ، وأن التمر لم يغطّ أرض الحجرة ، ولكنه وجد في طبق فوق صندوق الضريح . وقد يشك الكثيرون في صحة الحادثة ، وقد يجزم آخرون باختلاقها ، غير أن ورودها على لسان شاهد عيان ، ومسيحي ، ومثقف ، وغير مؤمن بكرامات أولياء المسلمين ، على هذا الشكل ، ودون أن يشكك أو يشك فيها ومن غير أن يحاول تعليلها ، مما يوحي بتسليمه الكامل بصحة وقائعها ، يعد من الأمور المحيرة فعلاً ، لأن روايته لها تزيد الرواية الشعبية تأكيداً ودعماً لا نملك أمامه غير إمساك القلم عن إبداء الرأي وعن التعليل المنطقي وإن كان هذا ممكناً وميسوراً وفي شكل منطقي مقبول .

وقد تلت حرب الجوازي والعلايا هذه حرب أخرى من نوعها عرفت بحرب زغبة أجليت فيها قبائل عرب الغرب إلى ما وراء المقطاع (منطقة سرت) تلاه توسع آخر للمغاربة في منطقة الخليج امتدت به منازل هذه القبيلة غرباً حتى وادي العقر . وبعد حرب زغبة هذه حدث تزحزح في ممتلكات قبائل الجبارنة أصبحت به قبيلة العواقير وحدها هي المحيطة أراضيها بمدينة بنغازي ، إذ ان المغاربة قد تحولوا إلى المنطقة الواقعة خلف منطقة سيدي حمد المقرون أي نفس الحدود الحالية لمناطق سكنى القبيلتين حالياً بينما نزحت قبيلة الجوازي عن برقة بعد مذبحة بنغازي نهائياً إلى مصر ، أللهم إلا بعض عائلات محدودة العدد انصهرت في إحدى القبيلتين أو اندمجت معها وتعد اليوم منها(٦٦) .

ولا يذكر لنا التاريخ بعد هذه الحادثة أية أنباء أخرى ذات بال تتعلق

بهذه المدينة سوى أن حاكم المدينة القرمانلي في سنة ١٨٢٢ كان اسمه يوسف باي وأنه كان صهراً ليوسف باشا ، وسوى أن محمد الشيلابي بيت المال وزير يوسف باشا الأول ومستشاره قد استقر بها في أواخر عهد هذا الداهية المعمِّر ليعمل على جمع الضرائب والأعشار اللازمة لدفع ديون هذه الأسرة والتي أتت على حكم القرمانليين في نهاية الأمر ، وغير أن عصمان (عثمان) باي ابن يوسف باشا كان آخر حاكم لها باسم هذه الأسرة وأنه استمر في حكمه لها حتى عهد ثاني والٍ عثماني للبلاد (محمد رئيف باشا) وأنه غادرها هارباً إلى مالطة بعد أن سيِّرت ضده حملة عسكرية من طرابلس[٦٧].

١٠ – مدينة بنغازي في العهد القرمانلي :

ولا نعرف شيئاً ذا بال عن وضع مدينة بنغازي الاجتماعي الاقتصادي خلال أوائل العهد القرمانلي ، أما في أواخره فإن ما كتبه باولو ديلا شيلا ، وما كتبه الأخوان بيشي ، وما أشارت اليه رسائل يوسف باشا القرمانلي الى وزيره الأول الحاج محمد الشيلابي بيت المال ورسائل هذا اليه ، قد قدمت لنا صورة لا تخلو من بعض الوضوح للمدينة فيما بين سنتي ١٨١٧ و ١٨٣٥ للميلاد ، وهو ما يمكننا إجماله في الفقرات التالية :

أ – **المدينة عاصمة الاقليم :** وقد ذكر ديلا شيلا صراحة بأن مدينة بنغازي كانت في عهد زيارته لها (١٨١٧) عاصمة إدارية للإقليم ، ومقراً للحاكم القرمانلي الذي يحمل رتبة « باي » ، وهذه هي أول مرة ترد فيها إشارة صريحة الى تزعُّم مدينة بنغازي لمدن برقة ، ولذا فإنه يمكننا اعتبار بداية القرن التاسع عشر تاريخاً لاتخاذها عاصمة لبرقة في العصر الحديث .

ب – **تعداد سكانها :** والذي يبدو من إشارة عند الأخوين بيشي هو أن

سكان مدينة بنغازي كانوا في معظمهم غير مستقرين استقراراً نهائياً بها وأنهم كانوا يتكاثرون بها أو يقل عددهم تبعاً للوضع السياسي وللرخاء والجدب الذي تتعرض له ، وبهذا يمكن تعليل التباين الكبير بين هؤلاء وديلا شيلا في تقدير سكانها إذ نجده عند الأخـــوين بيشي لا يتعدى الألفي نسمة بينما هو عند ديلا شيلا يربو على خمسة آلاف نسمة من السكان ، علماً بأن التقدير الأول كان سنة ١٨٢١ والتقدير الثاني يسبقه زمناً بأربع سنوات (١٨١٧) .

وإشارة أخرى نجدها عند ديلا شيلا لا تقل دلالة عما أشار إليه الأخوان بيشي فقد ذكر أن إحدى القبائل البدوية الضاربة في المنطقة قد هاجمت سكانها الأوائل وطردتهم واتخذت مساكنهم ، وكانت الساكنة لها يوم مجيء الحملة التي رافقها إليها .

ومعظم سكانها فيما يرويه ديلا شيلا وبيشي معاً هم من اليهود وبعض السودان ، ولا يتعارض الإثنان في أن اليهود كانوا الطبقة الذليلة المهـانة التي تمتهن أحط الأعمال والمهن في نظر المجتمع المحلي . ويذهب ديلا شيلا إلى حد القول بأن اليهودي ما كان له أن يسكن في منزل مستقل لوحده بل عليه أن يحتمي بإحدى أسر السكان العرب ويشاطرها السكن مقابل إتاوة لحمايته تبلغ إلى حد الإضطهاد . غير أن موقع المدينة الجغرافي الممتاز وجشع اليهودي وحبه للربح الوفير ورضاه بأية حالة من الذل والهوان في مقابل جمع المال ، جعله يرضى بهذه الحياة الذليلة ويحرص على سكنى المدينة .

ج – **أسلوب الحكم وفساده :** ويؤكد ديلا شيلا أن الصلة الوحيدة بـــين الحاكم والمحكوم وبين المحكوم والحاكم لا تتعدى صلة السيادة الإسمية والضرائب والمكوس التي كان الباي يتفنن وبعبقرية في فرضها وتجميعها وتنويعهـــا من مكوس غير منتظمة الى إتاوات على الرأس الى ضرائب على الممتلكات والأشجار

والحيوانات الى العشر (الزكاة) الى ديون الدولة . فاذا مـــا جمعت وانتهى تحصيلها انتفت الصلة كلية بين الحاكم والمحكوم والمحكوم والحاكم، ويضرب على انتفاء الصلة بينهما مثلاً بأن الباي لم يحرك ساكنـــاً ولا قام بأي مجهود لرد اعتداءات القبيلة المتسلطة على السكان الأوائل الذين كانوا قد دفعوا قبل الكارثة التي حلت بهم بقليـــل ، وأن الباشا (يوسف القرمانلي) سر كثيراً وفاخر بهذه المدينة لما سارع سكانها الجدد بدفع الضرائب السنوية للباي للمرة الثانية في بحر العام .

ومن رسائل يوسف باشا الى الشيلابي ، ومن الوثائق التي نشرها عمر علي بن اسماعيل في ملحق كتابه « انهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا » نجد أن الباشا قد أثقل كاهل رعيته في هذه المدينة وفي غيرها بالديون المستحقة من من الأجانب على الخزانة الى حد غير محتمل .

ومن زائد القول التعرض الى ذكر الإهمال الفظيع في نواحي الإصلاح بعد ما تقدم ذكره من أنباء ومعلومات سياسية واجتماعية وإدارية فإن أياً منها كافٍ لوحده دليلاً على سوء الحكم وفساده .

د — **الوضع الاقتصادي :** ومن الصعب تصديق وصف بعض الرحالة لهذه المدينة بالرخاء والازدهار في هذا الوضع السياسي الإداري الإجتماعي المضطرب، ومع ذلك فإن كونها السوق الأهم في جميع الإقليم والمرفأ الشهير في المنطقة ، قد جعلها تتمتع بوضع اقتصادي متميز نسبياً عن بقيـــة المنطقة المحيطة بها والممتدة غرباً حتى طرابلس وشرقاً حتى الإسكندرية وجنوباً حتى أواسط القارة . فقد جعلهـا هذا نهاية طرق قوافل السودان، كان ريش النعام وسن الفيل وغير ذلك من صادرات أواسط القارة أهم ما تصدره (ترانزيت) كما جعلها مقصد أفراد القبائل بمـــا لديهم من حيوانات ومنتجاتها من الأصواف

والجلود والسمن ومن الحبوب ليبتاعوا بثمنهـــا ما يحتاجونه من ملبوسات وأدوات وأسلحة .

كانت مالطة من أهم الاسواق التي تستورد الأبقار لا لسد حاجة الجزيرة من اللحوم بل ولتزويد السفن بحاجتها من اللحوم في رحلاتها الطويلة .

ويذكر كل من ديلاشيلا والأخوين بيشي أن اليهود قد تمكنوا من احتكار معظم صنوف التجارة مع الخارج تصديراً واستيراداً مقابل مبالغ يتقاضاها الباشا منهم سنوياً . ولهذا فإن التجارة في هذه المدينة كانت نشطة جداًمنذ أن نشأت نشأتها الحديثة وإن كان لأهلها الوطنيين نشاط ملحوظ في الزراعة ولا سيما الموسمي منها (الشعير — القمح)، وفي تربية الحيوان (الغنم —البقر).

ﻫ — مبانيها وعمرانها : وقـــد وصف كل من ديلاشيلا [٦٨] والأخوين بيشي [٦٩] مباني مدينة بنغازي في أواخر العهد القرمانلي فاتفقوا على أن مبانيها كانت في مجموعها فقيرة المظهر بسيطة الهندسة ، لا تعدو أن تكون من دور واحد شيِّد بالحجارة والطين وسقف بمواد محلية لا تمنـــع تسرب مياه الأمطار الشتوية الغزيرة الى داخلها . أما شوارعها فضيقة ، وغير مرصوفة مما يجعلها مناقع للوحل شتاء ، ومثاراً للغبار في أيام الصيف والجفاف . وحتى القصر الحكومي الذي كان مقراً للباي ولأسرته وللحامية الصغيرة ، فـلم يكن يختلف من حيث مواد وهندسة بنائه عن بقية مساكن البلدة ، ولا غرو في هذا جميعه ، فان المدينة في أصل نشأتها الحديثة كانت أهلية ، والادارة المحلية فيها عاجزة بالفعل عن التصرف الحكيم مما جعلها تقصِّر بالضرورة عن القيام بأي نشاط عمراني ذي بال .

وفي كتاب دي أغستيني عن سكان برقة نجد بعض إشارات الى تواريخ تقريبية يعيد إليها نشأة المساجد والزوايا وأضرحة الأولياء ، وقد مكنتنا من

إرجاع بعض هذه المباني العامة الى ما قبل نهاية العهد القرمانلي نذكرها فيما يلي :

أ – المساجد : جامع الشابي[٧٠]– جامع القاضي[٧١]– جامع دردرة[٧٢] جامع الدراوي [٧٣] وقد ذكر أنها قديمة العهد جداً ، ولم يتمكن من إرجاعها الى تاريخ تقريبي . ثم الجامع العتيق [٧٤] أعاده الى سنة ١٥٢٠ للميلاد ، وجامع العقيب [٧٥] أعاده الى سنة ١٧٢٠ م . وجامع أبي قلاز [٧٦] وقد أعاده الى سنة ١٧٤٠ م.وجامع الوحيشي [٧٧] وقد أرجعه الى سنة ١٧٦٠م. وجامع دريزه [٧٨] وقد أعاده الى سنة ١٧٧٠ م . وجامع المسطاري [٧٩] وقد أعاده الى سنة ١٨٠٠ م. وأخيراً جامع الحدادة[٨٠] الذي أرجعه الى سنة ١٨٢٠ للميلاد .

ب – الزوايا الصوفية : أما من الزوايا الصوفية التي ذكرها فلم يرجع الى ما قبل نهاية العهد القرمانلي سوى زاوية سيدي ابن عيسى القبلية [٨١] إذ أرجعها الى حوالي سنة ١٧٧٠ للميلاد .

جـ – الأضرحة : وأعاد الى زمن قديم ولكنه غير محدد كلاً من الأضرحة التالية : سيدي الشابي[٨٢]، سيدي غازي[٨٣]، سيدي خريبيش[٨٤]، سيدي غريبيل[٨٥]، سيدي سعيد[٨٦]، سيدي داود[٨٧]، سيدي بالخير[٨٨]، سيدي عبدالجليل[٨٩]، سيدي حسين[٩٠]، سيدي بوسديره[٩١]، ثم أعاد سيدي الشريف[٩٢] ، الى سنة ١٥٧٠ م. وسيدي سالم[٩٣] الى سنة ١٦٢٠ م. وسيدي الدراوي [٩٤] الى سنة ١٧٢٠ م. وسيدي المسطاري الى سنة ١٧٥٠ م. وسيدي علي الوحيشي الى سنة ١٧٧٠م. وسيدي مومن الى سنة ١٨٢٠ للميلاد.

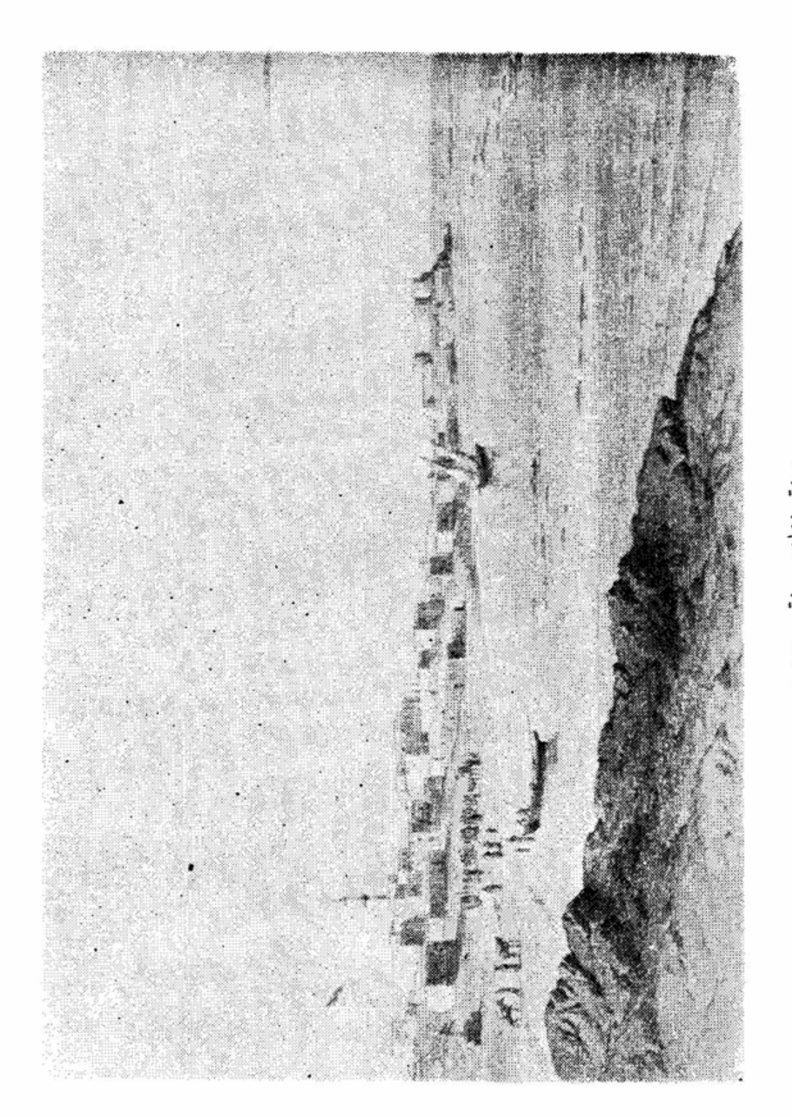
د – وسائل الدفاع عن المدينة : لم يفكر الأتراك طوال عهدهم الأول ، ولا القرمانليون من بعدهم في إقامة سور من أي نوع يحيط بمدينة بنغازي أو

حتى بأي جزء أو جانب منها ، الأمر الذي جعلها معرضة للغزو البحري وللغارات البرية على السواء ، وولّـد في أهلها خوفاً مستمراً من تلك السفن التي كانت تبدو عند الأفق على غير انتظار. وقد أورد الأخوان بيشي صورة حية لهذا الخوف من الغزو البحري في كتابهما الجغرافي القيم(٩٥). وذكرا أن المدافع التسعة التي نصبت فوق قصر الحكومة بها كانت موجهة نحو اليابسة ربما لحماية المدينة من الغارات الداخلية التي تتهددهـا باستمرار ، والتي يقولون إن استخدامها سيقوض أركان القصر الذي لا يمكن لمبانيه أن تتحمل الهزات التي يحدثها القصف بها .

هـ - **المياه والمجاري** : لم تعرف بنغازي أي اهتمام من جانب الدولة طوال العهد التركي القرمانلي بمشكلة تزويدها بمياه الشرب من خارجها ، وإنما كانت تعتمد على مياه طبقة ما تحت السطح بها ، وعلى ما تختزنه من ميـاه أمطار الشتاء في المواجل (صهاريج) التي كان المقتدرون ينشئونها في فناء المسكن وفي صحون بعض المساجد . ولم تعرف المدينة أيضاً أي نوع من هندسة المجاري وإنما كانت الطريقة المتبعة هي حفر خزان أرضي داخل أو خـارج المبنى يستفرغ من محتوياته كلما لزم الأمر ليستغل سماداً من قبل المزارعين في المزارع المحيطة بالمدينة أو القريبة منها . ومع ذلك فلم توصف المدينة ممن زارها وكتب عنها بغير النظافة أبداً .

١١ - العهد العثماني الثاني :

سقطت حكومـة القرمانليين في طرابلس سنة ١٨٣٥ بعد أن فشل علي باي القرمانلي ، الذي تولى الحكم بعد تنازل أبيه يوسف باشا عن الحكم ، في السيطرة على الثورة والثوار ، وبعد أن تدخلت الدولة العثمانية بأسطولها لتعيد



مدينة بنغازي سنة ١٨٦٠

الإقليم إلى سلطانها المباشر من جديد . غير أن الحكم القرمانلي لم ينته في برقة في ذات السنة ، إذ استمر عصيان (عثمان) باي القرمانلي حاكماً على بنغازي حتى زمن الحاكم العثماني الثاني محمد رئيف باشا الذي سيَّر ضده حملة أجبرته على التخلي عن البلاد فلجأ الى مالطة (سنة ١٨٣٦)[٩٦].

ولعل اخضاعها للحكم العثماني المباشر قد تم على يدي طاهر باشا الذي قدم بأسطول بحري سنة ١٨٣٦م. لإخضاع مصراته في يونيه من نفس السنة وقبض على عثمان آغا حاكمها المتمرد على سلطان طرابلس والخلافة العثمانية ثم تولى ولايتها كثالث وال عثماني[٩٧].

وبقيت بنغازي كعاصمة لبرقة ، ومقراً للحاكم العثماني الذي كان تابعاً لباشا طرابلس يديرها بنفس طريقة الحكم القرمانلي العتيق حتى سنة ١٨٣٨م. أي لثلاث سنوات فقط ثم فصلت عنها وأصبحت ولاية قائمة بذاتها تتبع الأستانة مباشرة ، وعين لها والٍ باسم حليم باشا فاتخذ هو الآخر مقر إدارته ببنغازي باعتبارها عاصمة للإقليم ، وسار من بعده على اعتبارها كذلك حتى نهاية العهد العثماني في البلاد[٩٨].

ولا نعلم من تاريخ هذه الفترة ما يستحق التسجيل سوى مقدم الاستاذ الإمام السيد محمد بن علي السنوسي إلى برقة ونشر دعوته بها ، فقد حدثنا المؤرخون عنه أنه لما عاد إلى طرابلس من قابس أركب أهله وإخوانه البحر إلى بنغازي ثم توجه هو إليها مع بقية الإخوان براً فوصلها قبل حلول شهر رمضان من سنة ١٢٥٨ وأقام بها ذلك الشهر (٦ اكتوبر – ١٠ نوفمبر ١٨٤٢) ثم انتقل منها إلى البيضاء[١٠٠].

وكان من بين ولاة برقة قبل سنة ١٨٦٠ أحمد عزت باشا الذي أصبح والياً على طرابلس وقد ارتكب هذا الوالي من الفظائع في إخضاع الأهلين ما

أكسبه شهرة وأهّله لمنصب ولاية طرابلس حتى يخضع سكانها للحاكم العثماني . وقد حاول هذا الوالي القضاء على تجارة الرقيق في البلاد[99].

وفي الفترة التي اصبح فيها هذا والياً على طرابلس لم يتخلَّ فيما يبدو عن سلطانه على بنغازي كذلك حتى سنة ١٨٦٣ م. وفي هذه السنة تم فصل برقة عن طرابلس إدارياً وجعلت متصرفية قائمة بذاتها باسم « بنغازي متصرفليك » ألحقت بالباب العالي مباشرة. وكان أول حاكم عثماني أرسل لها بعد هذا التاريخ هو خليل باشا الذي حكمها مدة خمس سنوات من سنة ١٨٦٣ حتى سنة ١٨٦٨م.

وكان خليل باشا الذي عيِّن من الباب العالي مباشرة — وفيما يبدو من أعماله الجليلة — رجلاً كفؤاً لمسؤولياته ، حازماً في حكمه ،حكيماً في إدارته ، منظماً في تصرفاته وأفكاره ، فإليه يرجع الفضل الأول في إعطاء الإدارة العثمانية صبغة مدنية حضارية أبعدتها بعض الشيء عن ذلك النظام البدائي الذي سارت عليه في عهدهم الأول ، والذي ورثه القرمانليون ، فهو الذي قام فيما يرويه دي أغستيني[100] بوضع أسس التقسيمات الإدارية للمتصرفية فقسمها إلى قائمقاميات ومديريات فحدد بهذا التقسيم مراكز كبريات القبائل ومناطق سكناها ، ونظم جباية الضرائب بطريقة إنسانية وقانونية بعد أن ألغى تلك الامتيازات التي كانت الحكومة القرمانلية قد أولت بها بعض الناس مقابل خدمات أدوها لحكومتهم أو أشخاصهم ، وأخضع جميع القبائل المتمردة لسلطان العثمانيين وهو الذي نظم الادارة المركزية للمتصرفية ، وحدد اختصاصات الحاكم ومسؤولياته ، وأوجد إلى جانبه مجلساً محلياً للإدارة يشير عليه بما يراه ، وهو الذي قسم أحياء مدينة بنغازي إلى اثنتي عشرة محلة .

ولم يكن عهد خليل باشا غير صحوة نائم إذ سرعان ما عادت الإدارة العثمانية المباشرة الى تخبطها وعدم استقرارها في شؤون هذه البلاد ، إذ توالى على

إدارتها العسكرية عدد من الولاة لم تزد مدة حكم أي منهم عن العام الواحد بكثير : فقد تولاها من بعد خليل باشا مختار باشا من سنة ١٨٦٨ حتى السنة التالية (١٨٦٩) ، ثم خلفه محمد عارف باشا من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٨٧٠ م. وجاء بعده برتاو باشا من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٧١ ، فشمسي باشا من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٧٢ . وفي عهد هذا الحاكم عادت البلاد فألحقت إدارياً بطرابلس من جديد، غير أن هذه الخطوة لم يرض الباب العالي عنها ربما لخوفه من نتائجها السياسية فسارع بفصله ، وبتعيين كرد عبدالله باشا سنة ١٨٧٢ م. وبفصل متصرفية بنغازي عن طرابلس ورفعها الى ولاية ، وبربطها من جديد بالأستانة مباشرة . فصاحب هذا نوع من إطالة مدة الحاكم الى أكثر من السنة الواحدة فقد عيِّن علي كالي باشا خلفاً لكرد عبدالله باشا سنة ١٨٧٣ فاستمر حاكماً لها حتى سنة ١٨٧٦ ، ثم عينت لها الأستانة علي باشا الحلبي فبقي بها من سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٧٨ ، ثم أعادت اليها علي كالي باشا للمرة الثانية فحكمها من سنة ١٨٧٨ حتى سنة ١٨٨٢ ، وخلفه رشيد باشا من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٥ م.

وقد وصف دي أغستيني هذا الوالي التركي فقال عنه إنه قد اشتهر بالقدرة وبالحيوية والحزم وحسن التصرف والعدل مع قوة الشخصية ، وإليه يرجع الفضل في إتمام ما كان خليل باشا قد بدأه من تنظيم إداري للمدينة والإقليم كما يرجع إليه الفضل في إقامة عديد من الأعمال العمرانية التي ترجع الى العهد العثماني الثاني . وقد عاد هذا الوالي الى حكم برقة للمرة الثانية واستقر بها حتى توفي على ما سيأتي بعد قليل .

وخلف رشيد باشا والٍ آخر هو موسى كاضم (كازم) باشا من سنة ١٨٨٥ حتى سنة ١٨٨٧ ثم خلفه حسن تحسين باشا من سنة ١٨٨٧ حتى سنة

١٨٨٩ وفي عهد هذا الوالي أرجعت الولاية الى متصرفية ولكن مع استمرار تبعيتها للباب العالي وأعيد اليها رشيد باشا للمرة الثانية فبقي بها من سنة ١٨٨٩ حتى وفاته سنة ١٨٩٣ م. وقد جيء به هذه المرة ليعيد إليها أمنها واستقرارها الذي اضطرب فيما يبدو بسبب سوء إدارة خليفتيه موسى كاضم وحسن تحسين ، فقام بالفعل بتسيير حملات عسكرية للقضاء على تمرد بعض القبائل فأعاد الى الحكم هيبته التي حاول تدعيمها ببناء معسكر كبير للجيش في البركة « قصر البركة » (معسكر البركة الحالي) ليمكن الحامية التركية من الاستقرار الدائم فيه وإن لم يتم إنشاء هذا القصر إلا في عهد خليفته طاهر باشا . كما أعاد بناء مسجد أبي قلاز الذي يعرف حالياً بجامع عصمان كما يعرف كذلك بجامع رشيد وبه قبره .

وخلف رشيد باشا في حكم برقة طاهر باشا من سنة ١٨٩٣ حتى سنة ١٩٠٤ فامتد عهده مدة اثنتي عشرة سنة وهذه أطول مدة قضاها حاكم تركي في كل العهد العثماني الثاني حاكماً على برقة . وكان طاهر باشا رجلاً عفاً حليماً حاول أن يعالج أمور هذه المنطقة باللين والحكمة لورعه وتقواه الذي يبدو في عنايته بترميم المساجد والأضرحة ، ولم يخل عهده من محاولات إصلاح في بعض فروع الإدارة المحلية ، وفي عهده أيضاً تم إنشاء أول شبكة تلغرافية في البلاد .

وخلف طاهر باشا على حكم هذه البلاد زهدي باشا سنة واحدة ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ وحلمي باشا لسنة أخرى ١٩٠٥ ــ ١٩٠٦ وفي عهد هذا الأخير فقط أنهي عهد الادارة العثمانية العسكري وأصبح فيها الحكم مدنياً ، غير أن عهد الادارة المدنية لم يمتد سوى خمسة أعوام فقط تناوب فيها حكم متصرفية بنغازي أربعة حكام هم: عمر عالي بك ١٩٠٦ ــ ١٩٠٨ وغالب بن خلدون بك

١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ م. وفي عهد هذا الحاكم تم انقلاب جماعة الإتحاد والترقي في الأستانة ، ثم جـودت بك (١٩٠٩ ـ ١٩١٠) وأخيراً مراد فـؤاد بك (١٩١٠ ـ ١٩١١) وهو الذي بدأ في عهده الغزو الإيطالي للبـلاد وانتهى به العهد العثماني في البلاد .

١٢ ـ مدينة بنغازي في العهد العثماني الثاني :

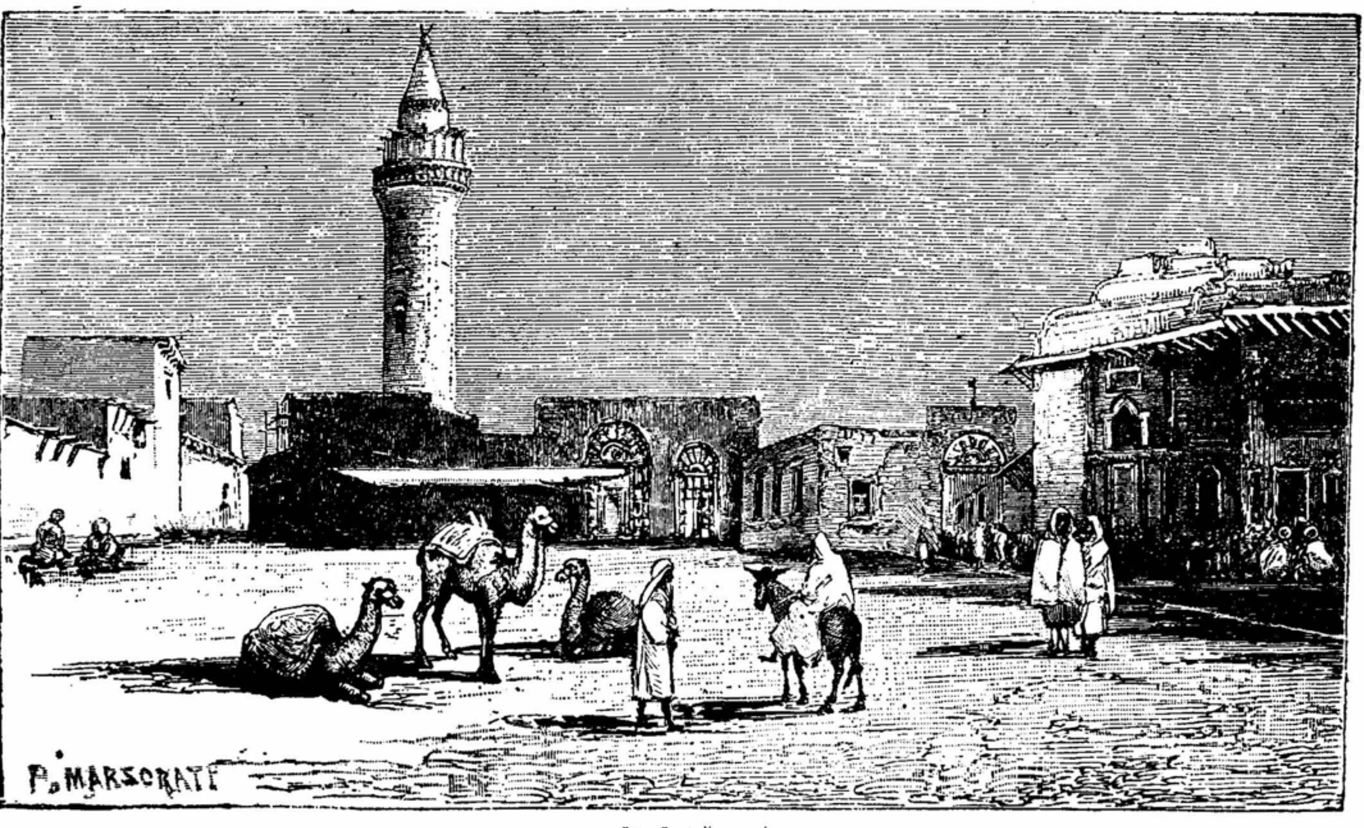
لم يكن حظ مدينة بنغازي في العهد العثماني الثاني بخير من حظها في العهدين (التركي الأول والقرمانلي) السابقين ، فقد كان فساد الحكم وعقم الإدارة ، وضعف وجهل السلطات هو الطابع المميز للإدارة التركية في سائر أنحاء البلاد العربية . ولسنا هنا في حاجة الى إيراد ما أثبته رحالة الغرب ومؤرخو العرب الذين عاصروهم وزاروا المدينة خلاله من شهادات صريحة تدمغه وتدينه ، فقد أصبح هذا الحكم على العصر من البديهيات التاريخية التي لا يناقش اليوم أحد فيها .

وإذا سلمنا بأن لكل قاعدة عامة شواذ ، فإن ما قام به كل من خليل باشا (١٨٦٣ ـ ١٨٦٨) ، ورشيد باشـا (١٨٨٢ ـ ١٨٨٥ ثم ١٨٨٩ ـ ١٨٩٣) وطاهر باشا (١٨٩٣ ـ ١٩٠٤) من إصلاحات في هذه المدينة ، وفي بقية البلاد يمكن اعتباره شذوذاً في أسلوب الحكم العثماني ، مرده الأول والأخير الى عاملين اثنين : الأول صفات ذاتية في شخصياتهم ، والثاني طول فترة بقائهم حكاماً . وليس في هذين ما يدعو الى احتمال الصلاح في السلطة المركزية أو الى رغبة الباب العالي في الإصلاح . ولذلك فلا يجب أن نتوقـع أو حتى أن نتصور ونحن نراجع أحداث التاريخ في هذه الفترة أننا سنعثر على صورة مشرقة له ليس بالنسبة لمدينة بنغازي وحدها بل بالنسبة لسائر الإقليم ،

واذا كانت مدينة بنغازي قد اكتسبت مكانة خاصة بين مدن الإقليم ، فازداد عمرانها وتكاثر سكانها وعمرت أسواقها وراجت بضائعها خلال هذا العهد فإن مرد هذا الى ذلك الموقع الجغرافي الممتاز لهذه المدينة التي تمكنت بواسطته فقط من مقاومة الزمن ومصارعة الفناء ، وعادت ثلاث مرات للحياة بعد أن كان يلحق بها الدمار في كل مرة حتى التلاشي ، والى تلك الدعوة الإصلاحية التي نشأت منذ بدايته وقويت واكتملت قبل نهايته ، فقد قدمت « الدعوة السنوسية » في قرن واحد من الزمان ما عجزت الإدارة التركية عنه في مدى الأربعة قروناً التي حكمت فيها هذه البلاد ، والى هذه الدعوة يعود الفضل في استتباب الأمن في ربوع البلاد ، وفي رفع المستوى الثقافي الحضاري للسكان مما أدى الى قليل من الرفاهية ومن الإزدهار الاقتصادي المحدود .

وقد كان شيخ (مقدم) الزاوية في بنغازي سيدي عبد الله بن زناد المريني (التواتي) — فيما يرويه محمد فؤاد شكري — هو صاحب الكلمة العليا سنة ١٨٨٤ ، وليس للمتصرف (الباشا) التركي بجانبه أي نفوذ أو سلطان . بل إن كبار موظفي الترك وحكامهم صار لا يعنيهم في هذه الآونة سوى إرضاء السنوسيين ، وكسب مودتهم وصداقتهم حتى أن الوالي علي كالي باشا كان يعتبر نفسه « أولاً وقبل كل شيء خادماً للسيد السنوسي ، ومن أتباعه ، ثم موظفاً وحاكماً عثمانياً بعد ذلك[١٠٢] ».

فإلى هذه الطريقة ، وإلى هؤلاء العلماء وغيرهم ذوي المكانة المرموقة من أبناء البلاد ، والى غيرهم من أعيانها وكبرائها أمثال الحاج أحمد المهدوي والحاج منصور الكيخيا وسليمان منينة واحمد الجهاني وغيرهم يرجع الفضل الأول والأخير في هذا الدفع الكبير الذي تحقق لها في هذا العهد بالذات .



ميدان البلدية سنة ١٨٨١

أ – المدينة كعاصمة الاقليم :

وطوال هذا العهد العثماني الثاني كانت مدينة بنغازي عاصمة للإقليم ومقراً لحكومة الولاية فيها سواء أثنـاء تبعيتها لطرابلس أو للأستانة مباشرة وكمتصرفية وكولاية . فيها يقطن الباشا ورجال إدارته ومجلس الولاية المحلي وبها مركز قيادة الحامية العثمانية ، وبها ترتبط إدارة القائمقاميات الأربـع : درنه – المرج – اجدابية – جالو ، واليها تؤول كافة الدخول الماليـة من ضرائب وأعشار .

ب – التنظيم الاداري للاقليم :

يقف على رأس الجهاز الإداري – العسكري في المتصرفية حـاكم عثماني (غير ليبي) برتبة باشا أو بك يعينه الباب العالي ويعفيه من منصبه وفق رغبات كبار المسؤولين في الأستانة . ويعاون هـذا الوالي أو المتصرف في القيام بمسؤولياته ، ويشاركه فيها مجلس إدارة محلي يتكون منه رئيساً (١٠٣) ومن رئيس الحسابات ومدير التحريرات والمفتي والقاضي وهؤلاء أعضاء بحكم المنصب ثم من أربعة من الأعيان يعينون لمـدة أربعة أعوام ، يفترض أنهم ممثلون لجميع سكان الولاية أو المتصرفية (١٠٤) .

وباستثناء شخص القائمقام الذي يعين من الأستانة مباشرة مـع خضوعه إدارياً وعسكرياً للمتصرف ولمجلس الادارة ، فان جميع الموظفين المحليين يعيّنهم المتصرف الذي يدير بجهازه كافة شؤون البلاد الإداريـة والمالية والعسكرية وفق القوانين العامة وفي حدودها (١٠٥) .

وهذا التنظيم الإداري الذي وضع أسسه الأولى خليل باشا وأتمـه رشيد باشا وإن كان من الوجهة النظرية مقبولاً وحديثاً في تسلسله الإداري ، وفي

مظهره الديمقراطي يشرك أعيان البلاد في إدارتها ، إلا أنه من الناحية العملية ظل عاجزاً عن الاضطلاع بمسؤولياته الأساسية فـلا الأمن متوفر ، ولا الضرائب تجبى في عدالة ، وما يجبى منها لا يدخل خزينة الدولة بكامله . الأمر الذي أوجد في نفوس الشعب نوعاً من العداء المشوب بالخوف وعدم الإطمئنان ضد الحكومة وموظفيها وخاصة غير الليبيين منهم .

ج – التقسيم الاداري لمدينة بنغازي :

سبق أن ذكرنا أن خليل باشا قد قسم مدينة بنغازي الى اثنتي عشرة محلة وجعل على رأس كل منها اثنين من الوطنيين ينتخبون أو يختارون اختياراً من السكان يسمى أحدهما بالمختار ويتولى رعاية الشؤون الادارية – القانونية للسلطة في المحلة ، ويسمى الآخر بالإمام ويرعى الشؤون الدينية والذاتية والمدنية لسكان المحلة . ويخضعان معاً لرئيس البلدية ويسمى أحياناً بشيخ البلاد ، وهو الذي نعرفه حديثاً باسم« عميد البلدية » الذي يرعى شؤون عامة سكان المدينة(١٠٦) ويعاونه مجلس بلدي ينتخب أعضاؤه من بين السكان(١٠٧).

وهذه المحلات التي قسمت إليها مدينة بنغازي هي(١٠٨):

١ – محلة سيدي خريبيش .
٢ – « « الشريف .
٣ – « « بالخير .
٤ – « « ابن عيسى .
٥ – « « الدراوي .
٦ – « « سالم .
٧ – « « الشابي .

٨ – محلة سيدي علي الوحيشي .

٩ – « « غريبيل .

١٠– « « حسين .

١١– « « داود .

١٢– « الزيريعية ثم فيما بعد محلة الصابري .

ونلحظ على التسميات التي أطلقت منذ البداية على الأقسام الإثني عشر التي قسمت إليها مدينة بنغازي أنها قد تحاشت أسماء العائلات والبطون والقبائل التي ينتسب إليها السكان في أصلهم ، كما تحاشت أسماء رؤساء هذه المجموعات بلجوئها إلى الأولياء أي الأضرحة الأقدم عهداً في تلك الأقسام ، اللهم إلا ابن عيسى فقد نسبت إلى زاوية هذا القطب الصوفي صاحب الطريقة العيسوية الجزولية الشاذلية ، ومحلة الصابري (الزيريعية) التي نسبت الى المرتفع البارز من الأرض الذي يحمل هذه التسمية ، وما ذلك إلا لأن المحلتين قد انعدم فيهما الضريح الذي ينسبون إليه . فهل كانت هذه الظاهرة صدفة ؟ قد يكون الأمر كذلك غير أننا نلمس في هذا الإتجاه قصداً مسبقاً للخروج بالتقسيم عن الروح العنصرية والحزبية القبلية التي سيطرت على جو المدينة لعدة قرون ، كما سبق ورأينا في استعراضنا لتاريخها الحديث. ذلك لأننا نلمسه حتى في التقسيم الاداري للقائمقاميات في الإقليم ، فما من واحدة من مديرياتها نسبت الى القبيلة أو الى بطن منها وانما حملت جميعها أسماء المنطقة التي اعتبرت مركزاً للمديرية ، وذلك على الرغم من أن تقسيمات الاتراك الادارية كانت على أساس قبلي. ونحن نعلم أن واضع أساس التنظيمين وال واحد هو خليل باشا، وإن كان قد أدخل بعض التعديل على هذا التنظيم في عهد رشيد باشا . ويحدثنا الأستاذ محمد محمد بن عامر (المرحوم) في مقاله عن الحاج أحمد المهدوي

(مجلة ليبيا سنة ٢ عدد ١٠ ص ٤ – ٦) عن نظـــام البلدية (المدينة) الثاني الذي حصل في عهد رشيد باشا فيقول إن المترجم له قـــد « وضع لائحة لانتخاب أعضـــاء المجلس البلدي في كل سنتين ، وانتخاب رؤساء المحلات ، وبالجمـــلة فقد أدخل على نظام البلدية وأجهزتها الادارية إصلاحات كثيرة لم يسبق للبلدية معرفة بها قبل توليته» لها . ومن المعلوم أن الحاج أحمد المهدوي قد بقي عميداً للبلدية زهاء العشرين سنة .

وإلى جانب هذا الجهاز الاداري الاجتماعي المحلي الذي يمكننـــا تسميته «بالجهاز المساعد» نجد جهازاً حكومياً مدنياً وعسكرياً يعنى بالشؤون المالية والإدارية لسكان المدينة وبقيـــة المديريات التي ترتبط مباشرة بالعاصمة والتي سنتحدث عنها فيما بعد ، وجهازاً عسكرياً قوامه حامية تركية (لا يشارك الليبيون فيها عادة) أو من أبنـــاء الإيالات العثمانية الأخرى وسنتحدث عن أعمال بعض الأجهزة الادارية في المكان المناسب من هذه الفقرات .

ويلحق بالإدارة المركزية في الإقليم مباشرة (بنغازي) أربـع مديريات أضيفت إليها مديرية خامسة سنة ١٩٠٩ هي :

١ – مديرية سلوق وهي مديرية بطن السديدي من العواقير .
٢ – مديرية قمينس وهي مديرية بطن مطاوع من العواقير .
٣ – مديرية برسس وهي مديرية بطن ابراهيم من العواقير .
٤ – مديرية سيدي خليفة وقـد أنشئت سنة ١٩٠٩ لأسباب سياسية ولم تنجح .
٥ – مديرية سلنطة وهي مديرية البراعصة .

وإذا كان الحـــاق مديريات سلوق – قمينس – برسس ثم سيدي خليفة ببنغازي مباشرة يعد أمر مقبولاً ومعقولاً لأنها تتوسط منطقة سكن العواقير

في جملتهم وهي سوقهم وأقرب مركز رسمي إليهم، فإن إلحاق مديرية سلنطة أو البراعصة ببنغازي مباشرة وبينها منطقة قائمقامية المرج لأمر يدعو الى التساؤل ويستدعي الشرح والتعليل، غير أن التعرض لشرح مبررات هذا الوضع الشاذ إدارياً وجغرافياً سيأخذ منا الكثير ويخرج بنا عن صلب الموضوع ، ولذلك نكتفي بالقول إن أسباباً تاريخية - سياسية - عسكرية - إدارية فرضته على الإدارة العثمانية واستدعت بقاءه طيلة مدة حكمهم للإقليم .

د - تعداد السكان في بنغازي :

كان سكان مدينة بنغازي في أواخر العهد القرمانلي يتراوح بين الألفين والخمسة آلاف نسمة كما سبق أن ذكرنا نقلا عن ديلا شيلا وعن الأخوين بيشي ، وكان معظمهم من أهل مصراته ، ويكوّن اليهود أكبر الجاليات أو الطوائف غير العربية من الوطنيين .

ويحدثنا أ. بنشيتّي A. Bencetti عن مدينة بنغازي في سنة ١٨٩٥ فيقول إن عدد سكانها آنذاك كان حوالي ١٥،٠٠٠ ألفاً ، وإن ثلاثة أرباعهم من الوطنيين، أما الربع الأخير فهم خليط من زنوج أواسط القارة،وكريتيين، وتونسيين ، ومصريين ، ومالطيين ، ويونانيين ، وأرمن ، وإيطاليين ، ويهود . أما الأتراك فإن عددهم إذا استثنينا جند الحامية والموظفين لا يكاد يذكر(١٠٩) وفي أواخر العهد العثماني الثاني نجد عدد سكانها قد زاد زيادة ملحوظة إذ ارتفع إلى حوالي العشرين ألفاً(١١٠) يكوّنون خليطاً من الأهالي : مصراته وورفلة وفواقير وترهونة وغيرهم من أبناء ولاية طرابلس العثمانية ، وبراعصة وعواقير ومغاربة وغيرهم من أبناء قبائل ولاية برقة العثمانية ، ومصريين وشاميين وجرابة وسفاقسيين وغيرهم من أبناء الأقاليم العربية ، كما نجد بين سكانها عدداً

من الافريقين الذين تجمعوا في حي خاص بهم عرف بالزرايب (منطقةالصابري) وعدد لا يقل عن الثلاثة آلاف نسمة من اليهود الذين اجتذبتهم المكاسب والأرباح منذ نشأة هذه المدينة ، الى جانب عدد آخر من الجاليات المسيحية : مالطيين ويونانيين وإيطاليين وغيرهم لا يبلغ بضع مئات .

وعلى الرغم من أن الصراع القبلي قد خفت حدته منذ بداية العهد العثماني الثاني إلا أنه قد تحول إلى نوع من الصراع الحزبي السياسي بين الكتلتين القديمتين : « حكومة » و « أهالي » أي « يمين » و « يسار » . وقد استمر هذا الصراع الحزبي السياسي بين الكتلتين طوال العهد وكانت انعكاساته تبدو في الاقتراع لتقاسم عضوية المجالس المحلية وغيرها من المناصب الرسمية للوطنيين . ولم تكن الأقليات والجاليات بالمحايدة في هذا الصراع حياداً تاماً وإن كان اشتراكها فيه يقف عند حد المناصرة والتأييد ، مما انتهى بغالبية العربي في أصله منها إلى الإنصهار فيمن كان يناصر من الفريقين ، وأصبح مَن في أصله من « هون » أو من « معدان » أو « البركات » معدوداً في قصر حمد مثلاً ، ومَن في أصله من إحدى القبائل البرقية معدوداً في « الكراغلة » أو « العقيب » ، ومن في أصله من مصر أو من الشام في غيرهما وهكذا ، أي أنه لم يعد للإنتماء إلى إحدى القبائل المكونة لأي من الكتلتين معنى عرقي ، وإنما أصبح نوعاً من الانتماء الحزبي السياسي الذي استدعته التكتلات المحلية في المدينة آنذاك .

هـ ــ النشاط الاقتصادي :

قام النشاط الإقتصادي في مدينة بنغازي طوال العهد العثماني الثاني على دعامات ثلاث هي : التجارة ، الزراعة الموسمية (الفلاحة) ، تربية المواشي

والأغنام (الموالة) . أما الصناعة فقد ظلت غير ذات شأن يذكر وطوال ذلك العهد لاحتقار من يزاولها ، ولبساطتها وقلة الدخل فيها من جانب آخر. وفيما يلي سنحاول باختصار إعطاء صورة موجزة لما عليه النشاط الاقتصادي للسكان في كل من هذه المجالات .

١ – التجارة :

لم يكن أهل البلدة ذاتها ينظرون إلى تجارة التجزئة « البقالة » نظرة احترام أو تقدير لمن يزاولها إلا في أواخر العهد العثماني الثاني ، وحتى في هذا التاريخ يحدثنا الحشائشي في « جلاء الكرب عن طرابلس الغرب » (ص ٨٨ و ٨٩) عن أهل هذه المدينة سنة ١٨٩٤ فيقول : « يوجد بها إثنا عشر رجلاً (تاجراً) من الجرابة ، وبعض من السفاقسيين ، وبعض من الطرابلسيين دون العشرة ، وجانب عظيم من اليهود . أما أهالي البلد فلا يتعاطون هاته الصناعة . وليست لهم إلا صناعة الفلاحة » . ويقول : « ... والقصاب ، والبقال ، والخباز ، والزيات ، غالبهم من أهل طرابلس ومسراطه ؛ أما أهل البلد فليست لهم حرفة إلا صناعة الفلاحة » . وما ذكره الحشائشي هنا إنما يصدق على نظرتهم إلى تجارة التجزئة وحدها ، ومع ذلك وبالرغم من هذه النظرة فإننا نجد نوعاً من التنظيم في أسواق هذه المدينة ، فكل سوق محددة بنوع من البضائع أو الصناعات، فهناك سوق المنسوجات[١١١]،وسوق الخضار، وسوق الحدادة ، وسوق السراجة[١١٢] ، وسوق الخرازة[١١٣] ، وسوق الحلاقين ، وسوق السرارة[١١٤]، وفندق الحطب ، وفندق الغلة[١١٥]، وفندق الخضرة ، وما إلى ذلك من التصنيفات . ولعل مرد هذا التنظيم إلى نظرة السكان المتباينة إلى هذه الحرف والصناعات والأعمال التجارية بالذات ؛ أما بقية أنواع التجارة فهم يزاولونها بل وينصرفون بكليتهم إليها ، وقد اختصوا

بالتجارة مع السودان أو ما يعرف بتجارة القوافل ، ولأهل هذه المدينة فيها نشاط كبير وملحوظ إلى حد أن أحدهم « المحيشي » قام بحفر بئر «السارة» على مسافة من البئر التي حفرها السيد محمد المهدي (سيدي المهدي) السنوسي وعرفت بـ « بشرى » في الطريق ما بين الكفرة ووجنقة أول السودان . كما انصرفوا أيضاً إلى التجارة الخارجية فكانوا يصدرون الأغنام والأبقار والإبل والمنتجات الحيوانية (الأصواف ، والدهن (السمن) ، والعسل) إلى تركيا والشام ومصر واليونان ومالطة وتونس ، ويستوردون المنسوجات والمأكولات وغيرها مما يحتاجه السكان أو يصدَّر إلى أواسط القارة بدلاً مما يستورد منها من ريش النعام وسن الفيل ، والتبر ، والجلود ، وغير ذلك ليعاد تصديره إلى عدد من الأسواق الأوروبية .

وكنتيجة لهذه الحركة التجارية الواسعة مع الخارج وجدت خلال العهد العثماني الثاني مختلف أنواع العملات الأجنبية من الذهب والفضة، وكانت الليرة الذهبية : تركية وانجليزية وفرنسية واسبانية نقداً متداولاً بين الناس في هذه السوق .

٢ – الزراعة :

وقد اشتغل سكان مدينة بنغازي بالزراعتين : الموسمية وذات الري الدائم على السواء ، وإن كانت الثانية منها على نطاق محدود لقلة الموارد المائية في المناطق المحيطة بها من مثل اللثامة والسلاوي والصابري ـ دكاكين حميد في الشمال، ومن مثل القوارشة والفعاكات والخويبية في الجنوب الشرقي، ومن مثل قريونس وقنفوده في الجنوب. لقد كانت لكل أسرة تقريباً بساتينها ومزارعها ذات الأشجار والكروم والنخيل ، وكانت الخضروات مما يهتمون بزراعته في

تلك البساتين مما وفر لسكان هذه البلدة حاجتهم من هذه المنتوجات الزراعية. يقول الحشائشي في كتابه السابق (ص ٩١) حول هذه البساتين : « وجميع أراضي أحواز البلد الخارجة عنها مسافة ستة كيلومترات يملكها الأهالي ، وفيها بساتينهم » . أما حول وفرة الغلال فيقول (ص ٩٠/٩١) : « والخضر والبقول والغلال فلا قيمة لها بهاته البلد ، وجميع ما فيها من الطعام رخيص ، والسمن والزيت والعسل كذلك ، والحاصل أنني لم أر مكاناً فيما وطئته رجلي أرخص أسعاراً من هذا البلد » .

أما الزراعة الموسمية (الفلاحة) فهي تعتمد أصلاً على سعة المناطق الزراعية الممتدة حولها لعشرات الكيلومترات ، وكانت جميع أسر السكان الوطنية في العهد العثماني الثاني تمارس هذا النشاط التجاري كل بحسب إمكاناتها المادية ومقدرتها، ومع أن معظم الأسر الثرية تمتلك أراضي زراعية في سهل بنغازي الرحب الفسيح إلا أن ملكية الأرض في حد ذاتها ليست بالمشكلة أمام من لا يمتلكها ، ففي إمكان أي ساكن أن يبذر (مطيرة) من الشعير أو القمح في أي أرض بمقابل ومن غير مقابل ، ما دام لا يدعي ملكية هذه الأرض . وحتى عهد قريب كانت هندسة بيوت المدينة التي ترجع الى العهد العثماني الثاني أو العهود السابقة له تخدم هذه الغاية بالذات وتحقق أغراضها ، فالمدخل باب كبير (بوخوخة) تدخل منه شباك التبن و (حمول) الشعير والقمح ، وفي الردهة خلفه (السقيفة) اتساع كاف وفي سقفها حلقات وبكرات يعلق بها (المعلف أو الشبكة والمحراث) أدوات الزراعة وبها مخزن مستطيل لخزن المحاصيل من شعير وقمح وتبن ، الى جانب حجرة الضيافة (مربوعة) التي يجد فيها عامل الحرث والحصاد مأواه ، ثم فناء خارجي به اسطبل لحيوانات الحرث والحصاد من خيل وإبل وحمير وبقر .

وكان الإنتـاج الزراعي من الحبوب وخاصة الشعير من الوفرة في سنوات الخصب بحيث يصدّر بآلاف الأطنان الى بلدان أوروبا وخاصة بريطانيا .

٣ – تربية المواشي والأغنام :

أما المصدر الثالث من مصادر الثروة لسكان هذه المدينة في العهـد العثماني الثاني فهو امتلاك قطعان من الأغنام والأذواد من الإبل ، واستخدام الرعـاة من أبناء القبائل المحيطة بها في رعايتها والإهتمام بها مقابل أجرة عينية (حملان– صوف – لبن) ونقدية (شحمة الرعيان) ، وكانت هذه التجارة مما يـدر الدخل الوفير على أثرياء البلد خاصة ، فقد تجاوز ما يملكونه آنذاك عشرات الآلاف من الأغنام في جملته الى مئات الآلاف .

مما تقدم جميعه ندرك أهمية موقع هـذه المدينة الجغرافي ومدى اتساع امكاناتها الإقتصادية – آنذاك – مما جعلها تجتذب السكان باستمرار وتنمو مع الزمن بالتدريج ، غير أنه نشاط للسكان لا تسهم الحكومة العثمانية فيه ولا تشجعه بل قد تعوقه بما تفرضه من ضرائب باهظة في بعض الأوقات .

شيءواحد اهتمت السلطات العثمانية به فاحتكرته هو تجارة تصدير الملح الذي كان يجمع في آكام ترتفع كالأهرام في كل صيف ليصـدر بحراً بآلاف الأطنان ، وقد كانت هذه المادة الخـام هي المورد الإقتصادي الأول الذي قامت عليه المدينة في العصر الحديث كما تقدم ولم تكسد سوقهـا حتى نهاية العهد العثماني .

و – المباني والعمران في هذا العهد :

أثناء استعراضنا لولاة الأتراك على برقة أشرنا إلى البعض مما قام به بعضهم



آكام الملح (حديقة البلدية حالياً)

من مثل رشيد باشا وطاهر باشا من إصلاحات لمساجد كانت قائمة ولكنها في حاجة الى الإصلاح ، ونعود الآن الى هذه الأعمال وغيرها مما ينسب الى هذا العهد بالذات من مبانٍ عامة ونشاط عمراني في مدينة بنغازي بالذات .

قصر البركة هو أبرز جميع مخلفات هذا العهد من العمران ، وقد بدأ بتأسيسه رشيد باشا في عهد ولايته الثاني (١٨٨٩ – ١٨٩٣) ولم يتم إلا في عهد خلفه طاهر باشا . ويتسع هذا القصر – المعسكر لبضعة آلاف من الجنود إقامة ، وبداخله مسجد كبير تقام فيه الصلوات بما في ذلك الجمعة . وقد أطلق عليه الايطاليون اسم أحد كبار قوادهم الجنرال موكاجاتا Moccagatta واشتهر بهذا الاسم طيلة العهد الايطالي . وخلال تلك الفترة من التاريخ عطّل المسجد به بمنع الصلاة فيه ، ودكت صومعته حتى لا يبقى شاهداً على انتهاكهم لحرمات الدين ، إذ استغل لأغراض أخرى غير الصلاة . وبعد الحرب العالمية الثانية اتخذته الحامية الانجليزية معسكراً واستمرت به حتى إعلان الاستقلال وتكوين الجيش الليبي فاتخذ معسكراً لبعض الكتائب والسرايا ، وأعيد مسجده للصلاة في احتفال مشهود ، وأصبح يعرف اليوم بمعسكر الجيش بالبركة ولم يعد من يذكره بالتسمية الايطالية له ولا من يعيده الى الأتراك .

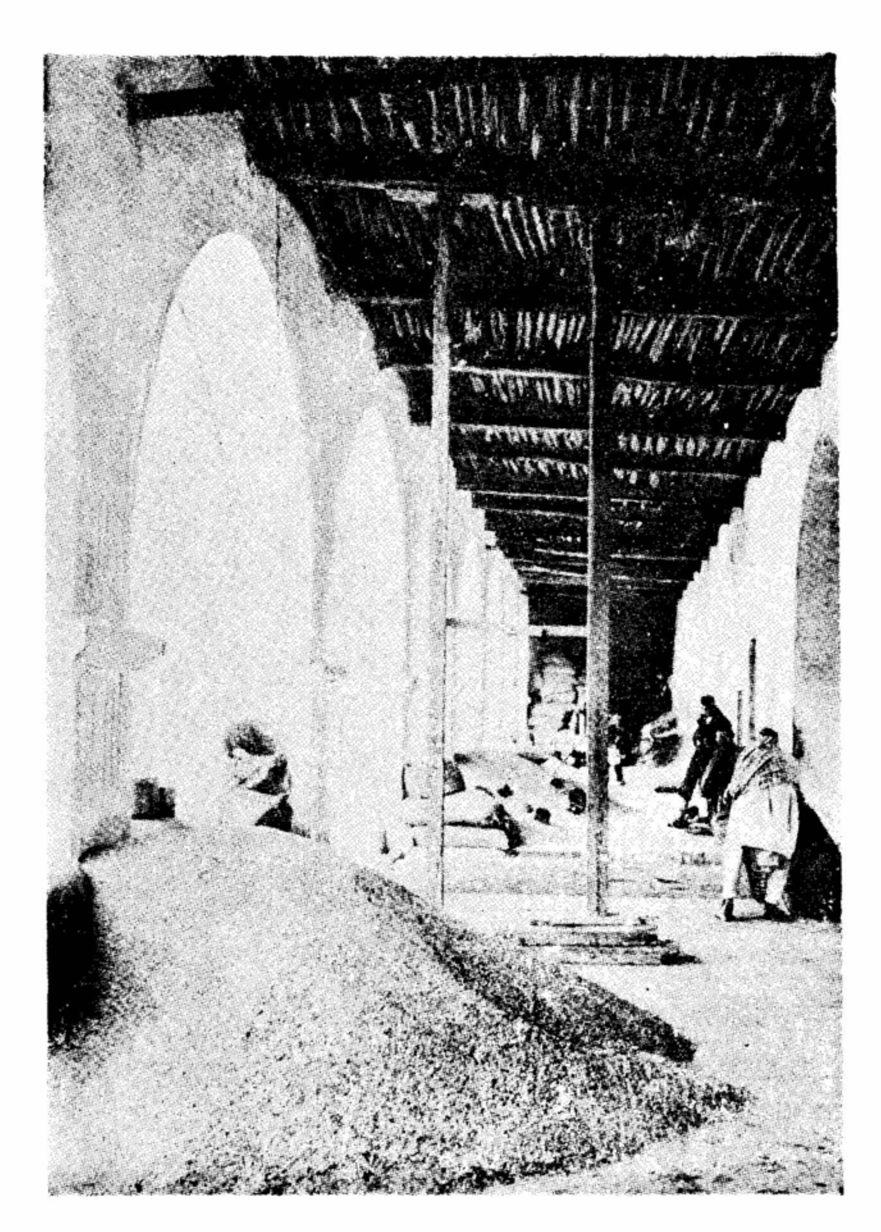
وفي عهد رشيد باشا أيضاً تم انشاء الفندق البلدي للغلال والخضار والمنتجات الحيوانية ، فقد أعاده دي أغستيني الى سنة ١٨٩٠ ، وقال عنه الاستاذ المرحوم محمد محمد بن عامر في ترجمة الحاج أحمد المهدوي (مجلة ليبيا عدد ١٠ من السنة ٢ ص ٥) ما يلي : « كما أنشأ [يقصد المترجم له] فندقاً كبيراً لبيع الغلال والمحروقات » وذلك بصفته رئيساً للبلدية آنذاك . وقد أهمل هذا الفندق حينما أنشىء في العهد الايطالي فندق آخر أوسع وأحدث

منه عرف بالفندق الجديد ثم بالفندق البلدي ، وتصرفت البلدية في أرضية الفندق القديم فحولته الى مبانٍ سكنية ومخازن وحوانيت .

وإلى عهد رشيد باشا الثاني يعود فضل أكبر مشروع عمراني قامت به السلطات العثمانية ، فمنذ سنة ١٨٨٩ بدأت عملية إقامة أول رصيف صناعي (غير طبيعي) بالميناء – الرصيف الداخلي القديم – وقد استمر العمل فيه بعد ذلك عدة سنوات ولم ينته إلا في عهد خلفه طاهر باشا ، ويذكر مصدرنا أن العمل فيه كثيراً ما توقف بسبب قلة الإمكانات المالية ، وفراغ الخزانة[١١٦] ، ويذكر مصدرنا نفسه أن المشروع كان من مرحلتين ، إذ كان التفكير متجهاً الى إقامة رصيف مقابل لهذا يمتد من رأس جليانة ، غير أن هذه المرحلة الثانية لم تنجز حتى نهاية العهد العثماني فاقتصرت العملية على هذا الرصيف الوحيد .

وإلى هذا العهد العثماني تنسب عدة منشآت لم يبق من بينها قائماً غير مبنى البلدية ، وهو من مآثر رئيسها الشهير الحاج أحمد المهدوي فيما يرويه لنا المرحوم محمد محمد بن عامر في ترجمة حياته (مجلة ليبيا ، العدد ١٠ ، من السنة الثانية) الذي يقول : « كانت دار البلدية عبارة عن محل واحد متوسط له قاعة واحدة ... قام العميد الحاج احمد بناء على موافقة الوالي رشيد باشا بشراء بيت عرض للبيع من مالكه الإيطالي النابوليتاني كما يسمونه إذ ذاك ، وهو مركزها الحالي الآن إذا استثنينا الجناحين الشرقي والغربي اللذين أضيفا إليها في العهد الإيطالي ، زمن عمودية حفيده المرحوم محمد طاهر المحيشي ، فهدم البيت الذي اشتراه وأنشأ عمارة ذات ثلاثة طوابق ، فأوجد في الطابق الأرضي محلاً جعله صيدلية للبلدية مجهزة بصيدلي قانوني وبكل أنواع الأدوية والعقاقير المعروفة آنذاك » .

« كما جعل في الطابق الأول قاعة متسعة للإستقبالات ، وقسم باقي العمارة



منظر لقسم مبيعات الحبوب (فندق الغلة) من الفندق البلدي

إلى حجرات اتخذت مكاتب للموظفين » .

وكما بقي مبنى البلدية فقد بقي حتى الآن مبنى الجمارك القديم بينما امحت عدة مباني أخرى من مثل قصر الباشا بالبركة والمستشفى العسكري ، ومباني البريد التركي ، ومراكز الحجر الصحي وغيرها من المباني التي أنشأها العهد التركي هنا وهناك ، كما هدم قصر الحكومة العتيق وأزيلت جميع معالمه وهو أقدم أثر عمراني للأتراك في هذه المدينة ، وقد كان حيث دار سينما البرنيتشي وفيما بينها والبحر .

وإلى هذا العهد أيضاً أمكن إرجاع المساجد والزوايا والأضرحة التالية :

جامع بالشيخ (؟) جامع الشويخات ويعرف أيضاً بجامع ابن يونس (؟) ، جامع باله (١٨٦٠) ، جامع بوغولة المدينة (١٨٦٠) ، جامع هدية (١٨٦٠)، وهذا الأخير أعاد بناءه طاهر باشا في أواخر القرن الماضي ، جامع بوغولة البركة (١٨٧٠) ، جامع بالرّوين (١٨٧٠) جامع المكحل (١٨٩٠) وإلى هذه الفترة يعود تاريخ الحمام التركي العام المنسوب إلى نفس الأسرة على مقربة من هذا المسجد، جامع الشَّيْن بسيدي حسين (١٨٩٠)، جامع السلاك (١٩٠٠)، وأخيراً جامع رخيص (١٩٠٠) .

ومن الزوايا الصوفية : الزاوية المدنيـة (؟) وزاوية سيدي عبيد (؟) ، وزاوية بو شحيمه (١٨٥٠) ، وزاوية القنطري (١٨٥٠) والزاوية الرفاعية (١٨٦٠) والزاوية العروسية (١٨٦٠) والزاوية السنوسيـة[١١٧] (١٨٧٠) ، وزاوية سيدي عثمان بحيح (١٨٧٥) .

أما من الأولياء فثلاثة لا قبة لضريح أي منهم هم : سيدي ابن جحا (؟) وسيدي بو دبوس (١٩٠٦) وسيدي المسكين (١٩٠٠) .

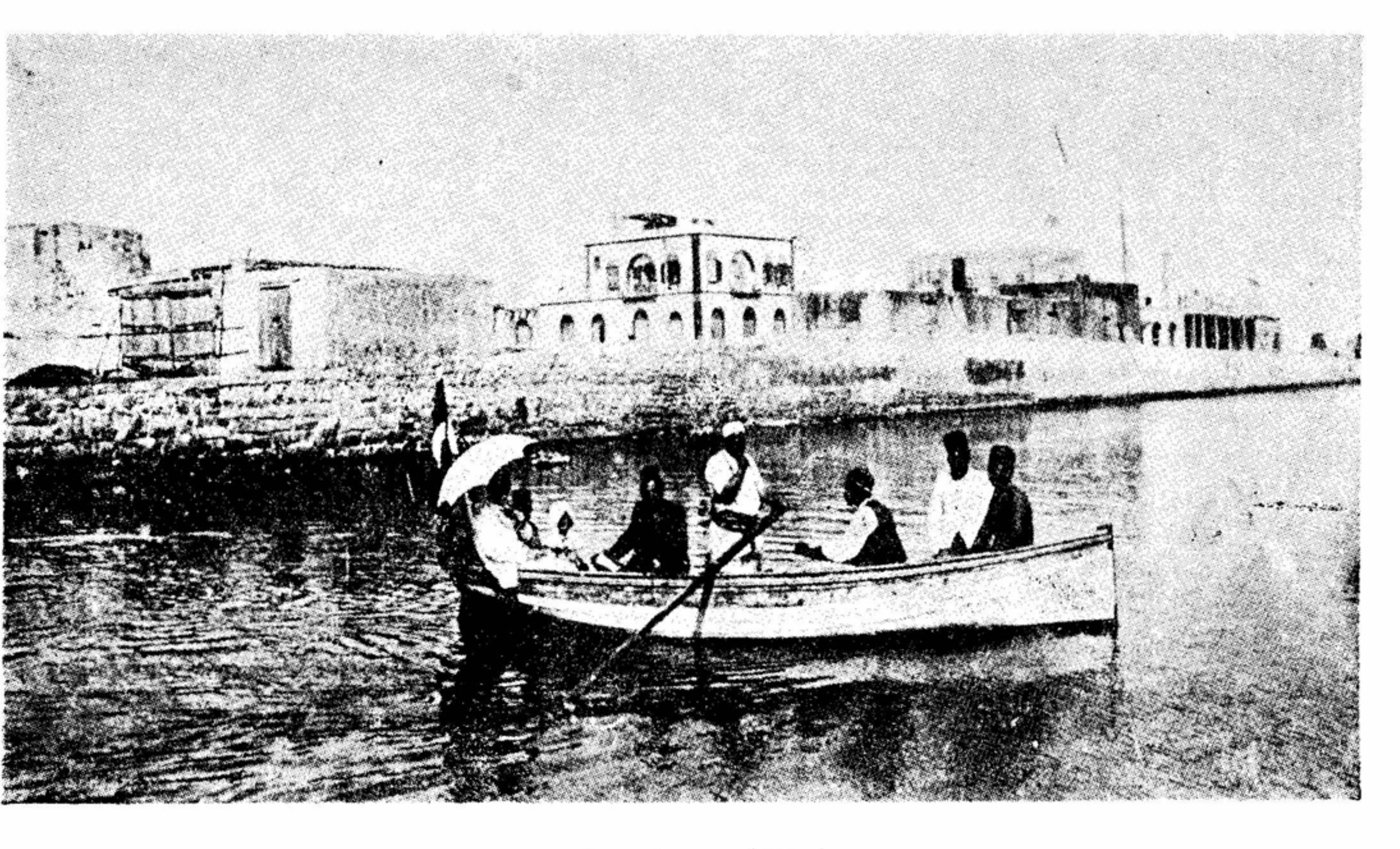
وإلى هذا العهـد أيضاً تنسب كنيسة اليهود (١٩٠٧) والمحكمة والمدرسة

اليهودية (١٨٥٠) وهذا أقدم مبنى عام لهم في المدينة الحديثة مما يمكن أن يفهم معه أن العهـــد العثماني قد شملهم برعايته وحمايته التي كانت في السابق تعتمد على بعض الأسر القوية في المدينة .

ونجد عند جزليري [١١٨] إشارة إلى أن افتتاح طريق بنغازي البركة المار بمنطقتي سيدي حسين وسيدي داود قد تم في العهد العثماني الثـاني ، وقد أورد لنا الاستاذ محمد محمد بن عامر في ترجمة الحاج أحمد الجهاني (مجلة ليبيا ، العدد ١١ من السنة الثانية ص ١١) خبراً نفهم منه أنه في خريف سنة ١٩١٠ كانت عملية رصف طريق بنغازي البركة قائمة ولم تنته بعد ، ولكن رصفهـا قد تم بالتأكيد قبل الغزو الإيطـالي أي قبل خريف سنة ١٩١١ م. ويشير جزليري أيضاً إلى أن خطاً للسكة الحديدية يربط بين الميناء وأفران الجير بالفويهات كان موجوداً ، وإلى أن سكان مدينة بنغازي قد اتخذوا من شاطىء جليانة مسبحاً ومصيفاً منذ أواخر ذلك العهد .

ويمكن القول عموماً بأن المدينة قد اتسعت مبانيها وأصبحت المنـازل في بعض الأحياء وخاصة شارع القنصليات (شمال غرب المدينة) تتكون من طابقين وأكثر من ذلك . ووجد بها هوتيل على النظام الحديث لأول مرة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عرف باسم « هوتيل برقة » ، وقـد أشار لوجوده والإقامة به أكثر من واحد ممن زاروا هذه المدينة آنذاك .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن رئيس بلدية بنغازي قد أنشأ بالطابق الأرضي صيدلية مجهزة بكل أنواع الأدوية والعقاقير يديرها صيدلي قانوني (مؤهل)، ويحدثنا محمد محمد بن عامر في ترجمة الحاج أحمد المهدوي (نفس المصدر ص ٥) أن هذا قد « أحضر طبيباً خاصاً للبلدية لمعالجة الفقراء مجاناً والإشراف على الصحة العامة للمدينة » . وهذا يعني أن هناك غير هذا الطبيب أطباء آخرين



منظر لشاطيء من بنغازي سنة ١٩١٠

لا يعالجون المرضى مجاناً متى كانوا من غير الفقراء[١١٩] .

ويقول مصدرنا نفسه إن رئيس البلدية قد عمل أيضاً على « تعيين مفتشين للصحة ، ولمراقبة الأسواق ، والإعتناء بنظافة المدينة والمحلات المعدة لبيع المأكولات » .

وبالرغم من أن الكهرباء لم تدخل المدينة إلا أن إضاءة الشوارع بالفوانيس المضاءة بالكيروسين ، والمعلقة داخـــل مصابيح زجاجية في بعض الشوارع والميادين ، كانت معروفة في مطلع هذا القرن . أما الميـــاه فقد بقيت حال المدينة على ما كانت عليه قبل هذا العهد محرومة منها ، وكان على كل أسرة أن تدبر حاجتها منهـــا عن طريق الموردين لها في براميل خشبية صغيرة على الحمير . وكذلك لم يدخل على مشكلة المجاري أي تطوير فظلت على ما كانت عليه في العصر السابق .

وليس معنى هـــذا عدم تفكير السلطات المحلية (البلدية) والإدارية (مجلس الإدارة) في مشاريع من هـذا النوع ، فقد ذكر بنشيتي الذي زار بنغازي سنـــة ١٨٩٥ أن عدداً من الحكام الأتراك كانوا يقومون بدراسات تهدف إلى تزويد المدينة بشبكة قنوات[١٢٠] تمد السكان بالمياه العذبة من الآبار الغزيرة المياه في ضواحي المدينة ، غير أن قلة الإمكانات المالية جعلت تنفيذ مثل هذه المشروعات مستحيلاً ، وكان التأجيل مصير كل مشروع تتم دراسته حتى أصبح المواطن لا يصدق سلامة طوية الحكام في أمور الإصلاح العـامة كمد المدينة بالميـــاه أو إقامة خدمات بريدية أو تلغرافية وكإنارة الشوارع والميادين[١٢١] .

والخلاصة أن مدينة بنغازي قد بدأت مع بداية القرن العشرين تتمتع

ببعض الخدمات الحضرية التي وإن كانت بسيطة إلا أنها اجتذبت نحوها المزيد من السكان .

ز - الثقافة والتعليم :

ليس من السهل اليوم تتبع التاريخ الثقافي - التعليمي لمدينة بنغازي إبان العهد العثماني الثاني بكامله ، فقد أضاع الزمن والمستعمر وأيام الكفاح وإهمال أبناء البلد لتسجيل تاريخهم معظم تراث وثقافة وأخبار هذا العهد ، ولم يبق منه سوى شوارد هنا وهناك لا تعطي الصورة الكاملة له ؛ فمع أن هذه المدينة كانت عاصمة الإقليم ، ومركز النشاط الفكري له ، فإن ما لدينا لا يثبت قيادتها الفكرية لبقية الإقليم . على أن الصعوبة لا تعني الإستحالة ، وقد تعطينا البحوث الخاصة التي سيجريها المهتمون بالأمر من أبناء البلاد الكثير ، فما زال العهد قريباً والتراث الحضاري لم يطمس في مجموعه بالتأكيد .

وما تقدم حول الوضع الثقافي إنما ينطبق على الجانب الرسمي التركي ، أما عن الثقافة العربية الإسلامية فإن الأمر يختلف إذ إن الدعوة السنوسية وما حققته من تطوير في المجتمع بزواياها ونشاطها الثقافي ، وحلقات دروس الفقه واللغة والأدب التي كانت تعقد من العلماء في المساجد و (المرابيع) والزوايا وكتاتيب تحفيظ القرآن الكريم الملحقة بالمساجد قد مكنت لأبناء هذه المدينة من الحفاظ على الصلة المتينة بالثقافة العربية الإسلامية العميقة الجذور ، ثقافة أنجبت العديد من العلماء والأدباء والشعراء ، وإن ضاع نتيجة عدم التدوين معظم ما تركوا من تراث أدبي فإن أسماءهم ظلت باقية حية في النفوس ، وبعض ما أنشد الشعراء منهم أمكن تدوينه ، وهو على قلته يعكس تراثاً ثقافياً لا يستهان بعصره ولا بقائليه من أمثال بو هديمة ،

والمغبوب ، وابن شتوان ، والجهاني وغيرهم . أما من العلماء فلم نتصل بتراثهم العلمي وإن بقيت لهم فينا شهرة العلمـــاء من أمثال محمد بن عامر وبو ختالة وبادي وغيرهم ، ولو لم يكن هذا تاريخاً للمدينــة ولولا خوفنا من أن يتحول هذا الجزء إلى تراجم أدبية لقدمنا من تراثهم الشعري على الأقل بعض ما دوّن أو تناقله الرواة بالسماع[١٢٢].

الفصل السادس

الهوامش والتعليقات

١ — Col. En. De Agostini : - « Le Popolazioni Della Cirenaica » Bengasi 1922 - 23 .

٢ — وذلك لأن الإقليم كان يقع على طريق الحاج لهذه الأقطار الثلاثة وقد زخر تاريخه الإسلامي ورواياته الشعبية بأخبار هؤلاء النفر الذين يستقرون به وهم في طريقهم إلى الحجاز أو إلى بلدانهم، ومعظم الأولياء الذين اشتهرت أضرحتهم في برقة وطرابلس وعدد من بطون القبائل وعائلاتها ينتسبون إلى أناس من المغرب في أصلهم استقروا نهائياً أو لبعض الزمن أو أدركتهم المنية به ، أما من الشرق فلا نكاد نعثر على أحد ينسب إليه .

٣ — أحمد الناصري السلاوي : «تاريخ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى» الجزء الثاني من الطبعة الأولى سنة ١٣٠٥هـ. مصر .

٤ — P. Francesco Rovere : « Missione Francescana in Cirenaica »

٥ — وطا برنيق أي أرض برنيق أو سهل برنيق .

٦ — وذلك في المقدمة التي كتبت سنة ١٣٩٦م .

٧ — انظر هامش مضاف لصفحة ٢٥ من هذه المخطوطة .

٨ — وذلك كما حققه تاريخاً البروفسور المستشرق كارلو نالينو (راجع هامش ٥٥ من الفصل الأول من هذا البحث) .

٩ — وهذا التاريخ لم نعثر عليه عند معظم الذين تعرضوا للموضوع ، وإنما في مصدر إيطالي واحد لم يعين مصدره فيها مما يقلل من قيمة الاعتماد عليه كثيراً ، ومع ذلك فمن الجائز أن يكون الأتراك قد استولوا على هذه المدينة في تلك السنة بحراً ثم عادوا فتخلوا عنها بعد فترة لصعوبة الاحتفاظ بها أو لانشغال الولاة الأتراك بالمناطق المجاورة لهم والقريبة منهم حتى سنة ١٦٣٨ ، وهي أول سنة مؤكدة من حكمهم لها في عهدهم الأول .

١٠ — يشير إلى هذا النشاط التجاري المبكر ، عدد من كتاب الإفرنج، وعدد من كتاب العرب الذين أخذوا عنهم . وتؤكده صراحة إتفاقية التجارة بين أمير أفريقية (طرابلس) والجنوبيين التي يشير إليها أكثر من كاتب .

١١ — وقد استمرت عملية تجميع الملح صيفاً وبكميات كبيرة نسبياً حتى عهد قريب ، ولا نزال حتى الآن نشاهد عمليات تجميع الملح صيفاً، وإن أصبحت في الوقت الاخير غير مستغلة إلا من سماسرة ومصدري جلود المواشي وحدهم .

١٢ — ذلك أن أصحاب السفن من ناقلي الملح ، قد وجدوا في أسواق هذه المنطقة ما شجعهم ولا شك على التوسع بنشاطهم إلى هذه الأصناف وغيرها مما تقدمه السوق المحلية إلى جانب الملح ، وربما كان الأساس الأول لهذه التجارة قد قام على نوع من تبادل السلع بين القارتين .

١٣ — En. De Agostini : - Le Popolazioni Della Cirenaica Pag. 413 Nota « 2 ».

١٤ — وقد كانت الخرائط الجغرافية الحديثة ـ آنذاك ـ مستنسخة عن خرائط العصور الوسطى وحاملة بالتأكيد لأسماء المناطق القديمة إلا ما شاع من الأسماء الحديثة وعرف من ربابنة السفن . وأما تعليل شيوعه فإن وقوع الضريح على مرتفع مطل على البحر ، يجعله أول ما يبدو للسفن من المدينة ، أو لعل السوق كانت تعقد عنده ، أو غير هذا من احتمالات ليس من السهل اليوم ترجيح أحدها . ناهيك عن الجزم به بعد خمسة قرون كاملة من الزمان .

١٥ — En. De Agostini : « Le Popolazioni della Cirenaica » pag. 413.

١٦ — En. De Agostini : « Le Popolazioni della Cirenaica » pag. 421.

١٧ — Pad. Costanzo Bergna : « Tripoli dal 1510 al 1850 pag. 55 .

١٨ — Pad. Costanzo Bergna : « Tripoli dal 510 al 1850 » pag. 124 .

١٩ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag. 124 .

٢٠ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag. 124-5.

٢١ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag. 125 .

٢٢ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag. 125-6.

٢٣ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag, 127-8 .

٢٤ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag. 131-2 .

٢٥ — Pad. Costanzo Bergna : «Tripoli dal 1510 al 1850» pag. 148-9.

٢٦ — ابن غلبون : « التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ».

ص ١٩٢ من الطبعة الثانية و ص ١١٦/١١٧ من الترجمة الإيطالية لذات المصدر بقلم E. Rossi ، وبين المصدرين خـلاف حول عدد من جندوا فالعربي يجعلهم ١٢٠٠ ، والإيطالي يجعلهم ١٢٫٠٠٠ ، وقـد اعتمدنا الإيطالي لأننا رأيناه أقرب إلى المعقول .

٢٧ – إحدى قبائل بنغازي النازحة من مصراته حيث لا تزال هذه موجودة حتى الآن . كانت مساكنها في الجانب الجنوبي الغربي من المدينة القديمة (شارع الرفاعية – شارع قزير) .

٢٨ – إحدى كبريات قبائل مصراته في الأصل وقد سكنت فيما يبدو منطقة الحدادة وأول سوق الجريد حيث لا يزال يوجد من بيوتاتها بقية بنفس المنطقة من مدينة بنغازي .

٢٩ – وهي أيضاً إحدى قبائل مصراته في الأصل ، وقد سكن أفرادها فيما يبدو المنطقة الواقعة فيما بين شارع قزير وشارع عصمان أي تلك الواقعة فيما بين منطقتي سكنى بدر والكوافي السابقتين .

٣٠ – وهم أيضاً من قبائل مصراته في الأصل وقد كونت مساكن أفرادهـا المنطقة التي تشغل جانباً من شارع الشويخات وشارع المهدوي ومنطقة الوحيشي . ومن بعدهم مناطق سكنى قصر حمد الـتي تشغل المنطقة الواقعة فيما بين شارع قصر حمد والبلدية وسوق سيدي علي الوحيشي .

٣١ – بلالة إحدى قبائل مصراته الصغيرة أو هي بيت من ذكيران ، وقـد تكون في أصلها البعيد من ترهونة .

٣٢ – وهؤلاء مع بلالة واليعاقيب يكوّنون قبيلة واحدة في بنغازي وهم فيما يبدو قبائل ثلاث اتحدت فيما بينها داخل الاتحاد نفسه ولأسباب غير معروفة وربما كان سببها قلة الطوائف الثلاث بين المجموعات الأخرى .

٣٣ – ويقول دي أغستيني عنهم إنهم من ورفلة في أصلهم، وقد كانوا يسكنون

المنطقة الواقعة بين شارع سيدي عثمان بحيح وشارع العقيب وربما جانباً من شارع قصر حمد أيضاً .

٣٤ – وهؤلاء في أصلهم من ورفلة وكانوا يسكنون آنذاك المنطقة الواقعة فيما بين شارع سيدي ابن عيسى وشارع عثمان بحيح .

٣٥ – وهما فكرون ودغيم والأول هو الحاج سعيد فكرون من مصراته وليس من بيت فكرون العواقير (ماضي – سديدي) ولا هو من بيت فكرون العبيدات (شلش – الصغير – الأفراد – غيث العبيدات) والثاني من أسرة دغيم الشويخات ولا تزال أسرته معروفة بين أفراد هذه القبيلة حتى اليوم .

٣٦ – R. Micacchi : - « La Tripolitania Sotto il Dominio dei Caramanli» .
Pad. Costanzo Bergna : - « Tripoli dal 1510 al 1850 » .
أحمد النائب : « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » .
ابن غلبون : «التذكار في من ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار».

٣٧ – أحمد النائب : « المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب » .

٣٨ – محمد جانم خوجة هذا باشا كان قد بعث به السلطان العثماني إلى طرابلس سنة ١١٢٤هـ (١٧١٢م .) على حسب عادة العثمانيين في كل مرة يستولي فيهـــا واحد على السلطة عنوة ، وقد عاد جانم خوجة هذا بعد مدة وجيزة من مقدمه ، ربما في نفس السنة أو السنة التالية .

٣٩ – ويبدو من سياق الأحداث أن الباب العالي وقد شعر بفقدانه السيطرة على طرابلس قد حاول تدبير مؤامرة ضد أحمد باشا في برقة على الأقل، فبعث بجانم خوجة لتدبير الانقلاب وتمويله ، وقد نجح هــذا فيما يرويه ابن غلبون في « التذكار » (ص ٥٢٩) وانضم إليه « عبدالله أبو طرطور الجبالي ، وصالح بن سليمان ، وسليم بن جليد بن موسى وسائر كبراء

أعراب الجبل وبرقة ووافقهم أهل البلد » ، وما كان لمغامر أن ينجح في إثارة فتنة عارمة بمجرد مقدمه لو لم يكن عاملاً باسم السلطان العثماني وبنفوذه .

٤٠ – ولم يذكر ابن خلدون نتائج حملة أحمد باشا ضد جانم خوجة التي سيَّرها تحت قيادة إبراهيم تابعه غير أن ما ذكره بعدها يدل على استتباب الأمر لصالحه بعد ذلك .

٤١ – ابن غلبون : « التذكار » .

٤٢ – En. De Agostini :- « Le Popolazioni della Cirenaica » .

٤٣ – راجع في هذا الموضوع : محمد الطيب الأشهب : « برقة العربية أمس واليوم » . وراجع أيضاً :
En. De Agostini : - Le Popolazioni della Cirenaica».

٤٤ – ويعنون بها تلك الحروب التي تتكتل فيها مجموعة من القبائل كصف ضد مجموعة أخرى كصف مضاد ، وذلك تمييزاً لها عن تلك الحروب الصغيرة التي تنشب بين فئتين متنازعتين لوحدهما ، ومن غير أن تسهم فيها قبائل أو بطون من قبائل أخرى ، فهي إذن أشبه بالأحلاف التي كانت تعقد في العصر الجاهلي .

٤٥ – نسبة إلى علياء أو عاليه (عليه في النطق المحلي) والدة كل من : موسى الأحيمر أو الأبح ، الجد الأول لقبيلة العواقير ، وعبد الدايم ، الجد الأكبر لقبيلة المغاربة . وينسب إلى علياء هذه أيضاً علي عريب ، الجد الأول لقبيلة العريبات . وهذه القبائل الثلاث هي من يعرف بين الجبارنة بالعلايا في نسب السعادي .

٤٦ – En. De Agostini :- «Le Popolazioni della Cirenaica» pag. 26,27.

٤٧ – En. De Agostini : - «Le Popolazioni della Cirenaica» pag. 26 .

٤٨ — Rod. Micacchi : - «La Tripolitania Sotto Il Dominio dei Caramanli» pag. 181.

وفي هذا المصدر، وفي غيره يمكن للقارىء أن يطلع على أحداث التاريخ المتعلقة بكيفية خلع يوسف باشا لأخيه أحمد، وعلى محاولات هذا الأخير لاسترداد الكرسي منه ، وأهمها تآمره مع الأمريكان الذين خذلوه ، وشروط صلحهم المتعلقة بشخصه وأفراد أسرته (زوجته وأولاده منها).

٤٩ — كان يوسف باشا قد عيَّن أخاه أحمد على درنه بعد خلعه ، غير أن هذا لم يذهب إلى برقة وإنما قصد مالطة ثم تونس وأخيراً مصر حيث أغراه الجنرال ايتون على التآمر معهم على عرش أخيه يوسف باشا ، فصاحب الأمريكان في حملتهم على درنه ، وكانت زوجته قد بقيت في طرابلس محتجزة من يوسف باشا مع أبنائه منها ، ولم يطلق سراحها أبداً للحاق بزوجها إلا سنة ١٨٠٧ وحينما كان أحمد في مالطة، وكشرط من شروط الإتفاق بين يوسف باشا والأمريكان . (ردولف ميكاكي : ـ طرابلس تحت الحكم القرمانلي) .

٥٠ — ولم نعرف كيف وصل ابن شيخ من كبار بيوتات الجوازي إلى منصب يعادل منصب وزير الحربية في نظم العصر الحديث، في حكومة يوسف باشا، ولا كيفية مصاهرته لأخيه أحمد في عهد والدهما علي باشا القرمانلي ، وقد سجل هـــذا الزواج في محكمة طرابلس الشرعية الخاص بعهد علي القرمانلي ، هذا على ما يرويه ميكاكي في المصدر المشار إليه في الهامش السابق (هامش الصفحة ١٧٠ منه) ، الأمر الذي يدل على أن هـذا الزواج قد تم في مدينة طرابلس ذاتها .

٥١ — وأسرة لملوم هذه من رؤوس قبيلة الجوازي قديماً وحديثاً، وسواء في برقة أو في مصر بعد هجرتها .

٥٢ — ليس لنا من مصدر في هذا الذي قدمناه ، ولكن الأحداث التاليـة ،

والتي انتهت بفرار أحمد القرمانلي إلى مصر سنة ١٨١١ تعطي استنتاجنا هذا قوة الإحتمال .

٥٣ – وهذا ارتكاز منا على إشارة مماثلة ، وردت عند ميكاكي (نفس المصدر السابق ص ١٦٩ و ١٧٠) حول استناده إلى عامل المصاهرة بالذات في محاولة استعادته لما سلبه إياه أخوه .

٥٤ – محمد الطيب بن إدريس الأشهب : – « برقة العربيـــة أمس واليوم » صفحة ١٠٩ .

٥٥ – En. De Agostini :- "Le Popolazioni della Cirenaica" pag. 26 - 27.

٥٦ – عقل من عقال ، إسم للموضع الذي تعقل فيه الناقة ، كناية عن حصارهم بتلك المنطقة بالذات .

٥٧ – محمد الطيب بن إدريس الأشهب : « برقة العربيـــة أمس واليوم » صفحة ١١٢ .

٥٨ – الزيريعية منطقة من بنغـــازي ، تقع حيث مقبرة سيدي عبيد القديمة ومقبرة اليهود ، وتشغل بالدقة ذلك المرتفع الذي بين هاتين المقبرتين .

٥٩ – المفلوقة منطقة أخرى من بنغازي ، تقع حيث محطة النور الحاليـــة ، ومدرسة الأساس لقوة الأمن ؛ وقد كانت تشغل مرتفعاً رملياً مترسباً بين المستنقع والبحر ، قبل أن تمتد المباني في تلك المنطقة ، وليس من مدخل إلى المدينة سوى هذه والزيريعية آنذاك .

٦٠ – وسيدي الشريف ضريح ومقبرة في وسط المدينـــة في الوقت الحاضر ، أما يومذاك فقد كانا على أطرافها إذ انها مرتفع ليس خلفه سوى مياه المستنقع (سبخة السلماني) .

٦١ــ لم يذكر الطيب الأشهب هذه المعركة الأخيرة ، ولكنه ذكر السابقتين ، وأسهب فيهما ، وذكر أن عدد القتلى من أهل بنغازي وحدهم في معركة المفلوقة قد تجاوز الثلاثين رجلاً خص بالذكر منهم الكيش والدنفير .

٦٢ــ Rod. Micacchi :- La Tripolitania sotto il dominio dei Carmanli.

٦٣ــ Paolo della-Cella : - «Viaggio da Tripoli di Barberia alle frontiere Orientali dell' Egitto» pag. 20

٦٤ــ Rod. Micacchi :-La Tripolitania sotto il dominio dei Carmanli.

٦٥ــ Paolo della - Cella :- Viaggio da Tripoli di Barberia alle frontiere orientali dell' Egitto.

٦٦ــ En. De Agostini : - Le Popolazioni della Cirenaica.

٦٧ــ Rod. Micacchi : - « La Tripolitania sotto il dominio dei Carmanli ».

٦٨ــ Paolo della Cella :- « Viaggio da Tripoli di Barberia alle frontiere orientali dell'Egitto ».

٦٩ــ F. W. and H. W. Beechey :- Proceedings of the expedition etc.

٧٠ــ ويقع في مواجهة سوق البلدية بشارع عمر المختـــار ، عند أول شارع الرفاعية . كان فيما يبدو ملحقاً بمقبرة السيد الشابي الـتي نقلت أجداث مقابرها إلى مقبرة سيدي عبيد من قبل السلطات الإيطالية ، وقد أعيد بناؤه حديثاً (١٩٦٦ ــ ١٩٦٨) بإشراف الأوقاف .

٧١ــ ويقع بشارع دربي الواصل بين شارع البلدية وشارع عصمان ، كان هذا المسجـد في أصله يتكون من حجرة بسيطة وصحن صغير ويعرف باسم جامع مسلاته . ويذكر دي أغستيني حول هؤلاء أنهم قد جاءوا إلى بنغازي لاجئين في أعقاب مصادمات مع الفواقير في عهـــد غير محدد

وأنهم قد أُبعدوا من قبل السلطات العثمانيـــة إلى توكرة توقياً لنشوب خلاف جديد مع فواقير بنغازي . وقـــد عملت أسرة القاضي وهي تسكن بالقرب منه على توسيعه وإصلاحه بعد ذلك ، وفي أواخر القرن الماضي أعــاد بناءه وشيّد به صومعة رشيقة جميلة الهندسة ضابط تركي يدعى سليم بك .

٧٢ – بنفس الشارع الحامل لهذا الإسم ، يقال ـ فيما يرويه لنـا دي أغستيني من روايات شعبية حوله ـ إن هذا المسجد هو أقدم مساجد المدينـــة جميعها وإن بانيه شخص مصراتي بنفس اللقب جـــاء إلى البلدة بعد السيد خريبيش بقليل. أعيد بناؤه وترميمه عدة مرات وبداخله ضريح الولي الشهير سيدي محمد المغربي المراكشي .

٧٣ – يقع بشارع المهدوي على مقربة من تقابل شارع غريبيل بشارع المهدوي وشارع قصر حمد بشارع ابن شتوان الذي ليس سوى امتداد لشارع قزير ، أعيد بناؤه أكثر من مرة وآخرها كانت في حدود سنة ١٩٥٠ من قبل الحاج حسن بو عوينة أحد سراة المدينة .

٧٤ – يذكر دي أغستيني أن بانيه شخص يدعى عبد السميع القاضي ، وهو من أسرة معروفة جداً في بنغازي ، وقـــد رممت وأصلحت من قبل المتصرف طاهر باشا التركي في أواخر القرن الماضي .

٧٥ – ويقع في منتصف الشارع الذي يحمـــل نفس الإسم ، ويعاد بناؤه إلى شخص يعرف باسم إبراهيم بن يعقوب وهو من الأعاقيب سكان مصراته. وقد أعيد إصلاحه من قبل محمد جربوع في حدود سنة ١٨٨٠ فيما يرويه دي أغستيني حوله .

٧٦ – ويقع بشارع عصمان ولذلك يعرف أيضاً بجامع عصمان وبجامع رشيد لأن هذا أعاد بناءه وبه دفن. وأبو قلاّز هذا فيما يقول دي أغستيني شخص

من قبيلة البراغثة (العواقير) ولكن التسمية غريبة الجرس على اللغة المحلية ، وهي إلى المغرب أقرب وبه ألصق ، والله أعلم .

٧٧ – وهو على مقربة من ضريح سيدي علي الوحيشي ، وقد أعيد بناؤه في حدود سنة ١٨٧٥ من قبل أسرة المهدوي التي تسكن بالقرب منه .

٧٨ – وقد سمي بذلك لوقوعه في شارع دريزة ، وإلا فإن بناءه قد أعيد إلى شخص يدعى الحاج مبارك المغربي.وهو فيما يقوله دي أغستيني مراكشي الأصل توفي في بنغازي بعد إقامته بها .

٧٩ – بنفس الشارع ، وبه ضريح سيدي المسطاري وهو رجل مغربي الأصل وإليه ينسب بناؤه قديماً وقد أعيد ترميمه وإصلاحه أكثر من مرة .

٨٠ – وهو بميدان الحدادة ، أعيد إصلاحه من قبل بعض الأتراك ثم في العهد الإيطالي .

٨١ – تمييزاً لها عن زاوية سيدي ابن عيسى البحرية الواقعة على مقربة من مقر السجن القديم . تقع زاوية ابن عيسى القبلية في شارع ابن عيسى، ولعل بانيها أحد أفراد اسرة البابور (من الجهمة ـ جوازي) لوقوعها وسط مساكنهم .

٨٢ – شريف مراكشي الأصل فيما يقوله دي أغستيني ، ولعله كان مخطئاً ، فالشابية التي ينسب إليها في تونس وليست في المغرب. نقل ضريحه بعد أن نقلت أجداث المقابر إلى سيدي عبيد حيث خصص له ضريح بها . وقد كان موضعه حيث عمارة التأمين الحالية .

٨٣ – وهو الولي الذي حملت هذه المدينة إسمه،وضريحه بمقبرة سيدي خريبيش.

٨٤ – رأس أسرة نجم (العواقير ـ سديدي) ويقال إنه من أقدم وأول سكان هذه المدينة ، وهو ولي له ضريح بالمقبرة التي حملت اسمه تبركاً

به ، وهو والد كل من سيدي سعيد وسيدي يونس .

٨٥ – بالشارع الذي يحمل اسمه ، وهو من قبيلة خدام الزروق في أصله .

٨٦ – بالشارع الذي يحمل اسمه ، وهو ابن لسيدي خريبيش فيما يرويه دي أغستيني عنه .

٨٧ – ضريح هذا الولي بمقبرته الواقعة في أول حي البركة ويقال إنه صحابي ولكن لا ترجمة لحياته تعيننا على مناقشة هذا القول ، وإن كنا لا نميل إلى الأخذ به .

٨٨ – ضريح هذا الولي بسوق الجريد ،وهو من قبيلة أولاد الشيخ الذين استقروا بمدينة بنغازي منذ عدة قرون .

٨٩ – بالبركة ، وهو ضريح لرجل صالح من قبيلة الفرجان .

٩٠ – بالمقبرة التي حملت إسمه ، وهو ضريح لرجل صالح من قبيلة الفواخر ، يقال إنه أقدم عهداً من سيدي خريبيش .

٩١ – وهو ضريح لرجل صالح من قبيلة الفرجان يتوسط الطريق العام تقريباً وحوله سدرة نابتة ومنها اسمه .

٩٢ – إسمه سيدي محمد بن حسن الشريف المراكشي الأصل ، له ضريح بقبة على رأس مرتفع صغير بمقبرة تحمل اسمه ، ولها مدخل في الشارع الذي حمل اسمه كذلك .

٩٣ – ضريح بالشارع الذي يحمل نفس الإسم ، لرجل صالح يقال إنه من أسرة شتوان الشنقيطي ، وأُسرة شتوان من قبائل مصراته التي سكنت بنغازي واستقرت بها منذ أمد بعيد .

٩٤ – ضريح للشخص الذي شيَّد جامع الدراوي ، يوجد مفصولاً عنه بعدد قليل من المساكن يقال إنه تونسي الأصل .

٩٥– عدة مواضع منه .

٩٦– Rod. Micacchi : — La Tripolitania sotto il dominio dei Caramanli

٩٧– دكتور حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر، ص ١٩٢ .

٩٨– محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة، ص ٢٥ .

٩٩– دكتور حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر، ص ١٩٤ .

١٠٠– محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة ، ص ٢٩ .

١٠١– En. De-Agostini : — Le Popolazioni della Cirenaica

١٠٢– محمد فؤاد شكري : السنوسية دين ودولة، ص ٧٩ .

١٠٣– Armando Salvadori : — La Cirenaica edi suoi Servizi civili
En. De Agostini : — Le popolazioni della Cirenaica

١٠٤– أي أنهم يختارون بحيث تتمثل فيهم أقوى الكتل الإجتماعية نفوذاً وعدداً كالجبارنة أو الحرابي في مجموعهم ، وللعضو على هذا المستوى في المجتمع مكانته المرموقة وسمعته وشرفه الذي يمنعه من أن يصبح أداة طيعة في يد الحاكم التركي . ولدينا أمثلة ليس هذا البحث موضعها المناسب .

١٠٥– Armando Salvadori : — La Cirenaica edi suoi servizi civili

١٠٦– لا نعرف أسماء جميع من تولوا منصب رئيس البلدية أو شيخ البلاد في العهد العثماني الثاني ولكننا نعرف أن الحاج أحمد المهدوي قد تولى هذا المنصب حوالي سنة ١٣٠٠هـ (١٨٨٣م) وبقي فيه حتى سنة ١٩٠٤ ،ثم خلفه فيه الحاج سليمان منينه مدة ثلاث سنوات أو حوالي ذلك، وممن

تولاها بعدهما الحاج أحمد الجهاني من سنة ١٩٠٨ وبقي بهـــا إلى حين الغزو الإيطالي .

١٠٧- Armando Salvadori : — La Cirenaica edi suoi servizi civili

En. De-Agostini : — Le popolazioni della Cirenaica

محمد محمد بن عامر : من أعيان ليبيــا في الجيل الماضي : « الحاج أحمد المهدوي » — العدد ١٠ السنة الثانية من مجلة ليبيا (مارس ١٩٥٣)

١٠٨- En. De-Agostini : — Le popolazioni della Cirenaica »

١٠٩- A. Bencetti : - Bengasi (1895) in " Pionieri Italiani In Libia,, pag. 322.

١١٠- Arcangelo Ghisleri : — Tripolitania e Cirenaica dal Me-diterrane al Sahara pag. 142

١١١-لعله سوق الظلام الحالي .

١١٢-المتخصصون في صناعة السروج .

١١٣-صناعة الأحذية والمصنوعات الجلدية .

١١٤-صناع الأسلحة، وسرير البندقية خشبتها الخلفية ومنها سرّار

١١٥-أي الحبوب (الشعير والقمح خاصة) .

١١٦- A. Bencetti : - Bengasi (1895) In " Pionieri Italiani In Libia " Pag 323.

١١٧-وهي بشارع قصر أحمد بمحلة الدراوي ، وقد توالى على مشيخة هـــذه الزاوية فيما يرويه محمد الطيب بن إدريس الأشهب في السنوسي الكبير (ص ٣٥) على الترتيب : سيدي عبدالله التواتي فالعلامـــة سيدي عبد الرحيم بن احمد المغبوب (المحبوب) فالشيخ محمد ابو القاسم العيساوي

فالسيد صالح العوامي فالعلامة السيد أحمد أبو القاسم العيساوي .

١١٨- Arcangelo Ghisleri : — Tripolitania e Cirenaica ecc... pag. 141

١١٩-وقد ذكر بنشيتي أن الصيادلة والأطباء في مدينة بنغازي كانوا من ضباط الجيش التركي وليسوا من المدنيين . كما أكد وجود صيدلية البلدية وحسن تزويدها بالأدوية والعقاقير .

١٢٠- A. Bencetti : - Bengasi (1895) In " Pionieri Italiani In Libia „ pag. 324.

١٢١- A. Bencetti : - Bengasi (1895) In Pionieri Italiani In Libia pag. 324.

١٢٢-راجع ما قدمه حول الموضوع السيد محمد محمد بن عامر في سلسلة مقالات نشرت بمجلة ليبيا تحت عنوان عام : « لمحات تاريخية عن أدباء بنغازي في الجيل الماضي»، وعناوين فرعية خاصة بصاحب الترجمة من مثل « الشيخ أحمد بن شتوان » و « عبد السلام أبو هديمة » و « الشيخ عبد الرحيم المغبوب » وغيرهم . وراجع كذلك محمد الطيب الأشهب في برقة العربية أمس واليوم، والسنوسي الكبير، عن بعض أبناء هذه المدينة من إخوان السنوسي وأتباعهم ، وغير هذه .

المراجع

أ – العربية :

١ – إبراهيم نصحي (دكتور) : « **تاريخ مصر في عصر البطالمة** » أربعة أجزاء الطبعة الثالثة . مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة ١٩٦٦ .

٢ – إحسان عباس (دكتور) : « **ليبيا العربية منذ الفتح العربي حتى مطلع القرن التاسع الهجري** » . دار ليبيا – بنغازي ١٩٦٧.

٣ – أحمد النائب الأنصاري : «**المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب**». منشورات الفرجاني – طرابلس .

٤ – الإدريسي الشريف : « **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** » . طبعة بريل – ليدن ١٨٦٦م .

٥ – أنتوني جوزيف كاكيا (الميجر) : « **ليبيا في العهد العثماني الثاني** » . ترجمة يوسف حسن العسلي. دار إحياء الكتب العربية –القاهرة ١٩٤٦.

٦ – البكري (ابو عبيد ، عبدالله بن عبد العزيز) : « **المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** » . طبعة جيوثنو – باريس ١٩١١ .

٧ – حسن سليمان محمود (دكتور) : « **ليبيا بين الماضي والحاضر** » . الألف كتاب ٤٢٦ – نشر مؤسسة سجل العرب – القاهرة ١٩٦٢.

٨ – شكيب أرسلان (الأمير) : « **تعليقاته على كتاب حاضر العالم الاسلامي** » (الجزء الثاني) .
٩ – فوستيل دي كولانج : « **المدينة العتيقة** » . تعريب عباس بيومي ومراجعة عبد الحميد الدواخلي ، ونشر إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية . مكتبة النهضة المصرية – القاهرة ١٩٥٠ .
١٠– «**الكتاب المقدس**»– الأناجيل الأربعة ، أعمال الرسل ، سفر المكابيين . المطبعة الكاثوليكية – بيروت ١٩٦٠.
١١– محمد بن خليل بن غلبون : « **التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار** » . الطبعة الثانية ، مكتبة النور – طرابلس ١٩٦٧.
١٢– محمد الطيب بن إدريس : « **برقة العربية أمس واليوم** » .
١٣– « « « : « **السنوسي الكبير** ».
١٤– محمد فؤاد شكري (دكتور) : « **السنوسية دين ودولة** »
١٥– محمد محمد بن عامر : «**لمحات تاريخية عن أدباء بنغازي في الجيل الماضي**». مجلة ليبيا ، بنغازي – ١٩٥٣ / ١٩٥٢.
١٦– محمد محمد بن عامر : «**من أعيان بنغازي في الجيل الماضي**» . مجلة ليبيا ، بنغازي – ١٩٥٠ / ١٩٥٢ .
١٧– مصطفى عبد الله بعيّو : « **المجمل في تاريخ لوبيا ، من اقدم العصور الى العصر الحاضر** » . الإسكندرية – ١٩٤٧ .
١٨– مصطفى كمال عبد العليم : « **دراسات في تاريخ ليبيا القديم** » . منشورات الجامعة الليبية . المطبعة الأهلية ، بنغازي – ١٩٦٦ .
١٩– ياقوت الحموي : « **معجم البلدان** » مادة برنيق .
٢٠– اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح) : « **البلدان** » – طبعة المثنى بالأوفست عن طبعة بريل سنة ١٨٩٢ م .
٢١– يوسابيوس القيصري : « **تاريخ الكنيسة** » ترجمة القس مرقس داود . دار الكرنك ، القاهرة ١٩٦٠ .

ب – الافرنجية :

22 — AMATO A. : — « L'Uadi el Gattara nel Rahba » in not. econ. della cir. Anno II N. 1 (Gen. Feb. 1939)

Bengasi 1929

23 — BEECHEY F. W. & BEECHEY H. W. : — Procedings of the expedition to explose the northern coast of Africa from Tripoly east ward; in MDCCCXXI and MDCCCXXII, comprehending an account of the greater Syrtis and Cyrenaica and of the ancient cities composing the Pentapolis. Gohn - Murray.

London 1828

24 — BERGNA, (PADRE COSTANZO) : — « Tripoli dal 1510 al 1850»

Tripoli 1925

25 — BONACELLI (BENEDETTO) : « Il fiume lethon o lete dell'antica Cirenaica» in Not. Econ. della cir. Anno III No. 1 (Gen. Feb. 1930)

Bengasi 1930

26 — BONACELLI (BENEDETTO) : — L'Africa nella concezione geografica degli antichi

Milano 1942

27 — BORSARI (FERDINANDO) : — « Geografia etnologica e storica della Tripolitania, Cirenaica, e Fezzan» L. Pierro

Napoli 1888

28 — CALI - ESCOBEDO (GIULIO) : — Enciclopedia della mitologia » De Vecchi

Milano 1964

29 — DE - AGOSTINI (ENRICO) : — « Le popolazioni della Cirenaica »

Bengazi 1922-3

30 — DE - COULANGE (FUSTEL) : — La cité antique »

هذا الكتاب رجعنا إليه في ترجمته العربية التي أشرنا إليها تحت رقم ٩ من هذه القائمة .

31 — DELLA CELLA (DR. PAOLO) : — Viaggio da Tripoli di barberia

alle frontiere Orientali dell'Eggitto

Genova 1819

32 — DE - VITO (FRANCESCO) : — Lavori del genio militare in Cirenaica »

Roma 1914

33 — DOCHESNE (MONS. L.) : — Storia della chiesa antica (3 vol.)
Roma 1911

34 — ERODOTO : — « Le storie » trad. di Luigi Annibaletti Mondadori
Milano 1956

35 — ESP. GEOG. E COMM. DI MILANO (SOCIETA DI) : — I Pionieri Italiani in Libia. Vallardi

Milano 1912

36 — FANTOLI (A.) : — « La Libia negli scritti degli anticni »
Roma 1931

37 — FERRI (SILVIO) : — I testi geografici antichi relativi alla Cirenaica »

Bengasi 1924

38 — FERRI (SILVIO) : — Manualetto numismatico della Cirenaica »
Bengasi 1924

39 — FORZANO (FRANCESCO) : — Tripoli nei suoi rapporti commerciali colle Republiche Italiane

Milano 1905

40 — GHISLANZONI (ETTORE) : « Notizie archeologiche sulla Cirenaica »

Roma 1915

41 — GHISLERI (ARCANGELO) : — « La Libia nella storia e nei viaggiatori »

Torino 1928

42 — GOODCHILD (R.G.) : — Benghazi, ihe story of a city (II E.)
Benghazi 1962

43 — GRAVES (ROBERT) : — « The Greek myths »

وقد ترجم هذا الكتاب الى الايطالية من Elisa Marpurgo ونشر من Longanesi وقد اعتمدنا الأصل والترجمة الايطاليـــة Penguin 1964

Milano 1963

44 — KRAELING (CARL M.) : — « Ptolemais, city of the Libyan Pentapolis (Orien. ins. publ. vol. XC) Unv. of Chicago press »

Illions 1962

45 — KERENNY (CARLO) : — I dei e gli eroi della Grecia (2 vol.)

46 — MICACCHI (RODOLFO) : — « La Tripolitania sotto il dominio dei caramanli »
Airoldi — Milano 1936

47 — NARDUCCI (GUGLIELMO) : — « La colonizzazione della Cirenaica nell'antichità e nel presente »
Fr. Pavone — Bengasi 1934

48 — OLIVERIO (GASPARE) : — « Documenti antichi dell'Africa Italiana. Vol. II Fasc. II (Il decreto d'Annastasio 1° sull'ordinamento Politico Militare della Cirenaica)

Bergamo 1936

49 — PALAZZI (FERNANDO) : — Dizionario illustrato di mitologia »
Mondadori

Milano 1962

50 — PANETTA (ESTER) : — Cirenaica Sconosciota

Sausoni 1952

51 — PODRECCA (GUIDO) : « Libia, impressioni e polemiche »

Roma 1912

52 — POLIBIO : — « Le storie » وقد ترجم هـــذا الكتاب الى الايطالية Carla Schick ونشر من Mondadori

Milano 1955

53 — ROMANELLI (PIETRO) : — La Cirenaica Romana (96 A.C. — 642 D.C.)
Airoldi — Milano 1943

54 — ROSSI (ETTORE) : — « Cronaca Araba di ibn Galbun (Secolo XVIII)
Bologna 1936

وهذا الكتاب ترجمة مع تحقيق وتعليق للمرجع المذكور تحت رقم ١١ من هذه القائمة .

55 — ROVERE (PADRE FRANCESCO) : — Missione Francescana in Cirenaica »
Nat. Press. Benghazi 1958

56 — SALLUSTIO (CAIO CRISPO) : — « La guerra Giogurtina »

ترجمة للمرجع من اللاتينية الى الايطاليــة بقلم : Zanichelli ونشر من

Giuseppe Lipparini

Bologna 1965

57 — SALVADORI (ALESSANDRO) : — La Cirenaica edi suoi servizi civili
Roma 1914

58 — TURING CLUB ITALIANO : — Guida d'Italia (Possedimenti e Colonie)
Milano 1929

59 — VALORE (FRANCESCO) : — « Storia della Cirenaica»
Sausoni Jirenze 1961

فهرس الموضوعات

الفصل الأول : **التسمية عبر التاريخ :**

١ ـ مدخل ١٥

٢ ـ صلة اليونان بليبيا ونشأة مدنهم بها ١٦

٣ ـ أول ذكر لإسم مدينة يوهسبيريدس في التاريخ ١٧

٤ ـ مدينة أقصى الغرب ٢٢

٥ ـ مدينة حدائق الغرب الخصبة ٢٤

٦ ـ من يوهسبيريدس إلى هسبيريدس ٢٦

٧ ـ من هسبيريدس إلى هسبيريس ٢٨

٨ ـ مدينة جديدة باسم جديد ٢٨

٩ ـ مدينة برنيس ٣٠

١٠ ـ من برنيس إلى برنيكس ٣١

١١ ـ من برنيكس إلى فرنشيدي ٣٢

١٢ ـ برنيق إسم حائر ٣٣

١٣ ـ كوية الملح ٣٥

١٤ ـ مرسى ابن غازي ٣٦

١٥ ـ مدينة بنغازي ٤٠

١٦ ـ الخطأ في بني غازي	٤٠
١٧ ـ والخلاصة	٤١
ـ الهوامش والتعليقات	٤٤

الفصل الثاني : **الموقع الجغرافي :**

١ ـ مدخل	٥٩
٢ ـ موقع مدينة يوهسبيريدس	٦٠
٣ ـ موقع مدينة برنيس	٦٢
٤ ـ موقع مدينة بنغازي	٧١
٥ ـ تحديد موقع بحيرة تريتونيس	٧٣
٦ ـ تحديد موقع وطبيعة نهر ليثون	٧٦
٧ ـ تحديد موقع حديقة الهسبيريدس	٨٤
٨ ـ الخاتمة	٨٦
ـ الهوامش والتعليقات	٨٧

الفصل الثالث : **المدينة وعالم الميثولوجيا :**

١ ـ مدخل	٩١
٢ ـ هذه الأساطير	٩٢
٣ ـ هدية الأرض إلى هيرا	٩٣
٤ ـ الهسبيريدات	٩٤
٥ ـ حدائق الهسبيريدس	٩٦
٦ ـ هركليوس والتفاح الذهبي	٩٧
٧ ـ هيرودوت وأبولونيوس وبحيرة تريتونيس	٩٩
٨ ـ نهر ليثون	١٠٢
٩ ـ غدائر برنيق	١٠٣

١٠ ـ الخلاصة ١٠٤
ـ الهوامش والتعليقات ١٠٥

الفصل الرابع : **يوهسبيريدس في التاريخ** :

١ ـ مدخل ١١٧
٢ ـ المنطقة في العصور الحجرية ١١٩
٣ ـ احتمال قدم نشأة المدينة على نصوص هيرودوت ١٢٠
٤ ـ العلاقة بين يوهسبيريدس وقورينة ١٢٤
٥ ـ خضوع يوهسبيريدس للباطيين ١٢٧
٦ ـ يوهسبيريدس ونهاية الحكم الباطي في برقة ١٢٩
٧ ـ يوهسبيريدس في العهد الباطي ١٣٢
٨ ـ العهد الجمهوري ويوهسبيريدس ١٣٧
٩ ـ يوهسبيريدس في العهد البطلمي ١٤١
١٠ ـ خاتمة هذا الفصل ١٤٤
ـ الهوامش والتعليقات ١٤٥

الفصل الخامس : **تاريخ مدينة برنيس** :

١ ـ مدخل ١٥١
٢ ـ وضع الإقليم في بداية هذا العهد ١٥٢
٣ ـ هذه المدينة بين ماجاس وبرنيس ١٥٧
٤ ـ المدينة الجديدة تحمل إسم برنيس ١٦١
٥ ـ مدينة برنيس حتى آخر العهد البطلمي ١٦٥
٦ ـ سكان مدينة برنيس في العهد البطلمي ١٦٩
٧ ـ حق المواطنة في تشريع بطلميوس ١٧١
٨ ـ وضع برنيس السياسي والإقتصادي ١٧٧

٩ ـ عقائد ومعبودات المدينة في العهد البطلمي ١٧٩
١٠ ـ مدينة برنيس في أول العهد الروماني ١٨١
١١ ـ مدينة برنيس وثورة اليهود ١٨٦
١٢ ـ مدينة برنيس حتى آخر العهد الروماني ١٨٩
١٣ ـ المسيحية في برقة وفي برنيس ١٩٠
١٤ ـ مدينة برنيس والمواطنة الرومانية ١٩٤
١٥ ـ الفنون والثقافة والعمران في برنيس ٢٠٠
١٦ ـ مدينة برنيق في العهد الإسلامي ٢٠٢
ـ الهوامش والتعليقات ٢١١

الفصل السادس : **تاريخ مدينة بنغازي :**

١ ـ مدخل ٢٢٩
٢ ـ الشيخ ابن غازي ٢٣٠
٣ ـ نشأة المدينة للمرة الثالثة ٢٣٧
٤ ـ تاريخ المدينة حتى الإحتلال العثماني الأول ٢٤٣
٥ ـ تاريخ بنغازي في العهد العثماني الأول ٢٤٨
٦ ـ مدينة بنغازي في العهد العثماني الأول ٢٥٧
٧ ـ خضوع المدينة للقوات القرمانلية ٢٦٣
٨ ـ حصار المدينة أو الحرب بين الجوازي والعلايا ٢٦٥
٩ ـ مذبحة الجوازي في قصر الحكومة ببنغازي ٢٧٠
١٠ ـ مدينة بنغازي في العهد القرمانلي ٢٧٩
١١ ـ العهد العثماني الثاني ٢٨٤
١٢ ـ مدينة بنغازي في العهد العثماني الثاني ٢٩١
ـ الهوامش والتعليقات ٣١٨

كتب للمؤلف

في سلسلة التاريخ الليبي :

١ ـ بداية المأساة ، أو التمهيد السياسي للاحتلال الايطالي .
المطبعة الأهلية ـ بنغازي ١٩٦١

٢ ـ ليبيـــا ، هذا الاسم في جذوره التاريخية .
مطابع وزارة الاعلام والثقافة ـ طرابلس ١٩٦٥

٣ ـ ليبيـــا في عشرين سنة من حكم الاسبان (١٥١٠ ـ ١٥٣٠).
منشورات مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ١٩٦٥

٤ ـ العدوان أو الحرب بين ايطاليا وتركيا في ليبيا .
منشورات مكتبة الفرجاني ـ طرابلس ١٩٦٥

٥ ـ وثائق عن نهاية العهد القرمانلي .
دار لبنان ـ بيروت ١٩٦٥

٦ ـ الدعوة السنوسية : الفكرة والتطبيق .
لم ينشر (مخطوط) ١٩٦٦

تصويب الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	تصويبه
٢١	١٦	وقتها	دقتها
٣٢	١٠	Petinceriana	Pentigeriana
٣٥	١٧	التي	الذي
٣٦	قبل الاخير	سناقس	سفاقس
٤٨	٨	والذي	والتي
٤٩	٢٢	الذي	التي
٦٨	الاخير	الى الشرق	الى الغرب
٨٤	٨	بمثالها	بتماثيلها
٩٥	٢	حبال	حيال
٩٥	٤	الثقيل	الصقيل
١٠٠	٨	تلك الاعاصير تفقدوا	ملك الاعاصير(٣٥) أنقذوا
١٠١	٢	ويشدون	ويشددن
١٠٩	٢٠	فلك	تلك
١١٤	٤	غرائزها	غدائرها
١١٩	١٠	من قبل	من مثل
١٢٠	٦	من فصل	من نص
١٢٤	٢	ممن يرجع	ممن لا يرجع
١٢٤	٧	سنتي ٥٣٠	سنتي ٥٧٠
١٣٣	٢	فتحتها	فتحة

الصفحة	السطر	الخطأ	تصويبه
١٥٦	١٩	اذن	منذ أن
١٦٢	١٩	(بطلميوس)	(بطلميوسة)
١٦٧	٥	وتولى	وسبقت تولي
١٧٩	١٨	المسيحية	السماوية
١٨٠	١٩	،والقرش	، والرمح الثلاثي
١٩١	١٨	بموطنهم الاصلي	بذلك الاقليم
١٩٤	١٣	قد كشفت	التي كشفت
١٩٧	الاخير	يلقي خطابا	يلقى خطاب
٢١٢	٧	الدراسية	الدستورية
٢١٩	٢	وليس بالقرب	وليس بالمغرب
٢٣٧	٩	نشأتها للمرةالثالثة باسم	نشأتها باسم
٢٤١	١٠	تذكر باسم هذه المدينة	تذكر هذه المدينة
٢٤١	١٠	سواه ميناء	سواه باسم ميناء
٢٤١	١١	يضعفها بعد	يضعفها ، وبعد
٢٥١	١٥	واتخذ قصراً	واتخذه قصراً
٢٥٤	١٥	مستقرة (—) لا	مستقرة لا
٢٥٩	قبل الاخير	« عوام الملح »	« عرام الملح »
٢٧٨	٣	« زيد »	« زير »
٣١٩	٢	هامش مضاف ...	هامش ٦٢ من الفصل الاول.
٣٢٣	٤	ابن خلدون	ابن غلبون
٣٢٦	الاخير	الفواقير	الفواتير
٣٢٧	٢	فواقير	فواتير
٣٣٠	١٨	Edi	Edisuoi
٣٣٨	٨	Giogortina	Giugurtina
٣٣٨	الاخير	Jirenze	Firenze

